

تغريد عارف النّجار

ستشرق الشمس

ولو بعد حين

قصة: تغريد عارف النجار
التدقيق اللغوي والمراجعة: هديل مقدادي
إخراج فني: سِنان حلّاق
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2017/7/3380
ردمك ISBN 978-9957-04-094-9
الطبعة الأولى: 2017

للتواصل مع الدار، الرجاء الكتابة لـ info@alsalwabooks.com



www.alsalwabooks.com

"ستشرق الشّمس... ولو بعد حين"

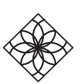
بقلم تغريد النجار

السلوى للدراسات والنشر

أحداث الرّواية وأشخاصها من خيال الكاتبة، وبالرّغم من أنّها مستلهمة من الواقع الذي عاشته سوريا في السّنوات الماضية، فإنّه لا يجوز اعتبارها توثيقًا تاريخيًّا. أيّ تشابه مع وقائع حقيقيّة غير مقصود وليس إلّا صدفة يفسّرها الوضع الإنسانيّ الّذي مرّ به ملايين السّوريّين.

1

أخبار سارّة



لوّحتْ شادن لرفيقاتِها في باصِ المدرسةِ وهيَ تقولُ ضاحكةً: "أراكمْ غدًا... باااااي." ثمَّ أسرعتْ إلى داخلِ العمارةِ وهيَ تحملُ حقيبةَ الرّياضةِ على كتفٍ وحقيبةَ المدرسةِ على الكتفِ الآخرِ.

صعدتِ الدّرَجَ بنشاطٍ إلى أنْ وصلتْ بيتَها في الطّابقِ الثّالثِ. وبينما كانتْ تفتحُ بابَ الشّقّةِ، انقلبتْ حقيبةُ المدرسةِ وبدأتِ الكتبُ تسقطُ منْها تباعًا على الأرضِ. لملمتِ الكتبَ بسرعةٍ وطرقتِ البابَ خلفَها بقدمِها ثمَّ وضعتْ أغراضَها على الطّاولةِ وهيَ تقولُ بحماسٍ: "ماما، أينَ أنتِ؟ عندي أخبارٌ رائعةٌ. لقدْ فازَ فريقُنا في مباراةِ كرةِ السّلّةِ اليومَ."

ردّتْ أمُّها: "أنا في المطبخِ يا شادن. مباركٌ الفوزُ. إنْ شاءَ اللهُ سنفرحُ بشهادتِكِ قريبًا."

دخلتْ شادن المطبخَ، وحضنتْ والدتَها وهيَ تقولُ: "هذا كلّهُ بسببِ دعواتِكِ لي هذا الصّباحَ. هلْ تعرفينَ كمْ سلّةً أدخلتُ لفريقي؟ احزري؟ احزري؟ ستَّ سلّات... نعمْ، ستَّ سلّات... أتصدّقينَ؟! قالتْ لي المدرّبةُ وفاء بعدَ انتهاءِ المباراةِ إنّها تفكّرُ في أنْ تجعلَني كابتنَ الفريقِ."

ثمَّ نظرتْ في وعاءِ الطّبخِ وقالتْ: "مممممممم. شِشبرك! إنّها أكلَتي المفضّلةُ. كمْ أشعرُ بالجوعِ يا ماما! سآخذُ حمّامًا سريعًا وأبدّلُ ملابسي وأعودُ لمساعدتِكِ."

وضعتْ شادن "سي دي" لأغانيها المفضّلةِ وذهبتْ إلى غرفتِها وهيَ تردّدُ إحدى الأغنياتِ بأعلى صوتِها.

وفي لحظةٍ، امتلأَ البيتُ بالضَّجيجِ والحياةِ كأنّهُ استفاقَ لتوّهِ منْ سباتٍ عميقٍ.

نادتْها والدتُها: "اخفضي الصّوتَ يا شادن كي لا نزعجَ الجيرانَ." ثمَّ حدّثتْ نفسَها: "أخوكِ معهُ حقٌّ في أنْ يسمّيَكِ تسونامي. لا... لا، التسونامي يدمّرُ كلَّ ما في طريقِهِ، أمّا أنتِ يا عزيزتي فمثلُ نسمةِ الهواءِ على قلبي."

رشّتِ الملحَ ثمَّ وضعتِ الزّيتَ واللّيمونَ على السّلَطَةِ، وابتسمتْ وهيَ تتذكّرُ كمْ كانتْ تشبهُ شادن في تصرّفاتِها عندَما كانتْ في نفسِ عمرِها.

خرجتْ شادن منَ الحَمّامِ، ووقفتْ أمامَ المرآةِ الملصقةِ على بابِ الخزانةِ للحظاتٍ تتفحّصُ نفسَها. هل زادَ وزنُها كما قالتْ لها سهام بلؤمٍ البارحةَ؛ فقدْ نظرتْ إليها بازدراءٍ من أعلى رأسِها إلى أخمصِ قدميْها وقالتْ:

"شو القصّة يا شادن؟ ليش نصحانة هيك؟"

أخذتْ شادن نَفَسًا عَميقًا وحبستْهُ لتقلّلَ منْ بروزِ بطنِها. قدْ تكونُ سهام على حقٍّ، ربّما يجبُ عليها أنْ تبدأَ بحميةٍ خاصّةٍ. سمعتْ أمَّها تناديها وتذكّرتْ جوعَها والشِشبرك وما لبثتْ أنْ نسيتْ فكرةَ الحميةِ. فركتْ شعرَها الكستنائيَّ الطّويلَ بالمنشفةِ ثُمَّ ربطتْهُ في أعلى رأسِها وأسرعتْ إلى المطبخِ.

قالتْ لوالدتِها: "سأحضّرُ الطّاولةَ قبلَ أنْ يأتيَ أبي وماجد. هلْ هما في طريقهِما إلى البيتِ؟"

ردّتْ والدتُها: "اتّصلَ بي ماجد قبلَ قليلٍ وأخبرني أنّهُ في طريقهِ إلى المحلِّ ليحضرَ والدَكِ."

◆◆◆

2

محلّ الأقمشة الدمشقيّة



دخلتْ سيّدةٌ أنيقةٌ إلى محلِّ "الأقمشة الدّمشقيّة" وألقتِ السّلامَ على أبي ماجد. رفعَ نظرَهُ عنْ دفترِ الحساباتِ الّذي كانَ يراجعُهُ ورحّبَ بالسّيّدةِ بحرارةٍ؛ فهيَ زبونةٌ قديمةٌ لا تشتري أقمشتَها إلّا منْ متجرِهِ.

أسرعَ أحمد ليساعدَ السّيّدةَ ولكنَّ أبا ماجد قالَ لهُ: "أكملْ ما بيدِكَ يا أحمد، سأساعدُ السّتّ أمّ أيمن بنفسي."

وعندَما عرفَ أنّها تريدُ شراءَ أقمشةٍ لها ولبناتِها بمناسبةِ عرسِ ابنِها قالَ لها: "مباركٌ يا أمَّ أيمن. كمْ مرَّ الوقتُ بسرعةٍ! أليسَ أيمن هوَ ذلكَ الولدَ الصّغيرَ الّذي كانَ يرافقُكِ أحيانًا إلى المحلِّ القديمِ في سوقِ الأقمشةِ؟"

ضحكتْ أمّ أيمن وقالتْ: "نعمْ يا أبا ماجد، ولكنّهُ الآنَ أصبحَ مهندسًا قدّ الدّنيا، وقريبًا جدًّا سيصبحُ عريسًا نفرحُ بهِ."

قالَ أبو ماجد: "أتمنّى لهُ حياةً سعيدةً وذريّةً صالحةً." ثمَّ أردفَ قائلاً: "واللهِ يا أمّ أيمن أنتِ محظوظةٌ. وصلتْنا طلبيّةٌ منْ أقمشةِ السّهرةِ الأسبوعَ الماضيَ، وستكونين أنتِ أوّلَ منْ تشتري منْها."

نادى أحمد قائلاً: "أحمد! أحضرْ لفّاتِ القماشِ المذهّبِ (اللامية)." وبدأَ يعرضُ عليها القماشَ ويشجّعُها على لمسِهِ وفحصِهِ.

بعدَ أنْ غادرتْ أمّ أيمن المحلَّ محمّلةً بالأقمشةِ الّتي ابتاعتْها، جلسَ أبو ماجد في دكّانِهِ يحتسي كوبًا من الشّايِ بنكهةِ الملّيسةِ ويراقبُ مساعدَهُ أحمد وهوَ يرتّبُ لفّاتِ الأقمشةِ الّتي فتحَها لأمّ أيمن ويعيدُها إلى مكانِها على الرّفوفِ.

هذا هوَ المحلُّ الّذي أسّسهُ وكبّرهُ عبرَ السّنينِ وأنفقَ عليهِ الغاليَ والنّفيسَ متأمّلاً أنْ يستلمَهُ ماجد منْ بعدِهِ.

ولكنَّ ماجد لا يبدي أيَّ اهتمامٍ في تجارةِ الأقمشةِ ويتجادلُ معهُ دائمًا حولَ هذا الموضوعِ ويقولُ: "أنا لا أتخيّلُ نفسي بائعًا للأقمشةِ يا أبي، أنا لستُ تاجرًا. أريدُ أنْ أعملَ صحفيًّا، وأسافرَ إلى بلدانٍ كثيرةٍ. أريدُ أنْ أكتبَ عنْ كلِّ ما يجري حولَنا."

كانَ أبو ماجد يصرخُ محتجًّا: "لماذا إذًا أتعبتُ نفسي كلَّ هذهِ السّنينَ في هذهِ المهنةِ؟! فعلتُ كلَّ هذا منْ أجلِكَ يا ماجد، وأنتَ تفضّلُ "مهنةَ المتاعبِ" على مهنةِ آبائِكَ وأجدادِكَ. تريدُ أنْ تصبحَ صحفيًّا يركضُ وراءَ الأخبارِ ويعرّضُ نفسَهُ للأخطارِ. اشتريتُ هذا المحلَّ الراقيَ في "مول" المدينةِ لأشجّعَكَ على التّمسّكِ بمهنةِ العائلةِ. ولكنْ للأسفِ "عقلك يابس." نصحتكَ بأنْ تتخصّصَ في التّجارةِ وإدارةِ الأعمالِ عندَما سجّلتَ في الجامعةِ ولكنّكَ أصررتَ على دراسةِ الصّحافةِ."

كانَ ماجد يبتسمُ محاولاً أن يداريَ غضبَ والدِهِ فيمازحُهُ قائلاً: "أنتَ تاجُ رأسي يا أبي، وأعرفُ أنّكَ تفهمني، ولكنّكَ لا تريدُ أنْ تعترفَ بذلكَ. ألمْ تخبرني

أنّكَ عندَما كنتَ في مثلِ عمري رفضتَ أنْ تشاركَ في تجارةِ العائلةِ لأنّكَ أردتَ أنْ تتخرّجَ منَ الجامعةِ بشهادةِ إدارةِ أعمالٍ، ثمَّ عملتَ موظّفًا لعدّةِ سنواتٍ، وبعدها استلمتَ المحلَّ منْ جدّي وقمتَ بتطويرِهِ؟"

كانَ أبو ماجد يقهقهُ رغمًا عنْهُ ويخمدُ غضبهُ قليلاً فيبتسمُ قائلاً: "الحقُّ عليَّ لأنّني أخبرتكَ بهذهِ القصّةِ، ها أنتَ تستخدمُها ضدّي." ثمّ يتنهّدُ ويقولُ: "ما باليدِ حيلةٌ! إذا أردتَ أنْ تجرّبَ نفسكَ في مهنةٍ أخرى ثمَّ تعودَ إلى مهنةِ العائلةِ فلا مانعَ لديَّ، شرطَ ألّا يطولَ الأمرُ؛ فأنا أريدكَ هنا بجانبي."

بعدَها يقولُ ماجد بارتياحٍ: "اتّفقنا إذًا يا والدي العزيز. أُكملُ دراستي في الصّحافةِ وأعملُ بها، ثمّ أعدكَ أن أعودَ لأعملَ معكَ وأستلمَ المحلَّ."

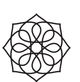
بعدَ هذا الحوارِ المتكرّرِ، كانَ أبو ماجد يدركُ في قرارةِ نفسهِ أنْ لا فائدةَ منْ محاولةِ إقناعِ ابنهِ العنيدِ ماجد فيهزُّ رأسَهُ ويقولُ: "موافقٌ يا بنيَّ... موافقٌ... واللهُ الموفِّقُ للجميعِ."

ولكنْ بعدَ مدّةٍ، ينسى أبو ماجد النّقاشَ ويعودُ إلى الجدلِ والمشاحنةِ بشأنِ دراسةِ ماجد وعملِهِ.

◆◆◆

3

لنعملْ كيدٍ واحدةٍ



جلسَ ماجد مع مجموعةٍ منَ الأصدقاءِ يتحدّثونَ عنِ الأوضاعِ في البلادِ. احتدَّ النّقاشُ بينهُمْ وعَلَتْ أصواتُهمْ.

نظرَ ماجد إلى ساعتِهِ وقفزَ منْ مكانِهِ قائلاً: "يا إلهي! انشغلْنا في النّقاشِ وتأخّرتُ على أبي. وعدتُهُ أنْ أمرَّ عليهِ لأصطحبَهُ إلى البيتِ لتناولِ الغداءِ. هيّا يا سميح، سأوصلُكَ في طريقي إلى " كراج" السّيّاراتِ لتستلمَ سيّارتَكَ كما وعدتُكَ."

قالَ سميح: "لا داعيَ يا ماجد، كيْ لا تتأخّرَ على العمِّ أبي ماجد."

- "لنْ أتأخّرَ يا صديقي؛ لأنَّ "كراج" التّصليحِ في طريقي، هيّا بنا."

في السّيّارةِ، قال سميح: "لا أدري ما الّذي حصلَ لنا يا ماجد؟ كنّا سابقًا نقضي الوقتَ في المزاحِ والحديثِ عنْ فرصِ العملِ والسّفرِ والحبِّ، ولكنّنا الآنَ ما إنْ نجلسُ معًا حتّى نبدأَ بالتّحليلِ والمناقشةِ الّتي تنتهي بالمشاجراتِ. حتّى إنَّ بعضَ أفرادِ شلّتِنا صارَ يبتعدُ عنّا وينضمُّ إلى شللٍ أخرى تتماشى مع أفكارهِ الجديدةِ. تصوّرْ يا ماجد، مرَّ فتحي قربي بالأمسِ وأشاحَ بوجههِ عنّي ولمْ يردَّ عليَّ السّلامَ، وذلكَ لأنّني اختلفتُ معهُ في الرأيِّ."

- "نعمْ يا سميح، هذا محزنٌ، ولكنَّ ما يحصلُ منْ أحداثٍ في درعا وبعضِ المناطقِ الأخرى يمسُّنا جميعًا ولا يجبُ أنْ نقفَ كمتفرّجينَ، بلْ يجبُ علينا أنْ نأخذَ موقفًا صريحًا. ألمْ تسمع ما كانَ يقولهُ صديقُنا نزار؟ بصراحةٍ، اقتنعتُ بحديثهِ وأشعرُ أنَّ علينا أنْ نتّخذَ موقفًا عمليًّا ندافعُ بهِ عنْ مبادئِنا."

- "أوافقكَ الرّأيَ يا ماجد، ولكنْ علينا ألّا ننقادَ لأعمالٍ تفرّقُنا وتجعلُ منْ أبناءِ الوطنِ الواحدِ أعداءَ. صحيحٌ أنَّ هناكَ الكثيرَ منَ المشاكلِ الّتي تواجهُنا ولكنْ علينا، نحنُ الشّبابَ، أنْ نعملَ كَيَدٍ واحدةٍ لنجدَ حلولاً منْ أجلِ الوطنِ. ها قدْ وصلنا يا صديقي. توقّفْ هنا منْ فضلكَ. شكرًا لكَ. رافقتْكَ السّلامةُ... أراكَ لاحقًا."

اضطرَّ ماجد أنْ يلفَّ حولَ المجمّعِ مرّتينِ كيْ يجدَ موقفًا مناسبًا لسيّارتِهِ، ثمَّ أسرعَ إلى الطّابقِ الثّالثِ حيثُ محلُّ والدِهِ.

دخلَ إلى المحلِّ وهوَ يلهثُ. ألقى التّحيّةَ على والدِهِ وقالَ: "آسفٌ يا أبي، تأخّرتُ عليكَ ولكنَّ ازدحامَ الشّوارعِ في هذا الوقتِ لا يُطاقُ."

- "لا بأسَ يا ماجد، هيّا بنا، أمّكَ وشادن في انتظارِنا."

- "عظيمٌ، السّيّارةُ في الشّارعِ الجانبيِّ للمجمّعِ. سأنزلُ قَبْلَكَ وأنتظرُكَ في السَّيّارةِ أمامَ البابِ الرئيسِ."

تنحنحَ أبو ماجد وقالَ وهوَ يقفُ استعدادًا للمغادرةِ: "يا اللهُ يا معينُ." ثمَّ استدارَ وقالَ لمساعدهِ: "لا تنسَ أنْ تعيدَ ترتيبَ الرّفِّ العلويِّ. انتبهْ للمحلِّ يا

أحمد! وإذا سألَ عنّي أحدُهُمْ يريدني لأمرٍ هامٍّ، اتّصلْ بي على هاتفي الخلويِّ."

مرَّ ماجد ووالدُهُ، في طريقِهما إلى البيتِ، بشارعٍ مزدحمٍ بمحلّاتٍ تجاريّةٍ معظمُها لبيعِ الخضارِ، تعجُّ أرصفتُهُ ببائعينَ يرشّونَ الماءَ أمامَ محالِّهِمْ ليقلّلوا منَ الغبارِ المتطايرِ منْ حركةِ السّيّاراتِ في الشّارعِ المكتظِّ، وهمْ ينادونَ على بضائِعهمْ: "أصابع البوبو الخيار! بندورة بندورة!" ثمَّ يرتّبونَ البضائعَ بعدَ عبثِ المتسوّقينَ آملينَ أنْ يتمكّنوا منْ بيعِ أكثرِ ما يمكنُ منَ الخضارِ قبلَ انتهاءِ النّهارِ."

يتفحّصُ المشترونَ البضائعَ ويفاصلونَ في الأسعارِ... وفي الشّارعِ تتزاحمُ السّيّاراتُ بنزقٍ لحجزِ مكانٍ في الطّريقِ الضّيّقِ الّذي يزدادُ ضيقًا بسببِ السّيّاراتِ المصطفّةِ على جانبيْهِ. تزحفُ السّيّاراتُ ببطءٍ شديدٍ.

نعيقُ أبواقِ السّيّاراتِ المتصاعدِ يعبّرُ عنْ شعورِ السّائقينَ بالإحباطِ والغضبِ منْ هذا الازدحامِ اليوميِّ الّذي يزدادُ سوءًا يومًا بعدَ يومٍ.

فجأةً، توقّفَ السّيرُ تمامًا... وبعدَ توقّفٍ زادَ عنْ دقائقَ خمسٍ، بدأتْ أوركسترا الأبواقِ الغاضبةِ تعودُ منْ جديدٍ... تووت توووووت. خرجَ أحدُ السّائقينَ من سيّارتِهِ ووقفَ على أطرافِ أصابعِهِ محاولاً أنْ يكتشفَ سببَ العائقِ في مقدّمةِ السَّيرِ ثمَّ نادى على سائقٍ آخرَ خرجَ منْ سيّارتِهِ أيضًا كيْ يستطلعَ الأمرَ قائلاً: "شو القصّة؟" فأجابَهُ الآخرُ وهوَ يتصبّبُ عرقًا: "يقولونَ إنَّ الطريقَ مغلقٌ بسببِ المظاهراتِ."

قالَ أبو ماجد باستغرابٍ: "مظاهرات؟! افتحِ الرّاديو يا ماجد لعلّنا نعرفُ ماذا يحصلُ."

- "لنْ نسمعَ أيَّ خبرٍ على الرّاديو يا بابا. سأحاولُ أنْ أقرأَ الأخبارَ على الإنترنت."

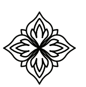
رمى ماجد هاتفَهُ جانبًا وهوَ يقولُ: "يبدو أنَّ الإرسالَ ضعيفٌ في هذهِ المنطقةِ."
وفي تلكَ اللّحظةِ، فُتحَ الطَّريقُ وبدأتِ السّيّاراتُ بالتّحرّكِ مرّةً ثانيةً.

رنَّ الهاتفُ... كانتْ شادن على الخطِّ تسألُ عنهمْ...

◆◆◆

4

المفاجأة



قالَ ماجد بصوتٍ عالٍ وهوَ يهمُّ بالخروجِ منَ البيتِ: "اسمعي يا شادن، إذا أردتِ أنْ أوصلكِ إلى حفلةِ عيدِ ميلادِ صديقتكِ فيجبُ أنْ تسرعي. أنا على عجلةٍ منْ أمري."

خرجتْ شادن منْ غرفتِها وهيَ ترتّبُ شعرَها وتمسّدُ ملابسَها وتلقي نظرةً أخيرةً على نفسِها في مرآةِ الحائطِ في الممرِّ.

قالتْ لماجد: "خلص... خلص، أنا جاهزةٌ، هيّا بنا. ولكنْ أرجو أنْ تحافظَ على وعدِكَ وتتوقّفَ للحظاتٍ عندَ محلِّ الهدايا لأشتريَ هديّةً لريم. ستكونُ كلُّ بناتِ الصّفِّ في الحفلةِ، ولا يصحُّ أنْ أذهبَ ويدايَ فارغتانِ، ألا توافقُ؟"

ضربَ ماجد على رأسِهِ وقالَ بعصبيّةٍ: "آخ منكِ يا شادن! أنا أعرفُ تمامًا أنَّ هذا سيأخذُ وقتًا طويلاً وأنا مستعجلٌ يا أختي... يا حياتي."

قالتْ شادن: "لا... لا يا ماجد، أعدُكَ لنْ أتأخَّرَ، أعرفُ ما أريدُ شراءَهُ. صدّقني، دقائقُ فقطْ وأعودُ إلى السّيّارةِ، سترى بنفسِكَ." كانتْ شادن متأكّدةً منْ سرعتِها لأنّها اختارتِ الهديّةَ قبلَ عدّةِ أيّامٍ، وهيَ سلّةٌ جميلةٌ من الصّابونِ المعطّرِ وقدْ طَلَبَتْ منْ صاحبِ المحلِّ أنْ يحتفظَ بها جانبًا.

حافظتْ شادن على وعدِها، ولمْ يصدّقْ ماجد نفسَهُ عندَما عادتْ بعدَ دقائقَ معدودةٍ إلى السّيّارةِ وهيَ تقولُ: "شلون أنا معك يا ماجد؟"

وعندَما اقتربا منْ بيتِ ريم قالتْ شادن: "سأعودُ مشيًا على الأقدامِ إلى بيتِنا فهوَ ليسَ بالبعيدِ."

قالَ ماجد وهوَ يوقفُ سيارتَهُ أمامَ عمارةٍ قديمةِ البناءِ تشبهُ إلى حدٍّ كبيرٍ عمارةَ سَكَنِهِمْ: "الوضعُ في البلدِ غيرُ مريحٍ يا شادن. اتّصلي بي عندَما تريدينَ العودةَ إلى البيتِ."

قالتْ شادن باستغرابٍ: "ولكنْ ما المشكلةُ؟ ماذا يحصلُ؟"

قالَ ماجد: "ألمْ تسمعي عنِ المظاهراتِ الّتي خرجتِ اليومَ في كلِّ مكانٍ؟ الله يستر، يقولونَ إنَّ البلدَ على فوّهةِ بركانٍ. منذُ مدّةٍ بدأتِ المظاهراتُ في درعا وهيَ تمتدُّ إلى مناطقَ أخرى كلَّ يومٍ."

سألتْ شادن بقلقٍ: "هلْ تتوقّعُ أنْ يحصلَ شيءٌ سيّءٌ يا ماجد؟"

ردَّ ماجد: "لا أحدَ يدري. الوضعُ متأزّمٌ والحيطةُ ضروريّةٌ، سأذهبُ لقضاءِ بعضِ الوقتِ مع أصدقائي ثمَّ أعودُ لأصطحبَكِ إلى البيتِ. أرجو أنْ تستمتعي بوقتِكِ."

قالتْ شادن والقلقُ بادٍ على وجهِها: "وأنتَ أيضًا انتبهْ لنفسِكَ يا ماجد."

كانتِ الحفلةُ مفاجأةً لريم، فقدِ اتّفقتْ والدتُها مع صديقاتِها على أنْ تشغلَها خارجَ البيتِ حتّى يتمَّ ترتيبُ كلِّ شيءٍ للحفلةِ؛ لذلكَ أرسلتْها إلى بيتِ خالتِها

بحجّةِ إحضارِ شيءٍ كانتْ أمُّها قدْ أوصتْ خالتَها بشرائِهِ لها، وقدْ تعاونتِ الخالةُ بأنْ أخّرتْ ريم عندَها إلى أنْ وصلتْها رسالةٌ هاتفيّةٌ منْ أختِها تخبرُها فيها أنَّ الوقتَ قدْ حانَ لعودةِ ريم.

مشتْ ريم عائدةً إلى بيتِها الّذي لا يبعدُ كثيرًا عنْ بيتِ خالتِها وهيَ تشعرُ بالحزنِ والكآبةِ. يبدو لها أنَّ الجميعَ قدْ نسوا عيدَ ميلادِها. إنّهُ عيدُ ميلادِها السادسَ عشرَ وهوَ عيدٌ مميّزٌ بالنّسبةِ لها ويدلُّ على أنّها تقفُ على أبوابِ عالمِ الكبارِ. قريبًا ستتخرّجُ منَ المدرسةِ وتتابعُ دراستَها الجامعيّةَ. ستكونُ كلُّ الفرصِ أمامَها مفتوحةً لتنطلقَ وتغيّرَ العالمَ وتحقّقَ أحلامَها. ولكنْ يبدو أنْ لا أحدَ قدْ تذكّرَ عيدَ ميلادِها. والداها وإخوتُها وصديقاتُها لمْ يباركوا لها بهِ، مع أنّها حاولتْ مرارًا التّلميحَ إليهِ. منعَها كبرياؤُها من تذكيرِهِمْ بهِ واكتفتْ بالشّعورِ بالحزنِ والغضبِ؛ فهيَ لا تنسى عيدًا لأحدٍ وهاهمْ جميعُهمْ قدْ نسوها.

ما إنْ فتحتْ ريم بابَ بيتِها حتّى قفزَ الجميعُ من مخابئِهِم وهمْ يصيحونَ: "عيدٌ سعيدٌ يا ريم... عيدٌ سعيدٌ."

ملأتِ الفرحةُ قلبَها، لقدْ تذكّرَ الجميعُ عيدَ ميلادِها وأحبّوا أن يفاجئوها. إنّهُ أسعدُ يومٍ في حياتِها.

حضنتْ شادن ريم بشدّةٍ وهيَ تقولُ لها: "كلَّ سنةٍ وأنتِ طيّبةٌ يا ريم. أمعقولٌ أنْ أنسى عيدَ ميلادِكِ يا هبّولة؟ أنتِ صديقتي المفضّلةُ."

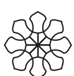
قالتْ ريم بتأثّرٍ واضحٍ وهيَ تضحكُ: "وأنتِ كذلكَ يا طبّوشة." وهربتْ بسرعةٍ لتتفادى ضربةَ شادن الّتي لحقتْها ضاحكةً وهيَ تقولُ: "طبوشة!!... طبوشة!

بس لو مو عيد ميلادك يا ريم كان أرجيتك. ألمْ تلاحظي كمْ خسرتُ منْ وزني؟"

كانتْ حفلةً رائعةً فيها ما لذَّ وطابَ من أصنافِ الطّعامِ والرّقصِ والموسيقى والضّحكِ. استمتعتْ شادن بوقتِها مع زميلاتِها كلّهن. حتّى سهام لاطفتْها وأطرتْ على فستانِها وسألتْها منْ أينَ اشترتْهُ.

◆◆◆

5
ماجد



عادَ ماجد منْ زيارتِهِ وهوَ يشعرُ بالضِّيقِ فقدْ تحوّلتْ جلسةُ الأصدقاءِ إلى نقاشٍ سياسيٍّ حادٍّ حولَ الاعتصاماتِ والمظاهراتِ الّتي نزلتْ إلى الشّوارعِ في المدينةِ. كانَ بعضُهُمْ يؤيّدُ فكرةَ التّظاهرِ والمطالبةِ بالتّغييرِ، وينوي أنْ يشاركَ في أيِّ مظاهرةٍ قادمةٍ، أمّا البعضُ الآخرُ فكانَ يطالبُ بالتّروّي حتّى تنجليَ الصّورةُ بوضوحٍ أكبرَ، وكالعادةِ تطوّرَ النّقاشُ بعدَ فترةٍ قصيرةٍ إلى مشادّةٍ كلاميّةٍ. كلُّ واحدٍ متمسّكٌ برأيِهِ ويحاولُ أنْ يفرضَهُ على الآخرينَ.

في طريقِ العودةِ إلى البيتِ، انتبهتْ شادن إلى أنَّ ماجد شاردُ الذّهنِ لا يعلّقُ على حديثِها أوْ على وصفِها الدّقيقِ لما حدثَ في حفلةِ عيد ميلادِ ريم فتوقّفتْ عنِ الحديثِ وقالتْ: "ما بكَ يا ماجد؟ يبدو عليكَ التّوتّرُ. نسيتُ نفسي وأنا أثرثرُ، أما زلتَ تفكّرُ في موضوعِ المظاهراتِ؟"

هزَّ ماجد رأسَهُ بعصبيّةٍ وسادَ الصّمتُ في السّيَارةِ.

حاولتْ شادن أنْ تغيّرَ الموضوعَ فنظرتْ إلى ماجد وقالتْ: "صحيحٌ! لمْ أسألكَ عنْ جمعتِكَ مع أصدقائكَ. هلِ استمتعتَ بوقتِكَ معهُمْ؟"

قالَ ماجد باقتضابٍ: "كالعادةِ!"

أرادتْ شادن أنْ تحثَّهُ على قولِ المزيدِ، ولكنّها كانتْ تعرفُ طبعَ أخيها جيّدًا وقدْ تعلّمتْ معَ الزّمنِ ألّا تلحَّ عليهِ عندَما يكونُ في مزاجٍ معيّنٍ.

كانتْ شادن تشكرُ اللهَ على أنَّ ماجد يختلفُ عنْ غيرِهِ من إخوانِ صديقاتِها، فكثيرًا ما كانتْ تسمعُ هذهِ العبارةَ تتردّدُ أمامَها: "كمْ أنتِ محظوظةٌ يا شادن! أخوكِ ماجد لا يتدخّلُ في شؤونكِ الخاصّةِ ولا يفرضُ سلطتَهُ عليكِ."

والحقُّ يقالُ، فإنَّ الفضلَ يعودُ لوالديْها اللّذيْنِ ربّياهُ منذُ صغرِهِ على احترامِ كلِّ فردٍ في البيتِ وعلى المشاركةِ في المهامِّ المنزليّةِ اليوميّةِ؛ فقدْ كانَ عليهِ أنْ يرتّبَ سريرَهُ في الصّباحِ تمامًا مثلَ أختِهِ، ويقومَ ببعضِ أعمالِ المنزلِ أيضًا، ولمْ يمنحاهُ أيَّ امتيازاتٍ خاصّةٍ تسمحُ لهُ أنْ يفرضَ سلطتَهُ على أختهِ بلْ كانَ كلُّ موضوعٍ خلافيٍّ يخضعُ للمناقشةِ. صحيحٌ أنّهُ كانَ يتشاجرُ معها أحيانًا كما يحصلُ بينَ أيِّ أخويْنِ فيرتفعُ صراخُهُما ليملأَ البيتَ، ولكنَّ شجارَهُما كانَ ينتهي دائمًا بسرعةٍ، ودونَ أنْ يتركَ أثرًا على العلاقةِ بينَهُما.

كانَ أبو ماجد يعاملُ والدتَهُما بكلِّ احترامٍ وتقديرٍ، ومع أنّهُ كانَ تقليديًّا في كلِّ تصرّفاتِهِ وعاداتِهِ إلّا أنَّ أفرادَ أسرتِهِ لا يذكرونَ أنّهُ أساءَ معاملتَها قطُّ... وطبعًا هذا لمْ يمنعْ حصولَ مناوشاتٍ بينَهُما مثلَما يحصلُ بينَ كلِّ الأزواجِ، ولكنْ كانَ كلٌّ منهما يستوعبُ الآخرَ ولا يسمحُ بأنْ يتطوّرَ سوءُ التّفاهمِ لما هوَ أكبرُ أوْ أخطرُ، فقدْ تزوّجَها بالرّغمِ منْ معارضةِ عائلتِهِ الشّديدةِ. كانَ منَ المتوقّعِ منهُ أنْ يتزوّجَ ابنةَ عمّهِ، ولكنَّ الصّدفةَ لعبتْ دورَها في تغييرِ مسارِ حياتِهِ... ففي إحدى زياراتِهِ إلى دمشق دعاهُ زميلُهُ في الجامعةِ، عادل، لتناولِ الغداءِ في منزلِهِ في مخيّمِ اليرموك. وهناكَ تعرّفَ على أختِهِ زهرة وأُعجِبَ بجمالِها ونباهتِها

وخفّةِ دمها. استحوذتْ زهرة على تفكيرِهِ، ولمْ تفارقْ صورتُها ذهنَهُ، فصارَ يتعمّدُ الذّهابَ إلى دمشق ليزورَ صديقَهُ، عادل، ليرى زهرة ويتحدّثَ معَها.

وعندَما فاتحَ أهلَهُ برغبَتِهِ في الزّواجِ منْها، واجهَ معارضةً شديدةً منَ الجميعِ، فقدْ جرتِ العادةُ أنْ يتزوّجَ أفرادُ عائلتِهِ من نفسِ العائلةِ أوْ نفسِ المحيطِ، فكيفَ يوافقونَ على زواجِ ابنِهِمْ منْ فتاةٍ ليستْ سوريّةً وتعيشُ في مخيّمٍ للّاجئينَ؟

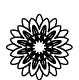
قاطعَهُ والدُهُ لمدّةٍ طويلةٍ ولمْ يتصالحا إلّا بعدَ أنْ وُلِدَ ماجد، فأحبَّ الجدُّ أنْ يتعرّفَ على حفيدِهِ الجديدِ الّذي يحملُ اسمَهُ.

كانتْ شادن تحبُّ الاستماعَ إلى هذهِ القصّةِ مرارًا وتكرارًا، ولا تصدّقُ أنَ أمَّها الرزينةَ الجادّةَ كانَ لها قصّةُ حبٍّ مع والدِها، وأنَّ والدَها التقليديَّ يملكُ في قلبِهِ كلَّ هذا الحبِّ وهذهِ الرّومانسيّةِ فتسرحُ بخيالِها وتتنهّدُ متمنيّةً أنْ تلتقيَ بفارسِ أحلامٍ يحاربُ العالمَ من أجلِ حبّهِما.

◆◆◆

6

بطولة المدارس



حافظتِ المدرّبةُ وفاء على وعدِها وأعلنتْ أمامَ كلِّ طالباتِ الصّفِّ أنّها ترشّحُ شادن لتكونَ كابتنَ فريقِ كرةِ السّلّةِ في تصفياتِ المدارسِ. تجمّعتْ زميلاتُ شادن حولَها وقلنَ لها: "مباركٌ يا بطلة! واللهِ تستحقينَ ذلكَ. أدخلتِ ستَّ سلّاتٍ في المباراةِ الأخيرةِ."

انشغلتْ شادن بالدّراسةِ والامتحاناتِ، ولكنَّ تمارينَ كرةِ السّلّةِ استحوذتْ على الكثيرِ منْ وقتِها خصوصًا لأنَّ فريقَ المدرسةِ كانَ يشاركُ في دوري مدارسِ البناتِ وكانتْ هناكَ مبارياتٌ أسبوعيّةٌ، وقدْ نجحتْ مدرسةُ شادن بالوصولِ إلى التّصفياتِ. اشتدّتِ المنافسةُ بينَ المدارسِ. الكلُّ يرغبُ بالفوزِ بلقبِ "بطولةِ المدارسِ". وأخيرًا، حانَ وقتُ المباراةِ النهائيّةِ...

شعرتْ شادن بالتّوتّرِ، وفي المساءِ الّذي يسبقُ يومَ المباراةِ الحاسمةِ لمْ تستطعْ أنْ تركّزَ على أيِّ شيءٍ.

قالتْ لها والدتُها: "لا تقلقي يا عزيزتي، فأنتِ لاعبةٌ ممتازةٌ وفريقُ مدرستِكِ منْ أفضلِ الفرقِ المدرسيّةِ."

ربّتَ والدُها على يدِها بحنانٍ وهوَ يقولُ: "المهمُّ يا ابنتي أنْ تقدّمي أنتِ

وفريقُكِ أفضلَ ما يمكنُ، ومهما كانتِ النّتيجةُ سنكونُ فخورينَ بكِ."

علّقَ ماجد قائلاً: "ما موعدُ مبارياتِ الأولمبيادِ يا كابتن؟"

ضحكتْ شادن ونكزتْ ماجد في كتفِهِ وهيَ تقولُ: "أتسخرُ منّي يا سيّد ماجد؟!"

صاحَ ماجد وهوَ يبتعدُ ضاحكًا: "لا... أبدًا، ولكنّي أمازحُكِ ليخفَّ توتّرُكِ. كمْ أتمنّى لوْ أستطيعُ حضورَ المباراةِ لأشجّعكِ، ولكنْ للأسفِ، عندي امتحانٌ في الجامعةِ في نفسِ الوقتِ."

ثمَّ أردفَ قائلاً: "تذكّري إذا فزتِ يا أختى العزيزةَ أنّني كنتُ مدرّبَكِ الأوّلَ في كرةِ السّلّةِ."

ابتسمتْ شادن وقالتْ: "وإذا خسرنا؟"

قالَ ماجد ممازحًا: "لا أعرفُكِ ولا تعرفينَني!"

كانتْ مباراةً حاسمةً تمكنّتْ شادن فيها منْ إدخالِ عشرِ سلّاتٍ لفريقِها. كانَ فريقُ مدرسةِ النّورِ قويًّا وكانتِ المنافسةُ شرسةً والنّتيجةُ متقاربةً: 105 نقاطٍ لمدرسةِ شادن و103 نقاطٍ لمدرسةِ النّورِ.

استلمتْ شادن الكأسَ نيابةً عنْ فريقِها وحملتْهُ عاليًا ودارتْ معَ الفريقِ في الملعبِ. لمْ تشعرْ منْ قبلُ بمثلِ هذهِ السّعادةِ وهيَ ترفعُ الكأسَ وتسمعُ هتافاتِ طالباتِ مدرستِها وهنّ يحيّينَ الفريقَ.

أرسلتْ رسالةً نصّيّةً إلى ماجد تقولُ فيها: "فزنا باللّقبِ وقريبًا سنفوزُ بالألعابِ الأولمبيّةِ ☺ "

ردّ ماجد: "ألف مبروووووك. سأحضرُ الحلوانَ معي إلى البيتِ. مدرّبكِ الأوّلُ ماجد ☺☺ "

حضنتِ المدرّبةُ وفاء لاعباتِ الفريقِ واحدةً واحدةً، وباركتْ لهنَّ بالفوزِ المستحقِّ وهيَ تقولُ: "عندي أخبارٌ رائعةٌ! أخبرني مديرُ اتّحادِ كرةِ السّلّةِ أنّهُ سيتمُّ اختيارُ لاعباتٍ منْ فريقِ المدرسةِ ليشاركنَ في المنتخبِ الوطنيِّ، وهذا شرفٌ عظيمٌ لنا جميعًا."

كانَ والدُ شادن ينتظرُها عندَ بابِ المدرسةِ؛ فأسرعتْ إلى السّيّارةِ، ورمتْ حقيبتَها في المقعدِ الخلفيِّ ثمَّ دخلتِ السّيّارةَ وحضنتْ والدَها وهيَ تقولُ: "بابا... بابا، لقدْ فزْنا باللّقبِ."

ضحكَ والدُها وقالَ: "مباركٌ يا ابنتي. ستفرحُ والدتُكِ كثيرًا. ظلّتْ تدعو لكِ ولفريقِكِ كلَّ الوقتِ وقدِ استجابَ اللهُ لدعائِها. هيّا أخبريها بالنّتيجةِ، وقولي لها إنّنا في الطّريقِ إلى البيتِ ولنْ نتأخّرَ."

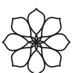
ولكنَّ الأمورَ لمْ تجرِ ببساطةٍ، فطريقُ العودةِ إلى البيتِ كانتْ مغلقةً بالحجارةِ وبالدّواليبِ المحترقةِ. بسرعةٍ استدارَ أبو ماجد ودخلَ في طريقٍ فرعيٍّ، واتّخذَ طريقًا بديلاً.

هلْ ما يحصلُ هوَ مجرّدُ مناوشاتٍ آنيّةٍ ستنتهي بسرعةٍ أمْ إنذارٌ لما قدْ يحدثُ

لاحقًا منْ تعقيداتٍ؟ وأخيرًا وبعدَ لفٍّ ودورانٍ وصلا إلى البيتِ منهكيْنِ ومتوتّريْنِ وقدْ طارتْ فرحةُ الفوزِ ببطولةِ المدارسِ.

◆◆◆

7
أمّ ماجد



أخبارُ الاشتباكاتِ في الأحياءِ القريبةِ وتوسّعِ المظاهراتِ بدأتْ تثيرُ قلقَ النّاسِ وتستحوذُ على تفكيرِهمْ وعلى أحاديثِهمْ. ملأتِ الإشاعاتُ البلدَ. ورويدًا رويدًا فقدَ النّاسُ الشّعورَ بالأمانِ والاستقرارِ، وتملّكُهُمُ الشّعورُ بأنَّ شيئًا رهيبًا على وشكِ الحدوثِ، ودونَ أنْ يشعروا تغيّرَ نمطُ حياتِهمْ.

قلّتِ الزّياراتُ بينَ شادن وصديقاتِها، وقلَّ الذّهابُ إلى المولِ أوْ إلى المقهى ثمَّ انقطعَ هذا تمامًا، واكتفتْ شادن بالتّواصلِ مع ريم وزميلاتِها عنْ طريقِ الهاتفِ. لمْ تطلْ فرحتُها بترشيحِها هيَ وزميلتيْنِ لها للمنتخبِ الوطنيِّ لأنَّ كلَّ المبارياتِ تمَّ إلغاؤها أوْ تأجيلُها إلى أجلٍ غيرِ مسمًّى. أصبحَ همُّ أمّ ماجد أنْ تتابعَ يوميًّا تحرّكاتِ أفرادِ عائلتِها، ولمْ تكنْ تشعرُ بالرّاحةِ إلّا عندَما يجتمعونَ كلُّهمْ تحتَ سقفٍ واحدٍ، أمّا أبو ماجد فقدْ كانَ يصرُّ على الذّهابِ إلى المحلِّ كلَّ يومٍ كما اعتادَ. وبالطّبعِ وفي ظلِّ هذهِ الأحداثِ فإنَّ الطلبَ على الأقمشةِ خفَّ بشكلٍ كبيرٍ. وعندَما كان يتذمّرُ لزوجتِهِ منْ قلّةِ الزّبائنِ، كانتْ تردُّ عليهِ قائلةً: "يا حسرَتي! لقدْ فقدَ النّاسُ الرّغبةَ في كلِّ شيءٍ. الله يكون في العون."

فيتمتمُ أبو ماجد قائلاً: "كانَ اللهُ في عونِ الجميعِ... يا خوفي منَ القادمِ!"

أكثرُ ما كانَ يقلقُ زهرة وحيدُها ماجد. كانتْ تخافُ عليهِ منْ تهوّرِ الشّبابِ. تخافُ منْ تأثيرِ أصدقائِهِ عليهِ خاصّةً بعدَ أنْ لاحظتْ مؤخّرًا أنّهُ بدأَ يتغيّرُ، فقدِ ازدادتْ عصبيّتُهُ، وكانَ يناقشُ والدَهُ بحدّةٍ لمْ تعهدْها فيهِ منْ قبلُ وهوَ يكرّرُ على مسامعِها: "لا يجوزُ أنْ نكونَ حياديّينَ. يجبُ أنْ نتّخذَ موقفًا واضحًا ممّا يحدثُ."

كانَ يتأخّرُ خارجَ البيتِ، وعندَما يعودُ ينشغلُ مباشرةً بالحديثِ على الهاتفِ. يتحدّثُ برموزٍ غيرِ مفهومةٍ لأفرادِ عائلتِهِ، فتتبادلُ شادن النّظراتِ مع والدتِها باستغرابٍ. مازحتْهُ شادن في إحدى المرّاتِ قائلةً: "واللهِ تحتاجُ إلى "شرلوك هولمز" ليحلّلَ ما تقولُ أنتَ ورفاقُكَ." ولكنّهُ رمقَها بنظرةٍ غاضبةٍ ودخلَ غرفتَهُ ليبدأَ مكالمةً جديدةً.

حاولتْ والدتُهُ أنْ تتحدّثَ معهُ وتفهمَ ما يجولُ بخاطرِهِ كيْ تعيدَهُ إلى حضنِ العائلةِ، ولكنّهُ كانَ يردُّ على محاولاتِها بعصبيَّةٍ:"يامو إنت منّك شايفة شو عم يصير حوالينا."

وعندَما تصرُّ عليهِ أنْ يوضّحَ موقفَهُ أكثرَ كانَ يقولُ باقتضابٍ: "الخطرُ يحدقُ بنا ويقتربُ منْ مدينتِنا، وعلينْا نحنُ الشّبابَ أنْ ندافعَ عنْها." كانتْ تضربُ كفًّا بكفٍّ وتزدادُ خوفًا وقلقًا، وتتمنّى أنْ يعودَ طفلاً صغيرًا لتضمَّهُ إلى صدرِها وتحميَهُ منْ كلِّ الأخطارِ. أمّا اليومَ فهيَ ككثيرٍ منَ الأمّهاتِ تقفُ عاجزةً تمامًا عنِ التّحكّمِ بما يحدثُ وبما سيحدثُ.

◆◆◆

8

وداعًا صديقتي



دقّاتٌ سريعةٌ على البابِ جعلتِ الجميعَ يتوقّفونَ عنِ الكلامِ وينظرونَ إلى البابِ بتوجّسٍ. منْ هذا الّذي يدقُّ بابَهُمْ بهذا الإصرارِ؟

نظرَ أبو ماجد منْ خلالِ عينِ البابِ السّحريّةِ ثمَّ فتحَ البابَ وإذْ بريم تدفعُ البابَ بقوّةٍ وتسرعُ لتحضنَ شادن وهيَ تبكي وتقولُ: "سنغادرُ سوريا يا شادن. سنذهبُ إلى الأردنِّ. أقاربُنا يعيشونَ هناكَ منذُ سنواتٍ وقدْ وعدوا أنْ يساعدوننا. الحياةُ لمْ تعدْ تطاقُ هنا، والخطرُ يحدقُ بنا منْ كلِّ جانبٍ. لمْ أستطعِ الذّهابَ دونَ أنْ أودّعَكِ. منْ يدري متى نلتقي مرّةً ثانيةً؟"

صاحتْ شادن: "تغادرينَ؟ لماذا لمْ تخبريني منْ قبلُ؟"

قالتْ ريم وهيَ تحضنُ صديقتَها: "كانَ قرارًا سريعًا اتّخذَهُ أبي بعدَ أنْ هاجمَهُ بعضُ الشّبّانِ وكسروا زجاجَ سيّارتِهِ للمرّةِ الثّانيةِ. أعدُكِ يا صديقَتي، سأتواصلُ معكِ كلّما سنحتْ ليَ الفرصةُ."

وأسرعتْ ريم نحوَ البابِ وهيَ تقولُ باكيةً: "خاطرك عمي... خاطرك خالتي."

وقفتْ شادن مشدوهةً لا تعرفُ ماذا أصابَها. صديقتُها العزيزةُ ريم، صديقتُها

منذُ صفِّ الرّوضةِ ستغادرُ المدينةَ مع عائلتِها. لمنْ ستحكي أسرارَها؟ مع منْ ستضحكُ وتتخاصمُ وتتصالحُ؟

شعرتْ بيدِ والدتِها تربّتُ على كتفِها بحنانٍ وهيَ تقولُ: "لا تحزني يا شادن. مهما تعقّدتِ الأمورُ فمصيرُها أنْ تنحلَّ ويعودَ كلُّ شيءٍ مثلما كانَ."

انتفضتْ شادن ووقفتْ أمامَ والدِها وهيَ تقولُ غاضبةً: "أبي لماذا لا نغادرُ نحنُ أيضًا؟ نصفُ سكّانِ الحيِّ غادروا والنّصفُ الآخرُ على وشكِ ذلكَ. يقولونَ إنَّ حيَّنا في خطرٍ وإنّنا في مرمى القصفِ."

صاحَ أبو ماجد وهوَ يخبطُ يدَهُ على الطّاولةِ: "لا وألفُ لا... لنْ أتركَ بيتي ومدينتي مهما حصلَ. سنبقى هنا ونموتُ هنا."

ثمَّ التفتَ إلى زوجتِهِ وهمسَ بصوتٍ مشحونٍ فيه حشرجةٌ: "أينَ ماجد يا زهرة؟ لا أعرفُ ما الّذي أصابَ هذا الشابَّ؟ نكادُ لا نراهُ."

تنهّدَتْ زهرة وقالتْ: "يشهدُ اللهُ أنّني لا أنامُ اللّيلَ وأنا أفكّرُ فيهِ. ترى أينَ ينامُ؟ أينَ يعيشُ؟ ومنْ همْ رفاقُهُ؟ هلْ هوَ في خطرٍ؟ يكلّمُنا مرّةً كلَّ أسبوعٍ كلماتٍ مختصرةً ويغلقُ الخطَّ."

هزَّ أبو ماجد رأسَهُ وقالَ: "الحمدُ للهِ على هذهِ المكالماتِ. على الأقلِّ نطمئنُّ أنّهُ حيٌّ يرزقُ."

اتّجهتْ شادن إلى غرفتِها ولكنَّ والدَها ناداها وقالَ لها: "اجلسي بجانبي يا شادن." وضعَ ذراعَهُ حولَ كتفِها وشدّها إليهِ وقبّلَ جبينَها قائلاً: "لمْ أقصدْ أنْ

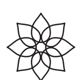
أصرخَ في وجهِكِ يا ابنتي، ولكنّني متوترٌ وقلقٌ. لا أقدرُ أنْ أفكّرَ أو أتخيّلَ أنْ أتركَ هذا البيتَ الّذي عملتُ أنا ووالدتُكِ على بنائِهِ بجهدٍ ليحتضنَ عائلتَنا. أتذكّرُ أيضًا ما حلَّ بعائلةِ والدتِكِ بعدَ أنْ خرجوا منْ فلسطين. فقدوا كلَّ ممتلكاتِهِمْ ووجدوا أنفسَهُمْ في مخيّماتٍ للّاجئينَ بعيدينَ عنْ وطنِهِمْ. يواجهونَ أشدَّ الصعوباتِ في السّفرِ والتّنقّلِ منْ بلدٍ إلى آخرَ. أهمُّ سببٍ يمنعني منَ الرّحيلِ يا شادن هوَ أنّني لا أستطيعُ أنْ أبتعدَ عنْ أخيكِ ماجد. يجبُ أنْ أكونَ هنا بانتظارِهِ عندَما يقرّرُ العودةَ إلى عائلتِهِ."

قالتْ شادن وهيَ تضعُ رأسَها على صدرِ أبيها والدّموعُ الصّامتةُ تنحدرُ على وجنتَيْها: "أعرفُ يا أبي! أعرفُ وأنا آسفةٌ أيضًا لأنّني صرختُ في وجهِكَ."

◆◆◆

9

ماجد في ساحة القتال



انتبهْ! صاحَ إبراهيم منْ وراءِ الصّخرةِ الّتي كانَ يحتمي خلفَها. ارتمى ماجد أرضًا وتدحرجَ بسرعةٍ نحوَ حفرةٍ قريبةٍ منهُ. "وززززززززززز" مرّتِ الرّصاصةُ منْ فوقِ رأسِهِ. بضعةُ سنتيمتراتٍ فقط كانتْ بينَهُ وبينَ موتٍ محقّقٍ. زحفَ إبراهيم نحوَهُ وهمسَ قائلاً: "يبدو أنّها دوريّةٌ تستكشفُ المكانَ. الحمدُ للهِ، لمْ يتوقّفوا. دعنا نعودُ إلى المعسكرِ الآنَ."

انشغلَ قائدُ المجموعةِ بدراسةِ خريطةِ المنطقةِ محاولاً تحديدَ الفصيلِ الّذي تنتمي إليهِ هذهِ الدّوريّةُ وما الخطرُ المحدقُ بمجموعتِهِمْ.

في تلكَ اللّيلةِ، تسلّقَ ماجد شجرةَ الصّنوبرِ في طرفِ الحقلِ، وجلسَ على غصنٍ عالٍ قويٍّ ممّا أتاحَ لهُ فرصةَ رؤيةِ منطقةٍ واسعةٍ حولَ المعسكرِ. ركزَ سلاحَهُ أمامَهُ على غصنٍ آخرَ وارتاحَ في جلستِهِ. كانَ القمرُ بدرًا وكانَ الحقلُ أمامَهُ مكشوفًا. ارتجَّ هاتفُهُ فهمسَ قائلاً: "الهدوءُ يسودُ المكانَ. لا تقلقْ، سأظلُّ منتبهًا."

فكّرَ في أمّهِ وأبيهِ وفي أختهِ شادن. شعرَ بالبعدِ الشديدِ عنْهُمْ وكأنّهُمْ في كوكبٍ آخرَ. لقدْ غادرَ المنزلَ منذُ أسبوعيْنِ أوْ أكثرَ بعدَ أنْ أخذَ قرارًا بالانضمامِ إلى

مجموعةٍ منَ الشّبابِ الّذينَ ينتمونَ إلى فصيلٍ يطالبُ بالتّغييرِ. لمْ يخبرْ أهلَهُ عنْ قرارِهِ؛ لأنّهُ يعرفُ أنّهُمْ سيحاولونَ منعَهُ منْ تنفيذِهِ خوفًا عليهِ، ولكنّهُ لمْ يستطعْ أنْ يمنعَ نفسَهُ منَ التّفكيرِ بهمْ. هلْ همْ بخيرٍ؟ وكيفَ يقضونَ الوقتَ في ظلِّ هذهِ الأحداثِ المتسارعةِ؟

مسحَ دمعةً في طرفِ عينِهِ وتنحنحَ وهوَ يحاولُ أنْ يزيلَ غصّةً في حلقهِ ويركّزَ تفكيرَهُ على موضوعٍ آخرَ.

عادَ بفكرِهِ إلى نجاتِهِ منْ موتٍ محقّقٍ. لقدْ كانتِ الرّصاصةُ قريبةً جدًّا منْ رأسِهِ حتّى إنّهُ رأى وميضَها بوضوحٍ. ترى منْ هوَ هذا العدوُّ الّذي صوّبَ الرّصاصةَ نحوَهُ؟ في مثلِ هذهِ الحروبِ لا أحدَ يعرفُ، قدْ يكونُ قريبًا أو زميلاً في الدّراسةِ... قدْ يكونُ صاحبَ الدّكّانِ في الحيِّ أوْ سائقَ الباصِ، قدْ يكونُ... قدْ يكونُ... نعمْ... منْ همُ الأعداءُ؟ منْ نحاربُ؟ ولمنْ؟ وهلْ هذا ما كانَ يحلمُ أنْ يكونَ؟

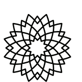
توقّفَ فجأةً وزجرَ نفسَهُ قائلاً: "الوطنُ! هذا ما أقاتلُ منْ أجلِهِ، وهلْ هناكَ أغلى منَ الوطنِ؟"

فجأةً، سمعَ صوتَ بومةٍ: "هوت هوت هوت." فردَّ بالمثلِ: "هوت هوت هوت."

◆◆◆

10

البساطير



أصواتُ بساطيرَ* تخبطُ الأرضَ بغضبٍ وتصعدُ دَرَجَ العمارةِ. يا ترى عندَ أيِّ طابقٍ ستتوقّفُ؟ حبسَ منْ تبقّى منْ سكّانِ العمارةِ أنفاسهُمْ وراجعوا أنفسَهُمْ بهلعٍ وهمْ يحاولونَ جاهدينَ أنْ يتذكّروا أيَّ خطأٍ يمكنُ أنْ يكونوا قدِ اقترفوهُ. أسرعتْ أمّ ماجد لتحضرَ شالَها وتغطّيَ بهِ رأسَها. تجمّدَ أبو ماجد مكانَهُ وهوَ يتمتمُ:

"يا ساتر يا ربّ! يا ساتر يا ربّ."

قالتْ شادن وهيَ تحضنُ والدتَها لتهدئتِها: "أبي! أبي! ما الّذي يحصلُ؟"

توقّفتِ البساطيرُ أمامَ بابِ الدّارِ. إذًا لا مفرَّ... إنّهُمُ المقصودونَ بهذهِ الزّيارةِ.

فجأةً هزَّ البابَ منْ مفصليْهِ دقٌّ عنيفٌ ولمْ يُنتظرِ الردُّ، بلْ فُتحَ البابُ على مصراعيْهِ بضربةٍ منْ بسطارٍ ضخمٍ. صاحَ قائدُهُمْ: "أينَ ماجد؟"

وقفَ أهلُ البيتِ مشدوهينَ ثمَّ صرختْ أمّ ماجد: "ابني ماجد، حبيبُ قلبي، لمْ نرَهُ منذُ أكثرَ منْ شهرٍ."

---

* البساطير: كلمة غير عربية، كلمة تركية معناها حذاء العسكر

قالَ قائدُهُمْ بتهكّمٍ:" ابنُكِ ماجد، حبيبُ قلبِكِ، مطلوبٌ للتّحقيقِ." ثمَّ أردفَ قائلاً: "فتّشوا البيتَ."

انتشرَ المسلّحونَ في أرجاءِ المنزلِ الصّغيرِ وقلبوا كلَّ قطعةِ أثاثٍ فيهِ. كسروا الصّحونَ وقلبوا الكراسيَّ والمقاعدَ. أفرغوا الأدراجَ منْ محتوياتِها. وعندَما لمْ يجدوا ما يشفي غليلَهُمْ، نظرَ قائدُهُمْ إلى شادن وقالَ بابتسامةٍ ساخرةٍ: "منَ المؤكّدِ أنَّ الفتاةَ تعرفُ أينَ يختبئُ أخوها."

شعرتْ شادن بالدّمِ يغلي في عروقِها فصرخت دونَ أنْ تعرفَ منْ أينَ أتتْها الشّجاعةُ والقوّةُ: "أنا لا أعرفُ أينَ أخي ماجد، ولوْ كنتُ أعرفُ، هلْ تظنّونَ أنّي سأقولُ لكمْ؟! هيّا اخرجوا منْ منزلِنا! انظروا! انظروا! ألا يكفي ما فعلتُمْ؟"

أشارتْ إلى أحدِهِمْ وهيَ تدرسُ ملامحَهُ وقالتْ: "ألستَ... ألستَ أنتَ جارَنا منَ الحارةِ الشرقيّةِ؟ ألمْ تكنْ تلعبُ كرةَ القدمِ مع ماجد؟ ماذا حصلَ لكمْ جميعًا؟ ماذا حصلَ؟ اخرجوا منْ بيتِنا!"

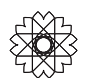
حاولَتْ والدتُها تهدئتَها، أمّا والدُها فصاحَ قائلاً: "يكفي يا شادن! يكفي!"

نظرَ قائدُ المسلّحينَ إلى شادن والشّررُ يقدحُ منْ عينيْهِ. واجهتْ شادن نظراتِهِ بتحدٍّ. مرّتْ لحظاتٌ ثقيلةٌ كأنّها دهرٌ. فجأةً، خفضَ بصرَهُ وتردّدَ للحظةٍ وكأنّهُ يراجعُ نفسَهُ ثمَّ صاحَ بغضبٍ: "سنخرجُ الآنَ، ولكنْ تأكّدوا أنّكمْ ستكونونَ تحتَ المراقبةِ."

◆◆◆

11

ماذا بعد؟



كانتْ هذهِ القشّةَ الّتي قصمتْ ظهرَ البعيرِ. ما إنْ خرجَ المسلّحونَ منَ البيتِ حتّى انهارَ أبو ماجد في مكانِهِ. وقعَ على الأرضِ كقطعةِ قماشٍ انطوتْ على نفسِها. لحسنِ الحظِّ أنَّ شادن كانت قربَهُ فخفّفتْ من وقعتِهِ وهيَ تصرخُ بهلعٍ: "أبي! أبي! لقد ذهبوا! اصحى! اصحى!"

حضنتْ أمّ ماجد رأسَ زوجِها وصاحتْ: "شادن! أحضري علبةَ دواءِ القلبِ الموجودةَ على الطّاولةِ قربَ سريرِ والدكِ. افتحيها وأعطيني حبّةَ دواءٍ. بسرعةٍ يا شادن! بسرعةٍ!"

ثمّ ضربتْ خدّيْ زوجِها بلطفٍ وهيَ تقولُ: "افتحْ فمكَ يا أبا ماجد، وضعْ هذهِ الحبّةَ تحتَ لسانِكَ كالعادةِ."

ظلّتْ تحضنُ رأسَهُ وتمسحُ جبينَهُ وتكلّمُهُ حتّى شعرتْ أنَّ اللّونَ الطبيعيَّ قدْ عادَ إلى وجهِهِ.

تنفّستْ شادن الصّعداءَ عندَما تململَ والدُها وفتحَ عينيْهِ وتمتمَ بكلماتٍ لمْ تفهمْ منها إلّا كلمةَ "ماجد".

أعادتْ شادن الكنبةَ الّتي قَلَبَها المسلّحونَ مكانَها، وساعدتْ والدتَها لترفعَ والدَها عليْها وهيَ تقولُ لهُ: "الحمدُ للهِ على سلامتِكَ يا أبي! الحمدُ للهِ على السّلامةِ! واللهِ أرعبْتَنا. سأُعدُّ لكَ كوبًا منْ عصيرِ اللّيمونِ كيْ تشعرَ بالنّشاطِ؟"

تركتْ شادن والدتَها تفركُ يديْ زوجِها وتقبّلُهُما وتهمسُ لهُ بكلماتِ محبّةٍ وألفةٍ تعبّرُ عنْ سنواتٍ من العِشْرةِ والدّموعُ تنسكبُ كنهرٍ جارٍ على خدّيْها. توقّفتْ شادن عندَ بابِ المطبخِ. نظرتْ إلى حطامِ الغرفةِ وإلى والدِها الممدّدِ على الكنبةِ وهيَ تفكّرُ بأسىً: "يا ترى، ما الّذي ينتظرُنا بعدُ؟"

بعدَ هذهِ الحادثةِ، لمْ يذهبْ أبو ماجد إلى عملهِ، وبقيَ محلُّ الأقمشةِ مغلقًا خاصّةً بعدَ أنْ تركَهُ مساعدُهُ أحمد لينضمَّ إلى مجموعةٍ مسلّحةٍ أيضًا، وقتَها لمْ يحاولْ أبو ماجد أنْ يجدَ بديلاً عنهُ؛ فصارَ يداومُ يوميًّا في المحلِّ. كانَ يقولُ لزوجتهِ كلَّ صباحٍ وهوَ يودّعُها على البابِ: "حتّى لو لمْ يكنْ هناكَ زبائنُ يا زهرة، الذّهابُ إلى المحلِّ أفضلُ من الجلوسِ في البيتِ."

أمّا الآنَ، وبعدَ حادثةِ اقتحامِ المنزلِ؛ فقدِ انقلبَ حالُهُ تمامًا. قالتْ لهُ زهرة وهيَ تضعُ قربَهُ فنجانَ القهوةِ الصباحيِّ: "يا أبا ماجد، عليكَ أنْ تعودَ إلى المحلِّ وتفتحَهُ. لا تتركْهُ هكذا وإلا عبثَ بهِ العابثونَ. سيذهبُ تعبُكَ هباءً منثورًا. اذهبْ إلى المحلِّ وستتحسّنُ نفسيّتُكَ. لقدْ كنتَ تقولُ لي دائمًا: الذّهابُ إلى المحلِّ أحسنُ منَ الجلوسِ في البيتِ." وعندَما لا يردُّ عليْها ولا يتفاعلُ معَها تتوسّلُ إليهِ قائلةً: "أنا وشادن نحتاجُ إليكَ يا أبا ماجد، أرجوكَ، أرجوكَ، عُدْ إليْنا. ماجد سيعودُ وإنْ شاءَ اللهُ ستنتهي هذهِ الحربُ القذرةُ وسنعودُ كما كنّا، بلْ أحسنَ." ولكنَّ أبا ماجد يبقى محدّقًا في الفضاءِ أمامَهُ لا يردُّ ولا ينفعلُ.

طمأنَهمُ الطّبيبُ، قريبُ جارتِهم الّذي زارَهُمْ، أنّهُ بصحّةٍ جيّدةٍ، ولكنّهُ يعاني منَ اكتئابٍ شديدٍ ويحتاجُ إلى بعضِ الرّاحةِ، ووصفَ لهُ بعضَ الأدويةِ.

بعدَ عدّةِ أيّامٍ، حضرَ صديقُهُ، أبو مصطفى، للاطمئنانِ عليْهِ بعدَ أنْ قَلِقَ منْ طولِ غيابِهِ عنِ الدّوامِ في المحلِّ. ولأوّلِ مرّةٍ منذُ الحادثةِ ابتسمَ أبو ماجد ودمعتْ عيناهُ وهوَ يشدُّ على يدِ صديقِهِ قائلاً: "الحمدُ للهِ، أنا بخيرٍ يا صديقي. شكرًا على حضورِكَ."

بقيَ أبو مصطفى أكثرَ منْ ساعةٍ وهوَ يتبادلُ أطرافَ الحديثِ مع أبي ماجد محاولاً ألّا يتطرّقَ إلى أيِّ موضوعٍ قدْ يزعجُ صديقَهُ ويعيدُهُ إلى حالةِ الاكتئابِ.

تحدّثَ أبو ماجد عنِ الحادثةِ ووصفَ لصديقهِ كيفَ دخلَ المسلّحونَ البيتَ وقلبوا وكسّروا وحطّموا كلَّ ما في طريقِهمْ وهمْ يبحثونَ عنْ ماجد.

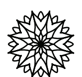
قالَ أبو ماجد: "عندَما رأيتُ ما فعلوا بأثاثِ البيتِ من تخريبٍ، تخيّلتُ بهلعٍ ما يمكنُ أنْ يفعلوهُ بابني إذا قبضوا عليهِ يا صديقي. كانَ ماجد يتصّلُ بنا بشكلٍ خاطفٍ منْ فترةٍ لأخرى ليطمئنَنا عن حالهِ. والآنَ نحنُ لا نريدُهُ أنْ يتّصلَ بنا حتّى لا يقعَ في يدِ أعدائهِ."

قالتْ شادن لأبي مصطفى وهيَ تودّعُهُ على بابِ البيتِ: "شكرًا عمّي! زيارتُكَ ردّتِ الرّوحَ لأبي وجعلتْهُ يفضفضُ عمّا في نفسهِ. أرجوكَ، أرجوكَ، لا تطلْ غيبتَكَ عنّا."

◆◆◆

12

حيّ الياسمين



كتبتْ أمّ ماجد قائمةً طويلةً بما تحتاجُ إليهِ منْ طعامٍ وموادَّ ضروريّةٍ للبيتِ وأعطتْها لشادن وهيَ تقولُ لها: "شادن، لا أريدُ أنْ أوصيَكِ. إذا رأيتِ أيَّ حركةٍ غريبةٍ أوْ شعرتِ بأيِّ خطرٍ، عودي حالاً إلى البيتِ. اتركي كلَّ شيءٍ وعودي. ولا تبتعدي أكثرَ منْ دكّانِ الحاجِّ نعمان. هلْ فهمتِ؟ أرجوكِ، لا تدعيني أقلقُ عليكِ. أحضري ما تجدينَهُ متوفّرًا وعودي بسرعةٍ."

كانَ على شادن بعدَ مرضِ والدِها أنْ تشتريَ ما تحتاجُهُ العائلةُ منْ طعامٍ وأشياءَ أخرى. وفي كلِّ مرّةٍ وقبلَ أنْ تخرجَ منَ البيتِ، كانتْ أمُّها تعيدُ على مسامعِها نفسَ التّحذيراتِ إيمانًا منها أنَّ تحذيرَ الأمِّ تعويذةٌ ستحمي ابنتَها منَ الأخطارِ.

قبّلتْ شادن والدتَها وهيَ تقولُ: "لا تقلقي يا أمّي. سأحضرُ طلباتِ البيتِ وأعودُ فورًا."

أغلقتْ شادن بابَ العمارةِ الحديديِّ خلفَها وحمتْ عينيْها منْ بريقِ أشعّةِ الشّمسِ السّاطعةِ. نظرتْ حولَها بحذرٍ وتأكّدتْ منْ أنَّ كلَّ شيءٍ في الحيِّ يبدو عاديًّا. لحسنِ الحظِّ لمْ يصلِ الخرابُ الّذي يملأُ شاشاتِ التّلفازِ شارعَهم بعدُ. العماراتُ السّكنيّةُ العاليةُ ذاتُ الشّرفاتِ الصّغيرةِ ما زالتْ تلوّنُها حبالُ غسيلِ

الملابسِ وأصصُ الزّرعِ. وعلى جهتيِ الشّارعِ، تقفُ العماراتُ الرّماديّةُ اللّونِ صفًّا واحدًا متشابكًا. تظلّلُ الأرصفةَ بعضُ الأشجارِ الدّائمةِ الخضرةِ ونباتاتُ الياسمينِ المتسلّقةُ على أسوارِ العماراتِ الّتي سمّيَ الحيُّ باسمِها. وفي آخرِ الشّارعِ، تقاطعٌ فيهِ دوّارٌ صغيرٌ تزيّنُهُ الأزهارُ، وعلى يمينِ التّقاطعِ شارعٌ فيهِ بعضُ المحالِّ التّجاريّةِ مثلَ مطعمٍ لبيعِ الفلافلِ، ومخبزٍ، ومكتبةٍ صغيرةٍ تبيعُ القرطاسيّةَ والألعابَ والقليلَ منَ الكتبِ، وبالقربِ منها دكّانُ الحاجِّ نعمان. دكّانٌ صغيرٌ معتمٌ، ولكنَّ فيهِ كلَّ ما يطلبهُ سكّانُ الحيِّ. أمّا على يسارِ التّقاطعِ، فيقعُ شارعٌ طويلٌ في آخرِهِ حديقةُ البلديّةِ حيثُ كانتْ شادن وصديقاتُها يلعبنَ.

كلُّ شيءٍ يبدو ظاهريًّا كما كانَ، ولكنّهُ قطعًا ليسَ كذلِكَ. كانَ هناكَ اختلافٌ واضحٌ في جوِّ الحياةِ العامّةِ، تبخّرَ الشّعورُ بالأمانِ والألفةِ وحلَّ مكانَهُ شعورٌ بالحذرِ والتّأهّبِ لكارثةٍ قدْ تحلُّ في أيِّ لحظةٍ. اختفى الأولادُ الّذينَ كانوا يلعبونَ في الشّارعِ وعلى الأرصفةِ، وإذا خرجَ أحدُهم للّعبِ سرعانَ ما تناديهِ والدتُهُ وتطلبُ منهُ العودةَ إلى البيتِ حالاً.

الوجوهُ في الشّارعِ متجهمّةٌ وحذرةٌ. اختفتِ الابتساماتُ والملاطفاتُ الاجتماعيّةُ بينَ النّاسِ كلَّ صباحٍ.

كانَ منَ المفروضِ أنْ تنضمَّ شادن إلى المنتخبِ الوطنيِّ وتتمرّنَ في نادي "النّخلةِ" الشّهيرِ في المدينةِ مع فرصةِ الذّهابِ إلى معسكرٍ تدريبيٍّ خارجَ البلادِ قبلَ نهايةِ العطلةِ، ولكنَّ الظّروفَ السّياسيّةَ والعائليّةَ جعلتْ كلَّ هذهِ الخططِ تتبخّرُ. تنهّدتْ شادن وهي تسائلُ نفسَها: "هلْ منَ الممكنِ أنْ تفتحَ المدرسةُ أبوابَها في موعدِها آخرَ الصّيفِ؟ هلْ منَ الممكنِ أنْ تعودَ الأمورُ إلى طبيعتِها؟" لمْ يتبقَّ

منْ صديقاتِها إلّا عددٌ قليلٌ. كلُّ واحدةٍ منهنَّ منشغلةٌ مع عائلتِها. كمْ تفتقدُ صديقتَها ريم!

كتبتْ لها كما وعدتْها عدّةَ رسائلَ إلكترونيّةٍ. كانتْ تبدو في أوّلِها مرحةً ومتفائلةً، ولكنّها بعدَ فترةٍ، أصبحتْ تكتبُ عنِ المصاعبِ الّتي تواجهُ عائلتَها في إيجادِ عملٍ وسكنٍ مناسبيْنِ وتتمنّى العودةَ إلى سوريا. وطبعًا كانتْ تعني سوريا الّتي تعرفُها قبلَ الحوادثِ والاضطراباتِ ثمّ توقّفتْ عنِ الكتابةِ تمامًا. تنهّدتْ شادن وتمنّتْ لوْ كانَ باستطاعتِها أنْ تذهبَ- كما كانتْ تفعلُ- لزيارةِ ريم وصديقاتِها الأخرياتِ، فيتوجّهنَ إلى المجمّعِ لتناولِ وجبةٍ سريعةٍ أو مشاهدةِ فيلمٍ ثمَّ يعدنَ إلى بيتِ إحداهنَّ ويقضينَ الوقتَ بالضّحكِ والمزاحِ. كمْ تشعرُ بشوقٍ لمثلِ هذهِ الأيّامِ! وكمْ تبدو هذهِ الأيامُ بعيدةً الآنَ!

استفاقتْ منْ شرودِها على صوتِ أبي نعمان: "ما بكِ يا ابنتي سرحانةً؟ كيفَ الوالدُ؟ إنْ شاءَ اللهُ بخيرٍ؟ وهلْ منْ أخبارٍ عنْ أخيكِ ماجد؟"

ردّتْ عليهِ باقتضابٍ ثمّ حملتِ الحاجيّاتِ الّتي طلبتْها والدتُها، وعادتْ بسرعةٍ إلى البيتِ.

سمعتْ خطواتٍ تمشي خلفَها، لمْ تلتفتْ بلْ أسرعتِ الخُطى ولكنّها توقّفتْ عندَما سمعتْ صوتًا يناديها.

استدارتْ بلهفةٍ ظنًّا منْها أنّهُ قدْ يكونُ ماجد، ولكنّهُ كانَ سميح، أحدَ أصدقاءِ ماجد. استدركتْ شادن الأمرَ فسلّمتْ على سميح بحرارةٍ وسألتهُ وكلّها أملٌ بأنْ يكونَ لديهِ الجوابُ: "هلْ تعرفُ أيَّ شيءٍ عنْ ماجد يا سميح؟ هلْ تعرفُ أينَ

هوَ؟ ماذا يفعلُ؟ بماذا تورّطَ؟ أرجوكَ، أخبرني؛ فنحنُ قلقونَ جدًّا عليهِ."

بدتْ على سميح علاماتُ الحزنِ والقلقِ وقالَ ببطءٍ: "للأسفِ، لا أعرفُ أيَّ تفاصيلَ يا شادن. أعرفُ أنّهُ تورّطَ مع جماعةٍ وانساقَ وراءَها. حاولتُ منعَهُ منْ ذلكَ، ولكنّهُ قالَ لي إنّهُ سيذهبُ معهمْ بصفتِهِ صحفيًّا فقط، يشهدُ ويدوّنُ ما يحدثُ."

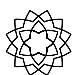
قالتْ شادن دامعةً: "كلُّ ما نريدُ هوَ أنْ نطمئنَّ عليهِ، والآنَ بعدَ أنْ داهموا منزلَنا، نخافُ أنْ نتلقّى أيَّ مكالمةٍ منهُ خوفًا منْ أنْ تكونَ الخطوطُ تحتَ المراقبةِ."

تأثّرَ سميح منْ منظرِ الدّموعِ المترقرقةِ في عينيْ شادن الخضراوينِ، ووعدَها بالتّقصّي عنِ الموضوعِ. طلبَ منها رقمَ هاتفِها ليتّصلَ بها في حالِ وصلَهُ أيُّ خبرٍ عنْ ماجد. أعطتْهُ الرّقمَ وهيَ تمسحُ دموعَها وتقولُ بخجلٍ: "اعذرني يا سميح، ولكنَّ بالَنا مشغولٌ جدًّا على ماجد." عرضَ عليْها أنْ يساعدَها في حملِ الأكياسِ، ولكنّها شكرتْهُ ومشتْ إلى البيتِ بخطواتٍ سريعةٍ.

◆◆◆

13

نقطة فاصلة



وعلى ضوءِ هاتفهِ الخافتِ، أخرجَ ماجد دفترَهُ الصّغيرَ وبدأَ بكتابةِ ملاحظاتٍ سريعةٍ تصفُ أحداثَ اليومِ الّذي مرَّ به؛ فهوَ ما زالَ يعتبرُ نفسَهُ صحفيًّا. كانَ هدفَهُ عندَما انضمَّ إلى هذهِ المجموعةِ المسلّحةِ أنْ يكونَ شاهدًا على الأحداثِ وأنْ يدوّنَ قصّةَ انتصارِهمْ على الظّلمِ والاستبدادِ، وقدْ شجّعَهُ رفاقُهُ وقالوا: "نعمْ يا ماجد، نحتاجُ إلى مدوّنٍ يكتبُ عنْ بطولاتِنا كيْ ينصفَنا التّاريخُ." ولكنّهُ يومًا بعدَ يومٍ، ودونَ أنْ يشعرَ، وجدَ نفسَهُ قدْ تحوّلَ إلى مقاتلٍ. في بادىءِ الأمرِ، أقنعَهُ رفاقُهُ أنْ يتدرّبَ على السّلاحِ منْ أجلِ الدّفاعِ عنْ نفسِهِ وعنْهم، وبعدَها وجدَ نفسَهُ يشاركُ رغمًا عنهُ في معركةٍ تلوَ الأخرى.

حاولَ مرارًا أنْ يقنعَ نفسَهُ بأنَّ ما يقومُ بِهِ منْ أجلِ التّغييرِ، وأنَّ الوطنَ يستحقُّ تضحيتَهُ وتضحيةَ عائلتِهِ. ولكنّهُ في الفترةِ الأخيرةِ، بدأَ يشكُّ في قيادةِ مجموعتِهِ الّتي انشقّتْ عنِ المجموعةِ الأمِّ وبدأتْ تتصرّفُ بشكلٍ أرعنَ أحيانًا ممّا جعلَهُ يفقدُ اليقينَ بأنَّ قرارَهُ في الانضمامِ إليهِمْ كانَ صائبًا.

كانَ المقاتلونَ في المعسكرِ الموجودِ على أطرافِ المدينةِ ينامونَ في قبوٍ واسعٍ منْ عمارةٍ مهدّمةٍ جزئيًّا كيْ لا يلفتوا الأنظارَ إليهِمْ. اختارَ ماجد أبعدَ مكانٍ عنْ زملائهِ لينامَ فيهِ بحجّةِ أنَّ شخيرَ بعضهِمْ يزعجُهُ.

كانَ بعدَ أنْ يتأكّدَ منْ نومِ الجميعِ، يخرجُ هاتفَهُ النّقّالَ ودفترَهُ الصّغيرَ ويبدأُ بالكتابةِ. إنّهُ الوقتُ الوحيدُ الّذي يختلي فيهِ بنفسهِ. يغلّفُ الظّلامُ الغرفةَ بهدوءٍ مألوفٍ حميمٍ، يذكّرهُ بدفءِ سريرهِ في البيتِ وبابتسامةِ والدتِه.

يتذكّرُ كيفَ كانتْ تحاولُ إيقاظَهُ صباحًا للذّهابِ إلى جامعتِهِ وهيَ تقدّمُ لهُ كوبًا منْ عصيرِ البرتقالِ الطّازجِ.

يتذكّرُ كيفَ كانَ يقلبُ جسمَهُ إلى الجهةِ الأخرى ويغطّي رأسَهُ بالشّرشفِ قائلاً: "أرجوكِ يا أمي، أرجوكِ، دقائقُ أخرى قليلةٌ وسأستيقظُ وحدي."

ترى ماهيَ أخبارُهم؟ منذُ مدّةٍ، يحاولُ الاتّصالَ بهم ولا أحدَ يجيبُ على الهاتفِ. حتّى شادن لا تردُّ على هاتفِها. كمْ يشعرُ بوخزِ الضّميرِ وهوَ يتخيّلُ الحزنَ والألمَ الّذي سبّبهُ فراقُهُ لهمْ! حاولَ جهدَهُ أنْ يفكّرَ بشيءٍ آخرَ يلهيهِ عنِ التّفكيرِ في أهلهِ، ولكنّهُ فشلَ لأنَّ صورةَ أمّهِ وهيَ تدعو لهُ وصورةَ والدهِ وهوَ يبتسمُ لهُ، وصورةَ شادن وهيَ تمازحُهُ لا تبارحُ ذهنَهُ. كانَ هذا أكثرَ ممّا يحتملُهُ قلبُهُ؛ فتركَ دفترَهُ الصّغيرَ واندسَّ في فراشِهِ. غطّى رأسَهُ بذراعِهِ حتّى لا يسمعَ نحيبَهُ أحدٌ في صمتِ اللّيلِ المطبقِ...

أمّا الحادثةُ الّتي قلبتْ تفكيرَهُ تمامًا، وجعلتهُ يتّخذُ قرارًا مصيريًّا فقدْ حصلتْ عندَما طاردَ أفرادٌ منْ مجموعتِهِ بعضَ الشّبابِ المنشقّينَ عنهمْ، وقدْ شكّوا باختبائهمْ في قريةٍ قريبةٍ منَ المعسكرِ. بدأَ الهجومُ فجرًا على القريةِ الوادعةِ الّتي دخلوها وهمْ على ظهرِ شاحناتٍ عسكريّةٍ يصرخونَ ويطلقونَ رصاصَ بنادقِهِم في الهواءِ لإدخالِ الرّعبِ في قلوبِ أهلِ القريةِ. لمْ يحتملْ ماجد رؤيةَ

القرويّينَ المذعورينَ وهمْ يتوسّلونَ للشّبابِ بأنْ لا يحطّموا أثاثَهُمْ ويسرقوا أمتعتَهُم وطعامَهُم ويرعبوا أطفالَهُم. وقفَ ماجد بعيدًا غيرَ مصدّقٍ لما يحدثُ. ينظرُ باستغرابٍ وحزنٍ إلى شبابٍ، كانَ يظنُّ أنّهُ يعرفهُم منذُ أيّامِ الطّفولةِ، وهمْ يتصرّفونَ بطريقةٍ همجيّةٍ.

وعندَما أمسكَ اثنانِ منهُمْ بفتاةٍ منْ عمرِ شادن وصارا يضايقانِها ويهدّدانِها لتعترفَ لهما بمكانِ الفارّينَ لمْ يستطعْ ماجد أنْ يتقبّلَ الأمرَ؛ فقفزَ أمامَ الفتاةِ وسحبَها خلفَهُ وهوَ يصرخُ: "ابتعدوا عنها! هذهِ ابنةُ بلدِكم! ألا يوجد عندَكُم أخواتٌ أو أمّهاتٌ. اتّقوا اللهَ يا جماعة."

غضبَ أحدُ المقاتلينَ وصوّبَ بندقيّتَهُ إلى رأسِ ماجد قائلاً: "أنتَ خائنٌ مندسٌّ، لستَ منّا. تدافعُ عنْ هذهِ الفتاةِ ولا تدافعُ عنّا." ولكنَّ ابنَ حارتِهِ، إبراهيم، هدّأَ الوضعَ وركبَ الجميعُ الشّاحنةَ العسكريّةَ، وانطلقوا عائدينَ إلى معسكرِهم.

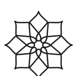
شعرَ ماجد أنَّ ما حصلَ للتّوِّ كانَ النّقطةَ الفاصلةَ بينَهُ وبينَ زملائِهِ.

ناداهُ قائدُ المجموعةِ، أبو فادي، وحذّرهُ بشدّةٍ منَ التّصرّفِ بهذهِ الطّريقةِ مرّةً ثانيةً قائلاً لهُ: "علينا أنْ نكونَ صفًّا واحدًا نقاتلُ في نفسِ الخندقِ. المطلوبُ منكَ يا بطلُ أنْ تساندَ زملاءَكَ؛ فهمْ ينفّذونَ الأوامرَ. لماذا تتدخّلُ؟ هلْ تظنُّ أنَكَ أفضلُ منّا؟ الحربُ يا صديقي لا ترحمُ، ونحنُ الآنَ في حربٍ ولسنا في مخيّمٍ صيفيٍّ." ثمَّ شدَّ ذراعَهُ وقرّبَ وجهَهُ منهُ وقالَ بصوتٍ منخفضٍ يشبهُ فحيحَ الأفعى: "انتبهْ يا ماجد واسمع ما أقولُ لكَ جيّدًا. لا تفكّرْ أبدًا في الهروبِ. أنتَ تعرفُ أنَّ منْ يتركُ المجموعةَ ونحنُ في حالةِ حربٍ يكونُ خائنًا ومندسًّا

ويتوجّبُ قتلهُ كيْ لا يفشيَ أسرارَنا، وهذا الحكمُ كنّا سننفّذهُ في الّذينَ فرّوا بالأمسِ لوْ تمكّنا منْ إلقاءِ القبضِ عليهِمْ. هلْ فهمتَ واستوعبتَ ما أقولُ لكَ يا ماجد؟" بلعَ ماجد ريقَهُ وهزَّ رأسَهُ موافقًا وهوَ يشعرُ بدوّامةٍ تلفُّ بهِ وتدورُ وتؤكّدُ لهُ بأنّهُ قدْ أدخلَ نفسَهُ في مأزقٍ يصعبُ الخروجُ منهُ.

◆◆◆

14
العودة إلى المتجر



شعرتْ أمّ ماجد بالارتياحِ عندَما عادتْ شادن بسرعةٍ منَ الدّكّانِ محمّلةً بكلِّ الحاجيّاتِ الّتي طلبتْها منها.

قالتْ شادن: "كلُّ شيءٍ ارتفعَ ثمنُهُ يا أمّي. الحاجُّ نعمان يقولُ إنَّ الوضعَ يزدادُ سوءًا والأسعارَ في ارتفاعٍ مستمرٍّ."

ضربتْ أمُّ ماجد كفًّا بكفٍّ بحسرةٍ وهيَ تقولُ: "أعطيتُكِ آخرَ ما لديَّ منَ المالِ. ما العملُ الآنَ يا شادن؟"

تنحنحَ أبو ماجد فوقَ الكنبةِ الّتي كانَ يستلقي عليها وتحرّكَ ببطءٍ وكأنّهُ يستفيقُ منْ سباتٍ طويلٍ قائلاً:

"لا تقلقي يا زهرة، غدًا سأذهبُ إلى المجمّعِ وأحضرُ ما يلزمُ وأطمئنُّ على البضاعةِ في المحلِّ."

وهكذا وبدونِ أيِّ مقدّماتٍ، خرجَ أبو ماجد منْ تحتِ الغمامةِ السّوداءِ الّتي رافقتْهُ كظلّهِ لأسابيعَ.

شعرَ بالحملِ الثّقيلِ الّذي ترزحُ تحتَ ثقلِهِ زوجتُهُ وابنتُهُ نيابةً عنهُ، وشعرَ

بتأنيبِ الضّميرِ عندَما رأى دموعَ الفرحِ والارتياحِ تترقرقُ في عينيْ زوجتِهِ فرحًا بعودتِهِ إليهِمْ.

قرّرَ أبو ماجد الذّهابَ باكرًا إلى المحلِّ بعدَ أنْ تحدّثَ مع صديقِهِ، أبي مصطفى، الّذي أصرَّ أنْ يحضرَ لاصطحابِهِ معهُ ويعيدَهُ إلى بيتِهِ آخرَ النّهارِ. أفاقَ باكرًا ولبسَ بدلةً كحليّةَ اللّونِ وربطةً أنيقةً وكأنّهُ ذاهبٌ إلى دوامِ يومٍ عاديٍّ في المحلِّ. قالتْ شادن بتأثّرٍ واضحٍ: "إنّهُ أحلى صباحٍ يا أبي! ما أجملَ أنْ أراكَ متأنّقًا للذّهابِ إلى المحلِّ!"

شعرَ أبو ماجد وكأنّهُ كانَ مسافرًا إلى بلدٍ بعيدٍ وعادَ للتوِّ. نظرَ حولَهُ إلى شوارعَ مألوفةٍ لهُ منذُ الصّغرِ، يعرفُها حيًّا حيًّا وكأنّهُ يراها لأوّلِ مرّةٍ. أزمةُ المرورِ ظلّتْ على حالِها إلّا أنَّ سببَ الأزمةِ تغيّرَ. المجموعاتُ المسلّحةُ تحاولُ فرضَ سيطرتِها على مدينتِهِمْ. حواجز هنا وهناكَ تتحكّمُ في حركةِ النّاسِ... عماراتٌ مهدّمةٌ على جانبيِّ الطّريقِ، تبدو كأنّها مشهدٌ من فيلمِ رعبٍ. يقولونَ إنَّ صاروخًا طالها. ترى أينَ أهلُها؟ ماذا حصلَ لهمْ؟ لا يمكنُ أنْ تكونَ هذهِ المدينةُ الوادعةُ هيَ نفسَ المدينةِ الّتي نشأَ فيها.

قطعَ أبو مصطفى حبلَ تفكيرِ صديقِهِ بقولِهِ: "للأسفِ يا أخي. الوضعُ من سيّءٍ إلى أسوأَ. لمْ أحبَّ أنْ أزعجَكَ وأنتَ مريضٌ بمثلِ هذهِ الأخبارِ؛ لذلكَ أصررتُ أنْ أحضرَ لاصطحابكَ اليومَ حتّى تسنحَ ليَ الفرصةُ لأهيّئَكَ لما سترى بعدَ قليلٍ. قبلَ أسبوعينِ، هجم مسلّحونَ على المجمّعِ وعاثوا في المكانِ فسادًا. لقدْ سرقوا وحرقوا ودمّروا المحلّاتِ. والحمدُ للهِ أنّني تمكّنتُ منْ إنقاذِ شيءٍ منْ بضاعتي وبضاعتِكَ، واحتفظتُ بها في مستودعي في تسويةِ العمارةِ. تركتُ بعضَ لفّاتِ

القماشِ في المحلِّ حتّى لا يتمَّ الاستيلاءُ على متجرِكَ بالكاملِ بحجّةِ أنّهُ مهجورٌ."

شعرَ أبو ماجد بضيقٍ في نفَسِهِ ولكنّهُ تمالكَ نفسَهُ وقالَ: "يا ساترُ يا ربُّ! يا ربُّ، الطفْ بنا! كلُّ هذا حصلَ وأنا غائبٌ! شكرًا لكَ يا صديقي على اهتمامِكَ. سأتذكّرُ جميلَكَ هذا ما حييتُ."

وقفَ أبو ماجد في باحةِ المجمّعِ ينظرُ حولَهُ وهوَ لا يصدّقُ كيفَ تحوّلَ هذا المجمّعُ الرّاقي إلى مكانٍ شبهِ مهجورٍ. القمامةُ ملأتِ المكانَ... الإضاءةُ خافتةٌ... آثارُ الحريقِ والتّكسيرِ تظهرُ في كلِّ مكانٍ. بعضُ المتاجرِ مفتوحةٌ وأصحابُها يجلسونَ فيها لا ليبيعوا بلْ ليحرسوها منَ الأيدي العابثةِ.

انفرجتْ أساريرُهمْ عندَ رؤيةِ أبي ماجد مقبلاً نحوَهمْ؛ فهبّوا إليهِ يباركونَ لهُ بشفائهِ، فقدْ سمعوا عنِ ابنهِ ماجد وعنْ مرضِهِ وعمّا حصلَ معهُ. أسرعوا نحوَهُ يصافحونَهُ بفرحٍ وكأنَّ عودتَهُ للمجمّعِ أعطتهُمْ أملاً بأنَّ الأمورَ ستعودُ كما كانتْ.

تأثّرَ أبو ماجد بحرارةِ ترحيبِ زملائهِ وطمأنَهُمْ عنْ صحّتِهِ ووعدَهُمْ بأنْ يزورَهُمْ دائمًا.

أخذَ نفَسًا عميقًا وصعدَ درجاتِ المجمّعِ ليصلَ إلى متجرِهِ في الطّابقِ الثّالثِ لأنَّ المصعدَ كان معطّلاً.

وقفَ لاهثًا في وسطِ متجرِهِ ينظرُ حولَهُ إلى حجمِ الدّمارِ الّذي أصابَ بضاعتَهُ. شعرَ أبو مصطفى بحاجةِ أبي ماجد لأنْ يعاينَ المكانَ وحدَهُ فاعتذرَ منهُ قائلاً:

"سأذهبُ إلى متجري يا أبا ماجد وأحضّرُ لنا إبريقًا منَ الشّاي. بعدَ أنْ تنتهيَ منْ معاينةِ المكانِ، سآخذُكَ إلى المستودعِ لترى البضاعةَ الّتي أنقذتُها وخبّأتُها فيه."

سحبَ أبو ماجد كرسيًّا وجلسَ عليهِ ينظرُ حولهُ مشدوهًا. ما حصلَ يحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ ليتمَّ استيعابُهُ. يا لهولِ المصيبةِ! كلُّ تعبِ السّنين راحَ هباءً.

وقفَ خارجَ المحلِّ ينظرُ حولهُ ليرى ماذا حلَّ بالمتاجرِ الأخرى المجاورةِ. معظمُها كانَ مغلقًا ومعتمًا. ارتاحَ أبو ماجد عندَما تأكّدَ لهُ أنْ لا أحدَ قد يفاجئُهُ عندَما يفتحُ المخبأَ السرّيَّ ليرى إنْ كانَ المسلّحونَ قدِ اكتشفوهُ وسطوْا عليهِ.

وضعَ بعضَ لفّاتِ القماشِ على الطّاولةِ ليختفيَ وراءَها، وبعدَ أنْ تأكّدَ أنْ لا أحدَ يراقبُهُ هبطَ بسرعةٍ على ركبتيْه. أزاحَ السّجّادةَ عنِ الأرضِ، ثمَّ رفعَ البلاطةَ وشعرَ بارتياحٍ كبيرٍ عندَما وجدَ الخزنةَ ما زالتْ مكانَها. فتحَها وأخرجَ منها ظرفيْنِ، الأوّلُ فيهِ مبلغٌ كبيرٌ منَ الدّولاراتِ، كانَ ينوي أنْ يشتريَ بهِ أقمشةً جديدةً، والظّرفُ الثّاني فيهِ مبلغٌ لا بأسَ بهِ باللّيرةِ السّوريّةِ. أخذَ جوازاتِ سفرِ عائلتهِ وأوراقًا رسميّةً أخرى. أغلقَ الخزنةَ ثمَّ عادَ وفتحَها بسرعةٍ. بحثَ بينَ الأوراقِ عنْ دفترِ العناوينِ وعندَما وجدَهُ قلّبَ الصّفحاتِ بعصبيّةٍ فسقطتْ منَ الدّفترِ صورةٌ لهُ ولأخيهِ حامد قبلَ أنْ يسافرَ إلى السّويد. تمعّنَ في الصّورةِ وتذكّرَ الأوقاتَ الحميمةَ الّتي كانَ يقضيها مع أخيهِ حامد... تنهّدَ واستمرَّ بالبحثِ حتّى وجدَ صفحةً فيها عنوانُ حامد في السّويد عندَها اطمأنَّ ووضعَ الدّفترَ معَ الأوراقِ الرسميّةِ.

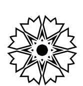
كمْ مرَّ منَ الوقتِ دونَ أنْ يجتمعا! سافرَ حامد إلى السّويدِ مندوبًا عنْ شركتِهِ وهناكَ أحبَّ فتاةً سويديّةً اسمُها "آنا" وتزوّجها وبقيَ هناكَ. في كلِّ مناسبةٍ كانَ حامد يدعو أخاهُ لزيارتِهِ والتّعرّفِ على عائلتِهِ، ولكنَّ أبا ماجد كانَ يعتذرُ لأنّهُ لا يحبُّ السّفرَ. منْ يدري؟ قدْ تضطرّهُمُ الظّروفُ الحاليّةُ إلى اللّجوءِ إلى مكانٍ آمنٍ، ولكنْ... لا يمكنُ أبدًا أنْ يغادرَ إلى أيِّ مكانٍ قبلَ أنْ يعودَ ماجد إلى كنفِ عائلتِهِ ويلتمَّ شملُهُمْ منْ جديدٍ.

وضعَ أبو ماجد المالَ وجوازاتِ السّفرِ والمستنداتِ الأخرى في كيسِ نايلون كانَ قدْ أحضرَهُ معهُ، ثمَّ وضعَ الكيسَ تحتَ قميصهِ الدّاخليِّ وأحكمَ تزريرَ قميصِهِ وجاكيتِ بدلتِهِ عليهِ، وبسرعةٍ أعادَ كلَّ شيءٍ كما كانَ. أغلقَ متجرَهُ واتّجهَ نحوَ متجرِ أبي مصطفى.

◆◆◆

15

الرّسالة



اختلفتِ الأمورُ بالنّسبةِ لماجد بعدَ الحادثةِ الّتي حصلتْ مع رفاقِهِ. أصبحَ يشعرُ أنّهمْ يراقبونَهُ بحذرٍ كلَّ الوقتِ وكأنّهمْ ينتظرونَ منهُ أنْ يبرهنَ على ولائِهِ وعدمِ خيانتِهِ لهُمْ.

بينَ الآونةِ والأخرى، كانتْ تنضمُّ إليهِمْ عناصرُ جديدةٌ؛ لذلكَ شعرَ ماجد براحةٍ عندَما رأى زميلاً لهُ منَ الدّراسةِ كانَ يعيشُ في حارةٍ قريبةٍ منهُ ينزلُ منَ "الجيب". كانَ على وشكِ أنْ يهجمَ عليهِ ويعانقَهُ ويسألَ عنْ أخبارِ الجميعِ في الحارةِ، ولكنّهُ تمالكَ نفسَهُ وسلّمَ على زيد بحركةٍ منْ رأسِهِ وسلامٍ باليدِ كي لا يُظهرَ لرفاقِهِ أنّهُ على معرفةٍ سابقةٍ بهِ.

يبدو أنَّ زيد فهمَ الموضوعَ فلمْ يقتربْ منْ ماجد إلى أنْ سنحتْ لهُ الفرصةُ بشكلٍ طبيعيٍّ، وبحجّةِ أخذِ زجاجةِ ماءٍ طلبَها منهُ وبحركةٍ سريعةٍ أخذَ الزّجاجةَ وسلّمَهُ رسالةً مطويّةً.

وضعَ ماجد الرّسالةَ في جيبِ بنطالِهِ واستمرَّ في تنظيفِ بندقيّتِهِ وإعادةِ تركيبِها. شعرَ وكأنَّ الرّسالةَ جمرُ نارٍ في جيبِهِ. انتظرَ لحظةَ أمانٍ ليقرأَ ما فيها. ترى منْ أرسلَ لهُ هذهِ الرّسالةَ؟ هلْ منَ الممكنِ أنْ تكونَ فخًّا لهُ منْ قائدِ المجموعةِ

ليمتحنَهُ؟ لا... زيد لنْ يشاركَ في مثلِ هذهِ الخدعةِ... متى يقرأُ الرّسالةَ؟ وكيفَ؟ إذا قرأها في اللّيلِ قدْ يسمعُ أحدُهُمْ خشخشةَ الورقِ ويحاولُ أنْ يستكشفَ الأمرَ. قرّرَ أنْ يذهبَ إلى المرحاضِ حيثُ يحصلُ على بعضِ الخصوصيّةِ.

وبأصابعَ مرتجفةٍ، فتحَ ماجد الرّسالةَ وقرأَها. كانتْ منْ صديقهِ سميح. قرأَها بسرعةٍ ثمَّ مزّقَها ورماها في المرحاضِ. منْ حسنِ حظّهِ أنَّ "سيفون" المرحاضِ ما زالَ يعملُ، وباندفاعٍ سريعٍ منَ الماءِ المتدفّقِ اختفتِ الرّسالةُ بعدَ أنْ حُفرتْ في وجدانِهِ.

تمدّدَ على فرشتِهِ وكلماتُ الرّسالةِ تتردّدُ في ذهنِهِ وتزيدُ منْ عذابِهِ:

صديقي ماجد،

أرجو أنْ تكونَ بخيرٍ

قابلتُ أختَكَ شادن قبلَ أيّامٍ وسألتني عنكَ. أخبرتْني أنَّ أهلَكَ لا يستطيعونَ الرّدَّ على مكالماتِكَ خوفًا عليكَ؛ فقدْ تمّتْ مداهمةُ البيتِ بحثًا عنكَ .والدُكَ مريضٌ، ووالدتُكَ في حالةٍ نفسيّةٍ سيّئةٍ. حاولْ يا صديقي أنْ ترسلَ لي رسالةً كي أُطمئِنَ عائلتَكَ المشغولَ بالُها عليكَ. أعدُكَ يا ماجد وعدًا صادقًا أنْ أهتمَّ بعائلتِكَ إلى أنْ تعودَ سالمًا إليهِمْ.

أخوك،

سميح

حقًّا إنَّ سميح شخصٌ رائعٌ وأصيلٌ. لمْ يجرحْ مشاعرَهُ بتذكيرِهِ كمْ حاولَ أنْ يثنيَهُ عنْ قرارِهِ بالانْضِمامِ إلى هذهِ المجموعةِ الّتي خرجتْ عنِ الدّعوةِ إلى التّغييرِ

السّلميِّ، ولكنَّ وقتَ النّدمِ قدْ فاتَ.

في ذلكَ الوقتِ، شعرَ أنَّ واجبَهُ الوطنيَّ يحتّمُ عليهِ أنْ يلعبَ دورًا في تغييرِ وضعِ بلدِهِ إلى الأفضلِ... ولكنْ يبدو أنّهُ أساءَ الاختيارَ. ومع مرورِ الزّمنِ، تعقّدتِ الأمورُ حيثُ إنَّ المجموعاتِ المشتركةَ في القتالِ ازدادَ عددُها واختلفتْ في المبادئِ وتصادمتْ. كمْ هوَ نادمٌ الآنَ، وكمْ يتمنّى لوْ يعودُ الزّمنُ بهِ ليغيّرَ قرارَهُ ويبقى مع عائلتِهِ.

ولكنْ ما الّذي يمنعُهُ منْ ذلكَ؟ قضى بقيّةَ اللّيلِ وهوَ يفكّرُ في طريقةٍ يخرجُ بها منْ هذا المأزقِ الخطيرِ الّذي وضعَ نفسَهُ فيهِ.

◆◆◆

16

القرار الصّعب



بمجرّدِ أنْ فتحتْ زهرة البابَ لزوجِها عرفتْ أنَّ الوضعَ خطيرٌ ولا يبشّرُ بالخيرِ. كانَ وجهُهُ شاحبًا، ونظراتُهُ زائغةً وشعرُهُ الأبيضُ مغبرًّا هائجًا على غيرِ عادتِهِ، كانَ يضعُ يدَهُ على بطنِهِ وكأنَّهُ يعاني منْ ألمٍ فيهِ.

خافتْ أنْ يعودَ إلى حالتِهِ السّابقةِ وينسحبَ منَ العالمِ ويتركَها وحدَها دونَ سندٍ، ولكنّهُ دفعَ البابَ بقوّةٍ ودخلَ وهوَ ينظرُ حولَهُ ويقولُ: "الوضعُ صعبٌ يا زهرة! لمْ أتخيّلْ أنّنا وصلْنا إلى هذهِ الحالةِ. العماراتُ مهدّمةٌ... المجمّعُ مدمّرٌ... البضاعةُ سُرِقَ معظمُها... ما العملُ؟ كيفَ نتصرّفُ الآنَ؟ انتظرنا وصبرنا ولمْ نتركْ بلدَنا على أملِ أنْ تتحسّنَ الأوضاعُ، على أملِ أنْ يعودَ ماجد إليْنا. أينَ أنتَ يا ماجد؟ أتضرّعُ إلى اللهِ أنْ لا يكونَ قدْ أصابَكَ أيُّ سوءٍ." قالتْ زهرة والقلقُ بادٍ على محيّاها: "هوّنْ على نفسِكَ يا أبا ماجد! ستتحسّنُ الأحوالُ، وسيعودُ ماجد إليْنا وسنعيدُ بناءَ كلِّ ما تهدّمَ. لا تيأسْ يا عزيزي. لتكنْ ثقتُكَ باللهِ كبيرةً."

ثمَّ أردفتْ قائلةً وهيَ تنظرُ إلى زوجِها وهوَ يشدُّ على بطنِهِ: "يبدو أنَّ بطنَكَ يؤلمُكَ. هلْ أحضّرُ لكَ كوبًا منَ الميرميةِ؟ شادن، يا شادن، ضعي إبريقَ الماءِ على النّارِ."

قالَ أبو ماجد: "لا... لا داعيَ. شادن، تعاليْ إلى هنا أوّلاً! وأنتِ يا زهرة اجلسي قربي! أريدُ أنْ أتحدّثَ معكُما." جلستْ شادن وهي تفكّرُ في حيرةٍ: "لماذا يتصرّفُ أبي بهذهِ الغرابةِ؟ وماذا سيقولُ لنا؟ لعلّهُ أمرٌ لهُ علاقةٌ بماجد."

شعرتْ بقلبِها يهوي... ازدادتْ حيرتُها حينَ راقبتْ والدَها وهوَ يخلعُ سترتَهُ ثمَّ يفكُّ أزرارَ قميصِهِ ويديرُ لهُما ظهرَهُ ليرفعَ قميصَهُ الدّاخليَّ ويخرجَ كيسًا منَ النّايلون تبيّنَ عندَما فتحَهُ أمامَهُما أنّهُ يحتوي على أوراقٍ رسميّةٍ وجوزاتِ سفرٍ ومبلغٍ لا بأسَ بهِ منَ المالِ.

قالَ وهوَ يهزُّ الكيسَ أمامَهُما: "الحمدُ للهِ أنّهمْ لمْ يجدوا الخزنةَ. هذا الكيسُ هوَ طريقُنا إلى الخلاصِ وإلى بدايةٍ جديدةٍ." ثمَّ قلّبَ صفحاتِ الدّفترِ وقالَ: "هذا عنوانُ أخي حامد في السّويد. هلْ تذكرينَ يا زهرة كمْ مرّةً طلبَ منّا أنْ نسافرَ للعيشِ عندَهُ إلى أنْ تتحسّنَ الأوضاعُ، ولكنّني كنتُ دائمًا أطمئنهُ وأعتذرُ منهُ. لقدْ تفتّحتْ عينايَ اليومَ لأوّلِ مرّةٍ على حقيقةِ الوضعِ السّيِّئِ الّذي نحنُ فيهِ وأيقنتُ أنَّ عودةَ الاستقرارِ إلى بلدِنا ربّما تكونُ حلُمًا بعيدَ المنالِ." صمتَ أبو ماجد قليلاً ثمَّ قالَ محدّثًا نفسَهُ: "يحسدُني النّاسُ لأنَّ لي أخًا في السّويد ويستغربونَ بقائي هنا، ولكنّني كنتُ أرفضُ أنْ أتركَ وطني، والآنَ، كيفَ أتركُ ابني الوحيدَ وأذهبُ؟"

قالتْ شادن بتأثّرٍ واضحٍ: "الله يخلّيلنا إيّاك يا بابا."

نظرَ أبو ماجد إلى شادن طويلاً ثمَّ قالَ:

"بعدَ ما شاهدتُ اليومَ منْ دمارٍ وخرابٍ، شعرتُ بأنّني أظلمُكِ يا شادن.

سامحيني يجبُ أنْ أفكّرَ في مستقبلِكِ أنتِ أيضًا. في السّويد ستتمكّنينَ منْ مواصلةِ تعليمِكِ؛ لذا قرّرتُ أنْ أقبلَ دعوةَ أخي حامد، وأطلبَ منهُ أنْ يستخرجَ لعائلتِنا تصريحَ سفرٍ إلى السّويدِ. سأطلبُ منهُ أنْ يتقدّمَ بطلبٍ لنا جميعًا. سأرسلُ لهُ صورًا عنْ جوازاتِ السّفرِ والأوراقِ الرسميّةِ الّتي هيَ الآنَ والحمدُ للهِ بحوزتِنا. وإنْ شاءَ اللهُ عندَما يعودُ ماجد تكونُ الفيزا جاهزةً فنسافرُ معًا."

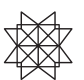
قالتْ شادن والدّموعُ تترقرقُ في عينيْها: "كمْ أنا سعيدةٌ لأنّنا سنسافرُ إلى السّويدِ عندَ عمّي، سألتقطُ حالاً صورًا بهاتفي لكلِّ المستنداتِ وأرسلُها لهُ ليباشرَ بالإجراءاتِ. نحمدُ اللهَ على أنَّ جوازَ سفرِ ماجد معنا أيضًا."

قالَ أبو ماجد: "نعمْ، منَ الأفضلِ أنْ نبدأَ بهذهِ الخطواتِ. لقدْ سمعتُ أنَّ المعاملاتِ تأخذُ وقتًا طويلاً، ولكنَّ أخي حامد أكّدَ لي آنذاكَ أنَّ وضعَنا سيكونُ أسهلَ بسببِ وجودِ أقاربَ لنا يكفلونَنا هناكَ."

◆◆◆

17

الصّديق



التقطتْ شادن صورًا واضحةً لكلِّ المستنداتِ المطلوبةِ لطلبِ الفيزا ثمَّ انتظرتْ بفارغِ الصّبرِ أنْ تعودَ خدمةُ الإنترنت المنقطعةُ منذُ ساعاتٍ. وعندَ أوّلِ إشارةٍ لعودتِها، أسرعتْ إلى غرفتِها وقامتْ بإرسالِ الأوراقِ الرّسميّةِ المطلوبةِ لعمِّها، ثمَّ تمدّدتْ على السّريرِ وبحثتْ عنْ معلوماتٍ عنِ السّويد. تمعّنتْ في صورِ البحيراتِ الزّرقاءِ والسّهولِ الخضراءِ، والعماراتِ التّاريخيّةِ الجميلةِ، ووجوهِ النّاسِ السّمحةِ. قرأتْ عنْ نظامِ الحكمِ فيها، وتعجّبتْ عندَما عرفتْ أنَّ السّويد مملكةٌ.

لا تصدّقُ أنَّ هذهِ البلادَ الجميلةَ المنظّمةَ قدْ تصبحُ وطنًا لها. كيفَ ستكونُ حياتُها هناكَ؟ هلْ ستذهبُ إلى المدرسةِ؟ وماذا عنِ اللّغةِ؟ هلْ ستتمكّنُ منْ تكوينِ صداقاتٍ؟ كيفَ سيعيشونَ هناكَ؟

لمْ تقابلْ عمّها حامد أبدًا، ولكنّها تحدّثتْ معهُ مرارًا على الهاتفِ، كما أنّها تحدّثتْ مع زوجةِ عمّها السّويديّةِ "آنا" الّتي كلّمتها باللّغةِ الإنكليزيّةِ ودَعَتْها لزيارتِهِمْ. وقدْ تبادلتْ بعضَ الرّسائلِ على "الفيسبوك" معَ ابنِ عمّها نديم الّذي يصغرُها بسنتيْنِ. شعرتْ برهبةٍ منْ غربةِ المكانِ ولكنّها طمأنتْ نفسَها بأنَّ عائلتَها ستكونُ كلُّها معها. رنينُ جرسِ الهاتفِ أيقظَها منْ أحلامِها الورديّةِ. كانَ

سميح على الخطِّ.

رحّبتْ شادن بهِ بحرارةٍ متأمّلةً أنْ يكونَ سببُ المكالمةِ خبرًا عنْ ماجد. أخبرَ سميح شادن عنِ الرّسالةِ الّتي كتبَها لماجد وأنّهُ أوصلَها مع رفيقٍ لهُ. وطمأنَها أنَّ ماجد بخيرٍ.

صاحتْ شادن بغضبٍ: "لماذا لا يعودُ إلى عائلتِهِ؟ ألمْ تقلْ لهُ إنَّ أبي مريضٌ وإنَّ أمّي منكسرةُ القلبِ، وأنا... وأنا... وحدي." وانخرطتْ في البكاءِ.

قالَ سميح بلطفٍ: "اعذريهِ يا شادن؛ فقرارُهُ لمْ يعدْ بيدِهِ. كانَ منَ السّهلِ عليْهِ أنْ ينضمَّ إلى المجموعةِ، ولكنْ منَ الصّعبِ بلْ منَ المستحيلِ أنْ يتركَها طواعيةً؛ فهوَ بذلكَ يعرّضُ حياتَهُ للخطرِ. أرجوكِ يا شادن، توقّفي عنِ البكاءِ واعتبريني مثلَ ماجد. لقدْ وعدتُهُ في رسالتي أنْ أتابعَ أمورَكُمْ وأساعدَكُم قدرَ ما أستطيعُ. وتأكّدي أنّكِ لستِ وحدَكِ... أنا معكِ... أنا معكُمْ."

ثمَّ تابعَ قائلاً في محاولةٍ منهُ لتغييرِ الموضوعِ: "والآنَ، قولي لي ما أخبارُكُمْ؟ هلْ تحتاجونَ إلى أيِّ شيءٍ؟"

وجدتْ شادن نفسَها تتحدّثُ بكلِّ راحةٍ مع سميح. أخبرتْهُ عنْ عمِّها حامد وعنْ إمكانيّةِ السّفرِ إلى السّويد.

قالَ سميح مهنّئًا: "إنّهُ لخبرٌ رائعٌ أنْ يكونَ لديكُمْ مكانٌ تلجأونَ إليهِ في حالِ ساءتِ الأمورُ ولكنْ...."

سكتَ سميح عنِ الكلامِ. قالتْ شادن بخوفٍ: "ولكنْ ماذا؟ لماذا سكتَّ؟"

ضحكَ سميح وقالَ: "لا شيءَ، ولكنّني سأشتاقُ إليكِ يا شادن." ثمَّ استدركَ نفسَهُ وقالَ: "وإلى عائلتِكِ أيضًا."

احمرَّ وجهُ شادن وابتسمتْ بخجلٍ قائلةً: "شكرًا سميح... عليَّ أنْ أذهبَ الآنَ. باي!"

قالَ سميح: "تمام... سأكلّمكِ غدًا في نفسِ الوقتِ. قد يكونُ عندي أخبارٌ عنْ ماجد."

حقًّا إنَّ سميح لطيفٌ جدًّا. كانتْ شادن منشغلةً بأمورِ العائلةِ وبماجد فلمْ تنتبهْ لنظراتهِ. تذكّرتْ أنّهُ كانَ دائمًا يبتسمُ لها عندَما يحضرُ مع أصدقائِهِ لزيارةِ ماجد أوْ لاصطحابِهِ معهُمْ. تذكّرتْ كيفَ كانتْ عيناهُ تلاحقانِها في الغرفةِ. إنّهُ لشعورٌ جميلٌ أنْ يكونَ هناكَ منْ يميّزُكَ ويهتمُّ بكَ.

كمْ تمنّتْ لوْ أنَّ ريم ما زالتْ جارتَها وبقربِها. كانتْ ستخبرُها عنِ اهتمامِ سميح بها. كمْ تغيّرَ سميح منذُ أنْ كانتْ تراهُ برفقةِ ماجد، حينَها لمْ تعرْهُ أيَّ اهتمامٍ يذكرُ. كانَ يبدو خجولاً ومنطويًا على نفسِهِ، ولمْ تكنْ تعتبرُهُ وسيمًا على الإطلاقِ، أمّا الآنَ فهيَ تنظرُ إليهِ نظرةً مختلفةً. أكثرُ ما يعجبُها فيهِ ابتسامتُهُ الّتي تشرقُ في وجهِهِ فتضيءُ المكانَ، وعيناهُ العسليّتانِ الدّافئتانِ اللّتانِ تشعرانِها بالرّاحةِ والأمانِ. تذكّرتْ كيفَ كانتْ ريم تمازحُها قائلةً: "أيٌّ منْ أصحابِ ماجد يعجبُكِ أكثر؟ أظنُّ أنَّ سميح يناسبُكِ جدًّا وهوَ معجبٌ بكِ. ألا ترينَ كيفَ ينظرُ إليكِ؟"

لو أنَّ ريم معها في هذهِ اللّحظةِ وحدّثتْها عنْ سميح كانتْ ستضحكُ وتقولُ: "ألمْ أقلْ لكِ يا طبّوشة."

ولكنّها لمْ تعدْ طبّوشة؛ فالأحوالُ السّيّئةُ والمشاكلُ تسبّبتْ بفقدانِها الوزنَ دونَ أنْ تدري...

◆◆◆

18

الألم المشترك



قرّرتْ زهرة أنْ تتقصّى المعلوماتِ عنْ ماجد بنفسِها. لوْ تمكّنتْ منْ إيجادِ طريقةٍ للتّواصلِ معهُ ستنجحُ في إقناعِهِ بالعودةِ إلى كنفِ الأسرةِ. ولكنْ، كيفَ تجدُ طرفَ الخيطِ؟ منْ يدلّها على ماجد؟ أفضلُ طريقةٍ هيَ الاتّصالُ بأصدقائِهِ. هيَ تعرفُهُمْ بالاسمِ ولكنْ لا يوجدُ عندَها أرقامُ هواتفِهِم. تذكّرتْ أنّها تتزاورُ مع والدةِ صديقهِ، إبراهيم، في المناسباتِ وأنَّ بيتَها في نفسِ الحيِّ. بحثتْ عنْ رقمِ هاتفِها فلم تجدْهُ لذا قرّرتْ أنْ تزورَها بنفسِها.

استغربَ زوجُها عندَما رآها بكاملِ لباسِها مستعدّةً للخروجِ وقالَ: "إلى أينَ الذّهابُ يا زهرة؟"

قالتْ لهُ بسرعةٍ: "منذُ زمنٍ لمْ أخرجْ منَ البيتِ وأشعرُ كأنّني أختنقُ. سأذهبُ لشربِ فنجانِ قهوةٍ مع أمّ إبراهيم، وسأسألُها عنْ أخبارِ ابنِها وإنْ كانَ يعرفُ أيَّ شيءٍ عنْ ماجد."

ابتسمَ أبو ماجد بحزنٍ وقالَ: "فهمتُ. أرجوكِ، لا تتأخّري. لا أريدُ أنْ أقلقَ عليكِ أيضًا."

رحّبتْ أمّ إبراهيم بزهرة وأخذتْها إلى غرفةِ الجلوسِ. وبعدَ تبادلِ المجاملاتِ

الاجتماعيّةِ المعهودةِ وشربِ القهوةِ، قالتْ زهرة: "صديقتي أمّ إبراهيم، أرجو أنْ تساعديني في معرفةِ أيّ معلومةٍ عنْ ماجد. نحنُ لا نعرفُ أيَّ شيءٍ عنهُ. خرجَ منَ البيتِ منذُ مدّةٍ طويلةٍ ولمْ يعدْ. نعرفُ أنّهُ انضمَّ إلى إحدى المجموعاتِ لأنَّ بعضَ المسلّحينَ اقتحموا بيتَنا بحثًا عنهُ."

- "أعرفُ، أعرفُ يا أختي. كلُّ قلوبِ أهلِ الحارةِ معكُم. ولكنْ كيفَ يمكنُني أنْ أساعدَكِ؟"

- "قدْ تكونُ لدينا فرصةُ السّفرِ إلى السّويد، حيثُ يقيمُ أخو زوجي، حامد، ولكنّنا لنْ نتركَ البلدَ دونَ أنْ نعرفَ مكانَ ماجد ونأخذَهُ معنا. تعرفينَ أنَّ إبراهيم وماجد كانا منْ أعزِّ الأصدقاءِ. هلْ بإمكانكِ أنْ تسأليهِ إذا كانَ يعرفُ أيَّ خبرٍ عنْ ماجد؟"

فجأةً، شرعتْ أمّ إبراهيم في البكاءِ، وقالتْ وهيَ تمسحُ دموعَها:

"يا ليتني أستطيعُ مساعدتَكِ يا صديقتي... يا ليتَ. بصراحةٍ، نحنُ نحتاجُ لمنْ يساعدُنا أيضًا؛ فابننا إبراهيم اختفى في نفسِ الوقتِ الّذي اختفى فيه ماجد، ومنَ الممكنِ أنْ يكونَ قدِ انضمَّ إلى نفسِ المجموعةِ. حاولنا إخفاءَ الأمرِ عنِ الجميعِ خاصّةً بعدَ أنْ سمعنا عنِ اقتحامِ منزلِكُمْ للبحثِ عنْ ماجد. آخٍ يا صديقَتي. كمْ مرّةً قلتُ لهُ: يا ابني مالك ومال السياسة. ابعد عنها كلها وجع راس. كانَ يغضبُ منّي ويصيحُ قائلاً: وجع راس! هذا هوَ التّخاذلُ الّذي أوصلَنا إلى هذهِ الحالةِ."

اقتربتْ زهرة منْ صديقتِها ولفّتْها بذراعِها وجلستا قليلاً بصمتٍ تتشاركانِ

نفسَ الألمِ.

مسحتْ أمّ إبراهيم دموعَها وقالتْ: "أستطيعُ أنْ أعدَكِ بشيءٍ واحدٍ. عندَما يتّصلُ بنا إبراهيم ليطمئنَنا، أعدُكِ أنْ أسألَهُ عنْ ماجد وأوصلَ لهُ رسالةً منكِ. ماذا تريدينَ أنْ تقولي لابنكِ يا عزيزتي؟"

تنهّدت أمّ ماجد وقالتْ: "عدْ إلينا يا ماجد. طالَ غيابُكَ. نحنُ في انتظارِكَ."

فجأةً، هزَّ البيتَ صوتُ انفجارٍ جعلَهُما تنبطحانِ أرضًا ثمَّ زحفتا ببطءٍ نحوَ النّافذةِ وأطلّتا بحذرٍ منْها لتحدّدا مكانَ الانفجارِ. دخانٌ كثيفٌ يتصاعدُ منَ الحارةِ القريبةِ منهُمْ. أصبحَ القصفُ العشوائيُّ قريبًا جدًّا منْ منطقتِهِمْ. وأصبحَ صوتُ الانفجاراتِ والطّلقاتِ شيئًا مألوفًا.

- قالتْ زهرة بقلقٍ: "منَ الأفضلِ أنْ أعودَ إلى البيتِ الآنَ."

- "باللهِ عليكِ، لا تخرجي الآنَ يا أمّ ماجد. انتظري قليلاً إلى أنْ تهدأَ الأمورُ."

- "بيتُنا قريبٌ يا صديقتي وإذا تأخّرتُ أكثرَ منْ ذلكَ فإنَّ أبا ماجد وشادن سيقلقانِ عليَّ."

- "إذًا أرجوكِ لا تشغلي بالي، طمئنيني عنكِ حالَ وصولِكِ إلى البيتِ."

- "شكرًا يا أمّ إبراهيم، وإنْ شاءَ اللهُ ستهدأُ الأمورُ وسنعودُ كما كنّا... نعيشُ في أمانٍ واستقرارٍ."

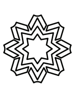
- "من تمك لباب السما يا جارتي."

- "رافقتْكِ السّلامةُ."

◆◆◆

19

أين أنتِ يا زهرة؟



كانَ أبو ماجد كلّما سمعَ صوتَ طلقاتٍ أوِ انفجاراتٍ يسرعُ ليضعَ حولَ خصرِهِ الحزامَ القماشيَّ الخاصَّ الّذي خاطتهُ لهُ أمّ ماجد، وقدْ جعلتْ فيهِ عدّةَ جيوبٍ كَيْ يتمَّ توزيعُ المالِ والأوراقِ الرسميّةِ بشكلٍ متوازنٍ حولَ خصرِهِ، ولكنَّ صوتَ الانفجارِ في هذهِ المرّةِ جعلَهُ ينسى الحزامَ وما فيهِ وينتفضُ منْ مقعدِهِ صارخًا: "زهرة! زهرة! أينَ أنتِ؟ لماذا خرجتِ منَ البيتِ؟ لماذا يا زهرة؟ أينقصُني وجعُ قلبٍ؟"

حاولتْ شادن أنْ تخفّفَ منْ قلقِهِ وأنْ تشغلَهُ بالحديثِ، وما هيَ إلا دقائقُ حتّى سمعا صوتَ البابِ يُفتحُ وتدخلُ زهرة قائلةً بلهفةٍ: "أسرعتُ بالعودةِ بعدَ أنْ سمعتُ الانفجارَ الأخيرَ. كانَ الشّارعُ مهجورًا. كأنَّ هناكَ منعَ تجوّلٍ."

تمتمَ أبو ماجد بوجومٍ: "الحمدُ للهِ على سلامتِكِ، ولا داعيَ للخروجِ مرّةً ثانيةً إلّا للضّرورةِ القصوى."

ظلّتْ طلقاتُ النّارِ تُسمعُ بشكلٍ متقطّعٍ خلالَ النّهارِ. وفي تلكَ اللّيلةِ، انقطعتِ الكهرباءُ وعلى ضوءِ الشّموعِ جلستِ العائلةُ في غرفةِ الجلوسِ وسطَ البيتِ بعيدًا عنِ النّوافذِ والأبوابِ، وقرّرتْ أنْ تبيتَ ليلتَها فيها.

أحضرتْ شادن أغطيةً وثلاثَ فرشاتٍ إسفنجيّةٍ وقالتْ محاولةً أنْ تخفّفَ منْ ثقلِ اللّحظةِ: "ما رأيكمْ أنْ نلعبَ "شدّة" لنمرّرَ الوقتَ؟ أنتَ دائمًا تغلبُنا في لعبةِ "الهاند ريمي" يا أبي."

تململَ أبو ماجد ثمّ قالَ: "كمْ أنتِ هادئةُ البالِ يا ابنتي! ومنْ يرغبُ بلعبِ "الشدّة" والقصفُ يشتدُّ منْ حولِهِ؟!"

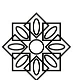
أجابتْ أمّ ماجد: "شادن معَها حقٌّ. لنلعبْ ولنشغلْ أنفسَنا ولوْ قليلاً. هيّا دعونا نبدأُ. منْ سيقطعُ "الشدّة" أوّلاً؟ وأنتَ يا أبا ماجد ما بالُكَ تحملُ الحزامَ؟ ضعهُ حولَ خصرِكَ كما اتّفقنا."

قالَ أبو ماجد: "لقدْ فكّرتُ بالأمرِ ووجدتُ أنّهُ منَ الأفضلِ أنْ تلبسَ شادن الحزامَ فهيَ أصغرُنا عمرًا وأسرعُنا. سيكونُ الحزامُ بأمانٍ أكثرَ معَها."

◆◆◆

20

الهروب



أصبحَ هاجسُ الهروبِ منَ المجموعةِ المسلّحةِ يسيطرُ على تفكيرِ ماجد. كانَ عليهِ أنْ يفكّرَ في خُطّةٍ محكمةٍ حتّى ينجحَ بالهربِ. ما زالَ يذكرُ تهديدَ أبي فادي لهُ بعواقبَ وخيمةٍ تصلُ إلى حدِّ القتلِ إنْ حاولَ الهربَ. ولكنَّ الشّعورَ بالنّدمِ تملّكَهُ وجعلَهُ يأخذُ عهدًا على نفسِهِ بأنْ يعودَ إلى عائلتِهِ الّتي تركها لتواجهَ الأخطارَ وحدَها. كانَ يخبطُ قبضةَ يدِهِ في الحائطِ كلّما تخيّلَ منظرَ المسلّحينَ وهمْ يداهمونَ منزلَهُ ويروّعونَ أباهُ وأمّهُ وأختَهُ. آهٍ لوْ يقدرُ أنْ يتّصلَ بهمْ ليخبرَهُمْ عنْ مدى حبِّه لهمْ، وعنْ أسفِهِ الشّديدِ للألمِ الّذي سبّبهُ لهمْ.

لمْ يجرؤْ أنْ يفشيَ سرّهُ لأحدٍ. وجدَ أنَّ أفضلَ وقتٍ للهروبِ سيكونُ بعدَ منتصفِ اللّيلِ؛ فهوَ يعرفُ المنطقةَ جيّدًا ويعرفُ موقعَ كلِّ حارسٍ؛ فقدْ كانَ يحرسُ المكانَ أثناءَ مناوبتِهِ معهمْ أيضًا. وحتّى يمهّدَ لليلةِ الهروبِ صارَ يخرجُ منْ قاعةِ النّومِ ليذهبَ إلى الحمّامِ بشكلٍ متكرّرٍ وهوَ يشتكي منْ مغصٍ أصابَهُ؛ فيقضي وقتًا طويلاً في الحمّامِ ثمَّ يعودُ.

بعدَ عشرةِ أيّامٍ، اعتادَ الجميعُ على تردّدهِ الدّائمِ إلى الحمّامِ وأصبحوا لايلتفتونَ إلى خروجِهِ أوْ إلى دخولِهِ.

اختارَ ليلةً ظلماءَ ليغادرَ المكانَ. وكعادتِهِ، ذهبَ في تلكَ اللّيلةِ إلى الحمّامِ، وعندَما تأكّدَ منْ عدمِ وجودِ أيِّ شخصٍ خلفَهُ، أسرعَ إلى ممرٍّ صغيرٍ، ومنهُ نزلَ إلى غرفةِ موتوراتِ التّدفئةِ في تسويةِ العمارةِ. اختبأَ خلفَ البابِ قليلاً وحبسَ أنفاسَهُ. عرَفَ أنَّ عليهِ أنْ يسرعَ في الهروبِ قبلَ أنْ ينكشفَ أمرُهُ. تسلّقَ على برميلِ مازوتٍ فارغٍ حتّى وصلَ إلى نافذةٍ صغيرةٍ للتّهويةِ قربَ سقفِ الغرفةِ، تمكّنَ بكلِّ صعوبةٍ منْ أنْ يخرجَ منْها. الظّلامُ يغلّفُ المكانَ ولا يكسرُ صمتَ اللّيلِ إلّا صوتُ الزّيزِ النّشيطِ.

نظرَ حولَهُ بحذرٍ ثمَّ زحفَ ببطءٍ حتّى لا يصدرَ عنْهُ أيُّ صوتٍ. ولكنّهُ لمْ ينتبهْ إلى علبةٍ معدنيّةٍ صدئةٍ على جانبِ الطّريقِ اصطدمتْ بها قدمُهُ فأصدرتْ صوتًا عاليًا كسرَ سكونَ اللّيلِ، وجعلَ قلبَهُ يهوي. بسرعةٍ زحفَ واختبأَ بينَ بعضِ الأعشابِ الطويلةِ القريبةِ منهُ.

وصلَ إلى مسامعِهِ صوتٌ يقولُ: "أحمد! هلْ سمعتَ هذا الصّوتَ؟ دعنا نستكشفُ المكانَ."

مرّ ضوءُ كشافٍ بالقربِ منهُ وكادَ أنْ يفضحَهُ. منْ حسنِ حظّهِ أنّ صوتًا آخرَ صدرَ منَ الجهةِ المقابلةِ لفت انتباهَ الحارسيْنِ وأنقذَهُ في اللّحظةِ المناسبةِ. "لا بدَّ أنّها قطّةٌ أوْ حيوانٌ ليليٌّ. هيّا لنعُدْ إلى مركزِنا."

لبثَ ماجد في مكانِهِ ساكنًا، وبعدَ أنْ تأكّدَ منَ ابتعادِهِما، استمرَّ في الزّحفِ إلى أنْ وصلَ إلى طريقٍ ترابيٍّ مظلمٍ محفوفٍ بالأعشابِ والشّجيراتِ. تابعَ الزّحفَ فيهِ مختبئًا بينَها. كانَ يتوقّفُ كلَّ فترةٍ ويجيلُ بصرهُ منْ حولِهِ. وعندَما ابتعدَ

مسافةً كافيةً عنْ عيونِ الحرّاسِ، وقفَ على قدميْهِ وأطلقَ ساقيْهِ للرّيحِ. وفي أولِّ فرصةٍ وجدَها، خلعَ ملابسَهُ العسكريّةَ وخبّأها تحتَ صخرةٍ.

مشى بسرعةٍ محاولاً الوصولَ إلى طريقٍ عامٍّ يمكنُهُ أنْ يستدلَّ بهِ على موقعِهِ الّذي لمْ يعدُ متأكّدًا منْهُ. ولكنّهُ بعدَ مدّةٍ وقدْ تغلّبَ عليهِ الشّعورُ بالتّعبِ والعطشِ والقلقِ في منطقةٍ لا يعرفُها، تسلّقَ شجرةَ صنوبرٍ كبيرةً ليرتاحَ بينَ أغصانِها، ويحاولَ أنْ يستكشفَ المكانَ منْ أعلاها.

ومنْ بعيدٍ، رأى أضواءً خافتةً تدلُّ على وجودِ قريةٍ قريبةٍ منْ موقعِهِ. ومع اقترابِ الفجرِ عرفَ أنَّ القرويّينَ يستعدّونَ لصلاةِ الفجرِ.

نزلَ ماجد عنِ الشّجرةِ وَأسرعَ باتّجاهِ القريةِ، ولكنْ ما إنْ وصلَ إلى مشارفِها حتّى سمعَ صوتَ سياراتِ "جيب" منْ بعيدٍ تخرقُ صمتَ الصّباحِ.

نظرَ ماجد حولَهُ بذعرٍ. يبدو أنَّ أمرَ هروبِهِ قدِ انكشفَ وها همْ يبحثونَ عنهُ. ولكنْ أينَ المفَرُّ؟

وجدَ أمامَهُ خمَّ دجاجٍ فدخلَ فيهِ مُفَزِّعًا الدّجاجاتِ الّتي احتجّتْ بِقوَّةٍ على إزعاجِها لكنّها ما لبثتْ أنْ هدأتْ بعدَ أنْ تعوّدتْ على وجودِهِ معَها في الخمِّ.

توقّفتْ سيّاراتُ "الجيبِ" عندَ مدخلِ القريةِ. استفاقَ معظمُ أهلِ القريةِ على جلبةِ السّيّاراتِ. نزلَ أحدُهمْ منَ سيّارتِهِ وصاحَ في وجوهِ منْ معهُ: "هذا الصّعلوكُ الخائنُ! يبدو أنّهُ في طريقِهِ إلى المدينةِ. اتبعوني، أعرفُ الطّريقَ الذي سيسلكُهُ، سنكونُ لهُ بالمرصادِ. وسيكونُ في قبضتِنا قبلَ منتصفِ النّهارِ."

وبزوبعةٍ منَ الغبارِ توجّهتْ سيّاراتُ "الجيبِ" إلى الشّارعِ المؤدّي إلى المدينةِ.

عرفَ ماجد منْ صوتِهِ أنّهُ أبو فادي الّذي توعّدهُ بأسوأِ مصيرٍ لوْ حاولَ الهربَ. بلعَ ريقَهُ وقالَ في نفسهِ: "الحمدُ للّهِ أنّني توقّفتُ هنا، لوْ كنتُ في الطّريقِ المفتوحِ المؤدّي إلى المدينةِ لقبضوا عليَّ. يجبُ أنْ أتحرّكَ قبلَ أنْ يستيقظَ سكّانُ القريةِ وينكشفَ أمري."

في تلكَ اللّحظةِ، سمعَ صوتَ أقدامٍ ثمَّ رأى وجهًا لفتاةٍ يطلُّ عليهِ منْ بابِ الخمِّ. كانتْ على وشكِ الصّراخِ بأعلى صوتِها ولكنَّ ماجد توسّلَ إليها قائلا: "أرجوكِ! أرجوكِ! لنْ أؤذيَكِ، أنا هاربٌ... أنا... أنا في خطرٍ... أرجوكِ لا تفضحي أمري."

نظرتِ الفتاةُ إليهِ بدهشةٍ وقالتْ: "ألستَ أنتَ الشابَّ الّذي دافعَ عنّي ومنعَ المسلّحينَ منْ إيذائي؟"

نظرَ ماجد إلى الفتاةِ وتحقّقَ ممّا قالتْ. ابتسمَ بخجلٍ وقالَ: "لي أختٌ في مثلِ عمرِكِ ولا أسمحُ لأحدٍ أنْ يسيءَ معاملتَها."

ابتسمتِ الفتاةُ وقالتْ: "أنا سعيدةٌ لأنَّ الفرصةَ أُتيحتْ لي لأردَّ إليكَ الجميلَ."

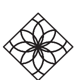
في تلكَ اللّحظةِ، مدّتِ امرأةٌ رأسَها منْ نافذةِ المنزلِ قائلةً: "ما سببُ ضوضاءِ الدّجاجِ يا ملك؟ هلْ دخلَ عليها حيوانٌ مفترسٌ؟ عدّيها وتأكّدي."

ردّتْ ملك: "كلُّ شيءٍ على ما يرامُ يا أمّي. سأحضرُ البيضَ الطّازجَ للإفطارِ."

همستْ لماجد قائلةً: "ابقَ هنا حتّى أفكّرَ بطريقةٍ لإخراجِكَ منَ القريةِ سالمًا."

21

هيّا الحَقْ بي



بدأَ الظّلامُ ينقشعُ... وامتلأَ المكانُ بثرثرةِ العصافيرِ المتقاطعةِ مع صياحِ ديوكِ القريةِ وكأنَّ منافسةً في الصّخبِ قدْ بدأتْ. بعدَ مدّةٍ قصيرةٍ، عادتْ ملك إلى الخمِّ وهمستْ لماجد: "هيّا الحقْ بي!"

سارتْ ملك إلى شارعٍ فرعيٍّ خلفَ البيتِ. نظرتْ حولَها بحذرٍ ثمَّ أعطتْهُ رغيفًا منَ الخبزِ في وسطهِ قطعةٌ منَ الجبنِ الأبيضِ وقالتْ: "تفضّلْ، هذا كلُّ ما استطعتُ الحصولَ عليهِ. أرجو أنْ يكفيَكَ."

قالَ ماجد: "كيفَ لي أنْ أشكرَكِ يا ملك؟"

ابتسمتْ ملك وقالتْ: "لا داعيَ للشّكرِ يا... ولكنْ... أنا لا أعرفُ اسمَكَ... وأنتَ تعرفُ اسمي."

قالَ ماجد: "عفوًا! سمعتُ والدتَكِ تناديكِ ملك. اسمي ماجد. كنتُ طالبًا في الجامعةِ أدرسُ الصّحافةَ والإعلامَ قبلَ أنْ تبدأَ هذهِ الحربُ اللّعينةُ."

سكتَ لحظةً ثمَّ قالَ: "والآنَ، ما العملُ؟ لا أريدُ أنْ أورّطَكِ بمشاكلَ."

همستْ ملك وهيَ تشيرُ أمامَها: "هذهِ الشّاحنةُ الصّغيرةُ لخالي، أبي عبدالله.

ومنْ عادتِهِ أنْ يذهبَ إلى المدينةِ كلَّ يومِ ثلاثاء ليحضرَ بضاعةً لبقّالتِهِ. إذا كانتْ وجهتُكَ المدينةَ؛ فأفضلُ حلٍّ هوَ أنْ تختبىءَ تحتَ أكياسِ الخيشِ في صندوقِ الشّاحنةِ. منْ عادةِ خالي أنْ يتوقّفَ في بلدةٍ مجاورةٍ لنا حيثُ يتناولُ الإفطارَ مع صديقِهِ، الحاجِّ أبي مرعي، ثمَّ ينطلقانِ معًا إلى المدينةِ. يمكنُكَ إذا رغبتَ أنْ تنزلَ هناكَ. هيّا أسرعْ... أسرعْ، قبلَ أنْ يراكَ أحدٌ!"

قفزَ ماجد داخلَ الصّندوقِ بخفّةٍ. توقّفَ لحظةً وهوَ يفكّرُ بكلمةٍ تعبّرُ عنْ مدى امتنانِهِ فلمْ تسعفْهُ سوى كلمةِ "شكرا..." قالَها بكلِّ ذرّةٍ في كيانِهِ.

ابتسمتْ ملك ولوّحتْ لهُ مودّعةً. تكوّرَ في زاويةِ الصّندوقِ وغطّى نفسهُ بأكياسِ الخيشِ وبدأَ يأكلُ الخبزَ والجبنَ. لمْ يعرفْ أنّهُ كانَ يشعرُ بكلِّ هذا الجوعِ.

◆◆◆

22
اسكتش سريع



في خضمِّ الأحداثِ المتتاليةِ المزعجةِ، كانَ هناكَ شيءٌ واحدٌ يشعرُ شادن بالسّعادةِ والرّاحةِ، وذلكَ عندَما يهتزُّ هاتفُها فتجدُ رسالةً منْ سميح يُتبعُها غالبًا بمكالمةٍ هاتفيّةٍ. تعوّدَ سميح أنْ يكلِّمَها كلَّ يومٍ بحجّةِ الاستفسارِ عنْ أحوالِها وأحوالِ عائلتِها، ويومًا بعدَ يومٍ، كانتِ المكالماتُ تطولُ... فقدْ وجدتْ شادن في سميح الصّديقَ الودودَ المستعدَّ للاستماعِ إلى حديثِها ومناقشتِها في أفكارِها. كانَ يحكي لها عنِ المشاكلِ الّتي يمرُّ بها مع عائلتِهِ بسببِ الأحوالِ الصّعبةِ، وعنْ أحلامِهِ بأنْ يصبحَ فنّانًا يكسبُ لقمةَ عيْشِهِ منْ فنّهِ. حكى لها كمْ كانَ منَ الصّعبِ عليهِ أنْ يقنعَ أهلَهُ بالسّماحِ لهُ بدراسةِ الفنِّ في الجامعةِ وكيفَ كانَ والدُهُ يصرخُ في وجهِهِ محتجًّا: "فنّانٌ! هلْ هذهِ مهنةٌ تبني عليها مستقبلَكَ. لا، وألفُ لا... ادرسْ تجارةً أو هندسةً أمّا الفنُّ فلتنسَ موضوعَهُ."

ولحسنِ حظِّهِ، فقدْ تمكّنَ صديقٌ حميمٌ لوالدِهِ منْ إقناعِهِ بعدمِ جدوى إجبارِ ابنِهِ على دراسةِ موضوعٍ لا يهمُّهُ قائلاً: "لا تقلقْ يا صديقي على مستقبلِ ابنِكَ؛ فالفنّانُ الناجحُ اليومَ أفضلُ منَ المهندسِ والطّبيبِ وبمقدورِهِ أنْ يعملَ منْ أيِّ مكانٍ يكونُ فيهِ." وقدْ قبلَ والدُ سميح أنْ يسجّلَ ابنَهُ في كلّيّةِ الفنونِ على مضضٍ.

ضحكتْ شادن وقالتْ لَهُ: "قصّتُكَ تذكّرني بقصّةِ أخي ماجد مع أبي. ماجد كانَ

يرغبُ في أنْ يدرسَ "الصّحافةَ والإعلامَ" ووالدي كانَ يصرُّ على أنْ يتخصّصَ في التّجارةِ والاقتصادِ كيْ يديرَ أعمالَهُ في المستقبلِ."

صمتَتْ لحظةً ثمَّ تنهّدتْ وقالتْ: "ولكنْ ما الفائدةُ الآنَ؟ ماجد اختارَ طريقًا آخرَ لا نعرفُ إلى أينَ سيقودُهُ." ثمَّ استدركتْ نفسَها قائلةً: "ولكنْ دعْنا منْ كلِّ هذا، واحكِ لي عنْ رسوماتِكَ؟"

قالَ سميح: "أنا فنّانٌ تشكيليٌّ، أرسمُ بالألوانِ المائيّةِ والزيتيّةِ وأستخدمُ الحاسوبَ للرّسمِ أيضًا. أميلُ إلى رسمِ كتبِ الأطْفالِ وقدْ نُشِرتْ لي بعضُ الرّسوماتِ في مجلّاتٍ سوريّةٍ وعربيّةٍ."

- "كمْ أحبُّ أنْ أرى بعضًا منْ رسوماتِكَ يا سميح."

- "حقًّا؟! سأعترفُ لكِ بشيءٍ أرجو أنْ لا تمانعي فيهِ. لقدْ قمتُ برسمِكِ بعدَ أنْ قابلتُكِ وأنتِ في طريقِ عودتِكِ منَ الدّكّانِ."

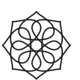
- "معقولٌ! طبعًا لا أمانعُ. أريدُ أنْ أرى هذهِ الرّسمةَ. متى ستريني إيّاها؟ متى؟"

- "إنّها اسكتشٌ سريعٌ... سأصوّرُهُ وأرسلُهُ لكِ عبرَ الهاتفِ حالاً. وإنْ شاءَ اللهُ تعجبُكِ الرّسمةُ. سأكلّمُكِ غدًا. باي!"

بعدَ لحظاتٍ، اهتزَّ هاتفُها مرّةً ثانيةً، كانَ الاسكتشُ صورةً انطباعيّةً لها لحظةَ التفاتِها لتنظرَ خَلْفها مرحّبةً بهِ بابتسامةٍ ساطعةٍ وبشعرٍ متطايرٍ. لمْ يكنْ ما أعجبَها في الاسكتشِ أنّهُ رسمةٌ جميلةٌ بلْ أنَّ منْ رسمَها رأى مكنونَ نفسِها في لحظةٍ سريعةٍ.

23

خبر عن ماجد



وأخيرًا وجدتْ شادن في بريدِها الإلكترونيِّ رسالةً منْ ريم، أرفقتْ معها صورًا لها ولعائلتِها. تمدّدتْ شادن على سريرِها وقرأتْها عدّةَ مرّاتٍ. تمعّنتْ في كلِّ صورةٍ. بدا لها أنَّ ريم قدْ كبرتْ سنواتٍ. بالرّغمِ من ابتسامتِها للكاميرا إلّا أنَّ هناكَ حزنًا دفينًا في عينيْها. قالتْ في رسالتِها:

صديقتي العزيزةَ،

كمِ اشتقتُ إليكِ يا شادن! منذُ أنْ لجأْنا إلى الأردنِّ، لمْ أوفّقْ في العثورِ على صديقةٍ مثلِكِ. ستبقيْنَ أنتِ دائمًا صديقتي الأولى والوحيدةَ. هلْ تذكرينَ شقاواتِنا في الصّفِّ؟ وكيف كنّا نعملُ المقالبَ في الصّديقاتِ؟ أذكرُ حفلةَ عيدِ ميلادي الأخيرةَ في سوريا. أشعرُ كأنَّ سنواتٍ مرّتْ منذُ ذلكَ اليومِ. كمْ كانَ يومًا سعيدًا!

أمّا بالنّسبةِ لأخبارِنا الآنَ، فبعدَ أنْ قضيْنا شهورًا مع أقاربِنا، وجدْنا شقّةً صغيرةً لنسكنَ فيها، ولكنَّ الإيجاراتِ مرتفعةٌ جدًّا في الأردنِّ؛ ممّا اضطرنا إلى أنْ نشتركَ مع عائلةٍ أخرى في الشّقّةِ. لا حاجةَ أنْ أشرحَ لكِ كمْ يكونُ هذا مزعجًا أحيانًا.

وجدَ أخي عملاً كبائعٍ في متجرٍ للملابسِ، وأنا أيضًا وجدتُ عملاً في

صالونِ شعرٍ أغسلُ شعرَ السّيّداتِ وأهيئهنَّ لقصِّ الشَّعرِ وأصنعُ لهنَّ القهوةَ والشّايَ. آخٍ يا شادن! تخيّلي أنَّ هذا هوَ عملي الآنَ! أينَ ذهبتْ أحلامي بأنْ أُكملَ دراستي الجامعيّةَ؟

ولكنّني أعودُ وأشكرُ اللهَ؛ فحالُنا أفضلُ بكثيرٍ منْ غيرِنا. على الأقلِّ وجدْنا عملاً يساعدُ في تكاليفِ المعيشةِ.

طمئنيني عنْ أخبارِكِ. كيفَ حالُكِ وحالُ الجميعِ منْ طرفِكِ؟ هلْ وصلَكُمْ أيُّ خبرٍ عنْ ماجد؟

ريم

وبينَما بدأتْ شادن بالرّدِّ على رسالةِ ريم، رنَّ هاتفُها وكانَ سميح على الخطِّ. عرفتْ شادن منْ نبرةِ صوتِهِ أنَّ هناكَ ما يزعجُهُ، وعلى الفورِ خطرَ على بالِها أنَّ هناكَ خبرًا سيّئًا لهُ علاقةٌ بماجد.

قالتْ بهلعٍ: "ما الأمرُ يا سميح؟ أرجوكَ! أخبرْني. هلْ ماجد بخيرٍ؟"

قالَ سميح: "اهدئي يا شادن، ماجد بخيرٍ، ولكنْ... لا أريدُ أنْ أتكلَّمَ على الهاتفِ. عشرُ دقائقَ وأكونُ عندَكُمْ في البيتِ." وأنهى المكالمةَ.

جلستْ شادن للحظاتٍ وهيَ تحملُ هاتفَها وتنظرُ إليهِ. ترى ما هوَ الخبرُ الّذي يستدعي حضورَ سميح على وجهِ السّرعةِ إلى البيتِ؟

خرجتْ إلى غرفةِ الجلوسِ وقالتْ لوالديْها: "هلْ تذكرونَ سميح، صديقَ ماجد؟ يبدو أنَّ عندَهُ خبرًا عنْ ماجد وهوَ في طريقِهِ ليزورَنا ويخبرَنا ما لديْهِ بنفسِهِ."

امتقعَ وجهُ أمّ ماجد، وزاغَ نظرُها وتمتمتْ: "ماجد... ابني حبيبي، ماجد."

ردّدَ أبو ماجد قائلاً: "يا ساترُ يا ربُّ... يا ساترُ يا ربُّ."

قالتْ شادن بسرعةٍ: "لا تخافا... سميح طمأنَني أنَّ ماجد بخيرٍ."

كانَ سميح عندَ وعدِهِ ولمْ يتأخّرْ بالوصولِ، وعندَما دخلَ المنزلَ، رأى القلقَ الشّديدَ باديًا على وجوهِ الجميعِ؛ فأسرعَ بقولِهِ: "ماجد بخيرٍ! الحمدُ للهِ، ماجد بخيرٍ، ولكنْ أردتُ أنْ أعلمَكُمْ أنّهُ هربَ منْ معسكرِ مجموعتِهِ والبحثُ جارٍ عنهُ."

قالَ أبو ماجد: "هلْ أنتَ متأكّدٌ يا سميح؟"

قالَ سميح: "نعمْ، متأكّدٌ يا عمّي. هذا الخبرُ وصلني منْ شخصٍ كانَ زميلاً لنا ثمَّ انضمَّ إلى نفسِ مجموعةِ الشّبابِ الّتي انضمَّ إليها ماجد. سبقَ أنْ أرسلتُ إلى ماجد رسالةً عنْ طريقِهِ، وقدْ تمكّنَ أنْ يتّصلَ بي كيْ أوصلَ الخبرَ إليكمْ. أتمنّى منْ كلِّ قلبي أنْ ينجحَ ماجد في الهروبِ. ومنْ واجبي أنْ أحذّرَكُمْ، فقدْ تتمُّ مداهمةُ منزلِكمُ مرّةً ثانيةً منْ قبلِ بعضِ أفرادِ المجموعةِ بحثًا عنهُ."

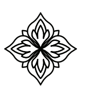
شهقتْ أمّ ماجد قائلةً: "مرّةً ثانيةً؟ ألا يكفينا ما نحنُ فيهِ؟"

قالَ أبو ماجد بإصرارٍ: "سنبقى في بيتِنا وسنتحمّلُ ما قدْ يحصلُ. ماذا لوْ وصلَ ماجد ولمْ يجدْنا؟"

◆◆◆

24

رسالة من العمّ حامد



وكأنَّ المصائبَ لا تأتي إلّا بالجملةِ. فبعدَ أكثرَ منْ ثلاثةِ أشهرٍ على إرسالِ الأوراقِ الرّسميّةِ إلى العمِّ حامد في السّويدِ، وصلتْ رسالةٌ منهُ إلى بريدِ شادن الإلكترونيِّ يقولُ فيها:

عزيزتي شادن،

تحياتي القلبيّةُ لكِ ولعائلتِكِ الحبيبةِ،

للأسفِ، فإنَّ الأخبارَ منْ طرفي غيرُ جيّدةٍ. كانَ بودّي أنْ أزفَّ لكمْ خبرَ حصولِكُمْ على التّأشيرةِ، ولكنّني صُدمتُ بالأمسِ عندَما وصلتْني رسالةٌ تفيدُ بأنَّ طلبَكُمْ قدْ رُفِضَ. تعجّبتُ منْ هذا القرارِ؛ لأنّني قدّمتُ أوراقَكُمْ كاملةً إلى الجهةِ المختصّةِ، وتعهّدتُ لها أيضًا بأنْ تكونَ إقامتُكُمْ وكافّةُ مصاريفِكُمْ عليَّ. حاولتُ الاستفسارَ عنِ السّببِ، وأخيرًا أخبروني أنَّ تحقيقاتِهم بيّنتْ لهمْ أنَّ ماجد عضوٌ فعّالٌ في مجموعةٍ مسلّحةٍ. لمْ أكنْ أعرفُ هذا عندَما قدّمتُ الطّلبَ يا شادن. فأخي لمْ يخبرْني بذلِكَ. لوْ كنتُ أعرفُ لنصحتُكُمْ أنْ تقدّموا الطّلبَ دونَ إدراجِ اسمِ ماجد.

لقدِ اعتبرتِ السّلُطاتُ أنّنا قدّمْنا معلوماتٍ غيرَ صحيحةٍ للحصولِ على الفيزا؛ لذلكَ رُفِضَ طلبُكُمْ بالمجملِ لأنّهُ كانَ طلبًا عائليًّا. معَ

الأسفِ، فإنَّ إجراءاتِ التّأشيراتِ أصبحتْ أكثرَ تشدّدًا بسببِ كثرةِ اللّاجئينَ السّوريّينَ الّذينَ يطلبونَ اللّجوءَ إلى السّويد.

عزيزتي، أنا أتفهّمُ إخفاءَ والدِكِ المعلوماتِ عنّي؛ فقدْ كانَ يحاولُ أنْ يحميَ عائلتَهُ ويبقيَها متماسكةً، ولكنْ هذا الّذي حصلَ للأسفِ الشّديدِ وقدْ عدْنا إلى نقطةِ البدايةِ.

أرجو منكِ أنْ تخبري والديْكِ بما حصلَ بطريقتِكِ الخاصّةِ كيْ لا يكونَ وقعُ الخبرِ عليهما شديدًا. وأكّدي لهما أنّني سأظلُّ أحاولُ إلى أنْ أنجحَ بإنقاذِكُمْ منْ بشاعةِ الحربِ الدّائرةِ في سوريا.

عمّكِ حامد

شعرتْ شادن أنَّ أحلامَها تبخّرتْ في الهواءِ وأنَّ السّفرَ إلى السّويد أصبحَ شبهَ مستحيلٍ. هكذا وبدونِ أيِّ مقدّماتٍ... اختفتِ البحيراتُ والغاباتُ الخضراءُ، اختفتِ العماراتُ التاريخيّةُ والحياةُ اليوميّةُ العاديّةُ الّتي كانتْ ستعيشُها دونَ خوفٍ أو وجلٍ... وعادتْ إلى واقعِها المريرِ.

كيفَ ستخبرُ أهلَها بهذا الخبرِ المزعجِ وهمْ قلقونَ جدًّا على مصيرِ ماجد بعدَ هروبِهِ؟

الوحيدُ الّذي يمكنُ أنْ يتفهّمَ هذهِ المعضلةَ الّتي وجدتْ نفسَها فيها هوَ سميح. ستتّصلُ بهِ لعلّهُ ينصحُها كيفَ تخبرُ والديْها عنْ رفضِ الفيزا إلى السّويد.

كانَ سميح متفهّمًا جدًّا، استمعَ إلى حديثِها وخفّفَ عنها عندَما انفجرتْ باكيةً وهيَ تخبرُهُ عنْ رسالةِ عمِّها.

قالَ لها: "اهدئي يا شادن وتماسكي؛ فوالداكِ يحتاجانِ منكِ أنْ تكوني قويّةً. أقترحُ أنْ تنتظري بعضَ الوقتِ حتّى تتوضّحَ الأمورُ بالنّسبةِ لماجد."

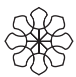
مسحتْ شادن دموعَها وقالتْ: "نعمْ، قد يكونُ هذا أفضلَ شيءٍ. لعلَّ ماجد يتمكّنُ منَ الانضمامِ إليْنا لنخطّطَ معًا للخطوةِ التّاليةِ."

صمتتْ لحظةً ثمَّ قالتْ: "شكرًا يا سميح. لا أدري ماذا كنتُ سأفعلُ منْ دونكَ."

◆◆◆

25

في الطّريق



تحتَ ظلمةِ ودفءِ أكياسِ الخيشِ، وجدَ ماجد نفسَهُ يسهو بينَ الحينِ والآخرِ فهوَ لمْ ينمْ طوالَ اللّيلِ. كانَ كلّما صحا منْ غفوتِهِ فجأةً، أنّبَ نفسَهُ بشدّةٍ ضاربًا خدّيْهِ بيديْهِ ورافعًا جفنيْهِ بأصابعهِ كيْ لا يستسلمَ لسلطانِ النّومِ وينكشفَ أمرُهُ وهوَ نائمٌ. وأخيرًا، سمعَ صوتَ وقعِ أقدامِ وسعالِ رجلٍ يبدو أنّهُ مدخّنٌ شرهٌ. لا بدَّ أنَّ هذا خالُ ملك، يستعدُّ للذّهابِ إلى السّوقِ.

تمتمَ الخالُ وهوَ يفتحُ بابَ الشّاحنةِ: "يافتّاحُ يا عليمُ، يا رزّاقُ يا كريمُ."

أصدرَ موتورُ الشّاحنةِ صوتًا متحشرجًا ومتقطّعًا عدّةَ مرّاتٍ ثمَّ انطلقتِ الشّاحنةُ على الطّريقِ التّرابيّةِ. تنفّسَ ماجد الصّعداءَ لأنَّ أمرَهُ لمْ يكشفْ؛ فسمحَ لنفسِهِ أنْ يسهوَ قليلاً بالرّغمِ منَ ارتجاجِ الشّاحنةِ. وبعدَ ساعةٍ منَ القيادةِ على طريقٍ وعرةٍ توقّفتِ الشّاحنةُ فجأةً، فاستفاقَ فزعًا وحبسَ أنفاسَهُ والعرقُ يتصبّبُ منْ جبينِهِ. كانَ يسمعُ دقّاتِ قلبِهِ المتسارعةَ الّتي أحسَّ أنّها قدْ تفضحُهُ. نزلَ أبو عبدالله منَ الشّاحنةِ وأغلقَ البابَ بقوّةٍ. سمعَ ماجد خطواتِهِ تقتربُ منَ الصّندوقِ فتجمّدَ مكانَهُ منَ الخوفِ، ولكنَّ وقعَ الخطواتِ ابتعدَ شيئًا فشيئًا ثمَّ سمعَ صوتًا قادمًا منْ بعيدٍ يقولُ: "أهلاً وسهلاً يا أبا عبد الله، الحمدُ للهِ على سلامتِكَ. تفضّلْ يا صديقي، الفطورُ جاهزٌ، والشّايُ فوقَ الموقدِ."

-"باركَ اللهُ فيكَ يا أبا مرعي، أعتقدُ أنّني بحاجةٍ ماسّةٍ إلى كوبٍ ساخنٍ منَ الشّايِ."

ببطءٍ وانتباهٍ أخرجَ ماجد رأسَهُ منْ تحتِ أكياسِ الخيشِ ليعاينَ المكانَ. يبدو أنّهُ في بلدةٍ صغيرةٍ هادئةٍ. فكّرَ في النّزولِ منَ الشّاحنةِ ليجدَ طريقَهُ، ولكنْ منَ المؤكّدِ أنّهُ سيثيرُ شكوكَ النّاسِ في هذهِ البلدةِ الصّغيرةِ حيثُ يعرفُ النّاسُ، ولا ريبَ، بعضهُمْ بعضًا أبًا عنْ جدٍّ، وحيثُ لا يمرُّ الغريبُ إلّا لغايةٍ واضحةٍ، إمّا ليتسوّقَ أوْ ليملأَ سيّارتَهُ بالبنزينِ، أوْ ليزورَ أحدًا منْ أقاربِهِ. لا يوجدُ سببٌ لوجودِ شابٍّ يتسكّعُ وحدَهُ في البلدةِ دونَ أنْ يثيرَ الشّكوكَ منْ حولِهِ.

قرّرَ أنْ يبقى في الشّاحنةِ حتّى يصلَ المدينةَ، وهناكَ يمكنُهُ أنْ يختفيَ بسرعةٍ بينَ جموعِ النّاسِ.

لمْ يبقَ معهُ سوى قطعةٍ صغيرةٍ منْ رغيفِ الخبزِ الّذي أعطتهُ إيّاهُ ملك. صارَ يأكلُ منهُ قضماتٍ صغيرةً وهوَ يتمنّى لوْ كانَ جالسًا على الإفطارِ مع خالِ ملك وصديقِهِ يحتسي الشّايَ السّاخنَ، وربّما كانَ سيأكلُ الحمّصَ والفولَ والفتّةَ.

سمعَ ماجد جلبةً آتيةً منَ البيتِ فعرفَ أنَّ وقتَ الذّهابِ قدْ حانَ. تأكّدَ منْ أنَّ أكياسَ الخيشِ تخفيهِ تمامًا وسكنَ في مكانِهِ. ثمَّ سمعَ الحاجَّ أبا مرعي يقولُ: "أحضرتُ معي كيسَ زيتونٍ منْ قطافِ أرضِنا هديّةً لقريبي، أبي خليل، في المدينةِ."

قالَ أبو عبدالله وهوَ يدخلُ الشّاحنةَ: "أسرعْ يا حاجّ، وارمِ الكيسَ في الصّندوقِ كيْ لا نتأخّرَ في الوصولِ."

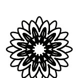
ضحكَ الحاجُّ أبو مرعي قائلاً: "أنتَ دائمًا بصلتك محروقة يا صديقي." ثمَّ رفعَ الكيسَ ورماهُ في الصّندوقِ وهوَ يقولُ: "يا ربُّ، يا معينُ."

كادَ ماجد يصيحُ منَ الألمِ فقدْ أصابَهُ الكيسُ في رأسِهِ. مسحَ جبينَهُ وفكّرَ: "الحمدُ للهِ أنّهُ لمْ يكنْ في الكيسِ شيءٌ أثقلُ منَ الزّيتونِ."

◆◆◆

26

دعوة للغداء



"تفضّلْ، ادخلْ يا بنيَّ... الله يرضى عليك دنيا وآخرة." قالتْ أمّ ماجد مرحبّةً بسميح الّذي أحضرَ لهمْ جرّةَ غازٍ منْ دكّانِ أبي عمران وحملها ثلاثةَ طوابقٍ إلى بيتِهِمْ.

- "غلّبناك معنا يا ابني."

- "غلبتكم راحة يا خالة. اعتبريني مثل ماجد."

- "اليوم عاملة مقلوبة زهرة، شو رأيك تتغدّى معنا؟"

استرقَ سميح نظرةً سريعةً نحوَ شادن الّتي كانتْ تقفُ عندَ البابِ وعيناها تتراقصانِ بابتسامةٍ غامضةٍ. هزّتْ رأسها بإيماءةٍ تطلبُ منْهُ أنْ يوافقَ ويبقى للغداءِ. شعرَ بدقّاتِ قلبِهِ تتسارعُ وتمنّى لوْ أنَّهُ يستطيعُ أنْ يحتفظَ بهذهِ الصّورةِ إلى الأبدِ في ذاكرتِهِ.

قالَ سميح: "يسعدُني ذلكَ يا خالةُ. كيفَ عرفتِ أنَّ مقلوبةَ الزّهرةِ هيَ أكلَتي المفضّلةُ؟"

ضحكتْ أمّ ماجد وأسرعتْ إلى المطبخِ لتكملَ الطّبخةَ وهيَ تقولُ: "إذا أحببتَ

أن تغسلَ يديكَ فالحمّامُ هناكَ يا بنيَّ."

شعرَ سميح أنّهُ أصبحَ جزءًا منَ العائلةِ، فبعدَ أنْ زارَ بيتَ أبي ماجد ليخبرَهُمْ عنْ هروبِ ماجد منْ معسكرِهِ تبيّنَ لهُ مدى حاجتِهِمْ لمنْ يساندُهُمْ في محنتِهِمْ، فصارَ يمرُّ يوميًّا عليهِمْ ليتفقّدَ أحوالَهُمْ. وفي الحقيقةِ كانَ عندَهُ سببٌ آخرُ خاصٌّ لهذهِ الزّيارةِ اليوميّةِ وهوَ أنْ يقضيَ وقتًا أطولَ مع شادن. حاولَ سميح أنْ يقدّمَ كلَّ المساعدةِ الممكنةِ لعائلةِ صديقِهِ؛ لذا عندَما عرفَ ذاتَ يومٍ أنَّ أبا ماجد في طريقِهِ إلى وسطِ البلدِ لدفعِ فواتيرِ الكهرباءِ والماءِ أصرَّ أنْ يقومَ بالمهمّةِ بدلاً عنهُ قائلاً: "أنتَ تعرفُ يا عمّي الفوضى في الدّوائرِ الرّسميّةِ هذهِ الأيّامَ. سأذهبُ غدًا لأدفعَ فواتيرَ بيتِنا ويمكنُني أنْ أريحَكَ منْ هذا المشوارِ المزعجِ."

تمنّعَ أبو ماجد في بادىءِ الأمرِ، ولكنَّ سميح أصرَّ قائلاً: "اعتبرني يا عمّي بمثابةِ ابنكَ ماجد، وقدْ وعدتُهُ صادقًا أنْ أهتمَّ بكمْ حتّى يعودَ سالمًا قريبًا إنْ شاءَ اللهُ."

وعلى مائدةِ الطّعامِ، سألتْ أمُّ ماجد عنْ عائلةِ سميح واطمأنّتْ أنَّ الكلَّ بخيرٍ. سألَهُ أبو ماجد عنْ دراستِهِ فانفرجتْ أساريرُهُ وقالَ: "عمّي، أنا أدرسُ الرّسمَ والتّصميمَ في كليّةِ الفنونِ."

تنحنحَ أبو ماجد وقالَ: "الله يوفّقك يا ابني، ولكنْ لماذا اخترتَ الفنَّ؟ إنَّ هذهِ المهنةَ لا تُطعمُ خبزًا؟"

ضحكَ سميح وقالَ: "أنتَ يا عمّي تتّفقُ مع والدي الّذي عارضَ بشدّةٍ تخصّصي في هذا المجالِ. ولكنْ هذا ما أحبُّ عملَهُ، والحمدُ للهِ فأنا حتّى قبلَ أنْ أتخرّجَ

أعملُ بشكلٍ حرٍّ مع دورِ نشرٍ لكتبِ الأطفالِ أحبّتْ أسلوبي في الرّسمِ، ومؤخّرًا شاركتُ في مسابقةٍ عالميّةٍ لرسومِ أدبِ الأطفالِ وأرسلتُ لهمْ عيّناتٍ منْ أعمالي عنْ طريقِ الإنترنت وقدْ وصلَني خبرُ أنّني فزتُ بالجائزةِ الثّانيةِ. كمْ أسعدَني ذلكَ!"

قالتْ شادن: "رائعٌ أنْ يعملَ الإنسانُ في المجالِ الّذي عندَهُ شغفٌ بهِ! فمنَ المؤكّدِ أنّهُ سينجحُ فيهِ وسيصلُ بهِ إلى أعلى مرتبةٍ."

ابتسمَ سميح وقالَ: "إنْ شاءَ االله ُفي زيارتي القادمةِ سأطلعُكُمْ على بعضِ أعمالي للأطفالِ."

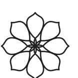
أثناءَ جلوسِهمْ جميعًا على الطّاولةِ وهمْ يضحكونَ ويتمازحونَ شعرتْ شادن للحظةٍ بأنَّ العالمَ بخيرٍ وكما يجبُ أنْ يكونَ، ولكنّها فجأةً تذكّرتْ ماجد ورسالةَ عمّها والحربَ الدّائرةَ حولَهُمْ فتبدّدتْ لحظةُ الرّضا العابرةُ وحلَّ محلّها القلقُ والشّعورُ بالمسؤوليّةِ وتأنيبِ الضّميرِ لأنّها تخفي سرًّا عنْ عائلتِها.

قرّرتْ أنْ تخبرَهُمْ بعدَ وجبةِ الغداءِ بفحوى رسالةِ عمّها. قدْ يساعدُها وجودُ سميح في التّخفيفِ منْ وقعِ الخبرِ.

◆◆◆

27

بين زحمة النّاس



بدأتْ حركةُ الشّاحنةِ تتباطأُ. كانَ رأسُ ماجد يرتطمُ بأرضيّةِ الصّندوقِ كلّما توقّفتِ الشّاحنةُ فجأةً أوْ تعرّضتْ لمطبٍّ؛ فيعضُّ على شفتِهِ ويشدُّ أكياسَ الخيشِ حولَهُ حتّى لا ينكشفَ أمرُهُ.

وأخيرًا توقّفتِ الشّاحنةُ تمامًا وسمعَ ماجد البابَ يُفتَحُ ويُغلَقُ بشدّةٍ ثمَّ سمعَ الحاجَّ أبا مرعي يقولُ: "نرتاحُ عندَ قريبي قليلاً ثمَّ نذهبُ إلى السّوقِ. ما رأيكَ؟"

أجابَ أبو عبد الله: "فكرةٌ رائعةٌ! هيّا أسرعْ يا رجلُ! لا تنسَ كيسَ الزّيتونِ. فنجانُ قهوةٍ مضبوطةٍ يساوي الدّنيا الآنَ."

سمعَ ماجد خطواتِ أقدامٍ تقتربُ منهُ. حبسَ أنفاسَهُ وتجمّدَ مكانَهُ ولحسنِ حظّهِ كانَ الحاجُّ أبو مرعي متلهّفًا بدورِهِ أيضًا لفنجانِ قهوةٍ فسحبَ كيسَ الزّيتونِ بسرعةٍ ودخلا البيتَ.

شعرَ بدقّاتِ قلبهِ تتسارعُ وهوَ يفكّرُ كيفَ سيتمكّنُ منَ الهربِ دونَ أنْ ينكشفَ أمرُهُ. رتّبَ أكياسَ الخيشِ حولَهُ وانكمشَ على نفسِهِ مجدّدًا.

بعدَ لحظاتٍ، أخرجَ رأسَهُ منْ تحتِ الأكياسِ بحذرٍ ونظرَ حولَهُ. وبعدَ أنْ تأكّدَ

منْ خلوِّ الشّارعِ منَ المارّةِ، قفزَ منْ صندوقِ الشّاحنةِ وشغلَ نفسَهُ بترتيبِ الأكياسِ ثمَّ تفحّصَ دواليبَ السّيّارةِ ودونَ أنْ ينظرَ حولَهُ ابتعدَ عنِ الشّاحنةِ بشكلٍ طبيعيٍّ.

كانَ مع ماجد مبلغٌ منَ المالِ ليتدبّرَ أمورَهُ قبلَ الوصولِ إلى بيتِهِ. مشى في الطّريقِ المؤدّي إلى السّوقِ. مرَّ بأزقّةٍ ضيّقةٍ حتّى وصلَ إلى باحةٍ مكشوفةٍ تتوسّطُ دكاكينَ تبيعُ بضائعَ منوّعةً. اختلطَ صوتُ بائعي الخضارِ وهمْ يروّجونَ لمنتجاتِهِمْ مع أصواتِ أبواقِ السّيّاراتِ وجلبةِ السّوقِ... أصابع البوبو يا خيار... كمْ كانَ يسمعُ هذا النّداءَ وهوَ في طريقِهِ إلى المجمّعِ ليحضرَ والدَهُ إلى البيتِ. شعرَ بالحنينِ إلى حياةٍ كانَ يعيشُها قبلَ فترةٍ وجيزةٍ، بدتِ الآنَ كأنَّها كانتْ قبلَ دهرٍ منَ الزّمنِ. مشى ببطءٍ في السّوقِ يستمتعُ بأصغرِ الأشياءِ فيهِ... بأشياءَ لمْ يكنْ يلحظُها سابقًا.

وجدَ مطعمًا شعبيًّا صغيراً؛ فدخلَهُ وطلبَ ما كانَ يتمنّى أنْ يأكلَهُ هذا الصباحَ، الحمّصَ والفولَ والفلافلَ مع كوبٍ منَ الشّاي. كانَ أطيبَ فطورٍ أكلَهُ منذُ مدّةٍ... جعلَهُ يعودُ بذاكرتِهِ إلى إفطارِ يومِ الجمعةِ العائليِّ حيثُ كانَ عليهِ أنْ ينزلَ إلى السّوقِ لشراءِ فتّةِ الحمّصِ والفلافلِ ومناقيشِ الزّعترِ.

قالَ لنفسِهِ: "سأبقى في هذهِ المدينةِ بعضًا منَ الوقتِ حتّى أتأكّدَ منْ أنَّ الخطرَ قدْ زالَ عنّي ثمَّ سأتّصلُ بأهلي لنخطّطَ للّقاءِ في مكانٍ آمنٍ لا يعرّضُهُمْ للخطرِ. هلْ سيسامحونَني بعدَ كلِّ ما حمّلتُهُمْ منْ لوعةٍ وحزنٍ وقلقٍ؟ آهٍ كمِ اشتقتُ إليهِمْ! وكمِ اشتقتُ إلى حياتي السّابقةِ!"

كانتِ الأفكارُ تتزاحمُ في ذهنِهِ. عليهِ أنْ يخطّطَ جيّدًا للعودةِ إلى بيتِهِ. أهمُّ شيءٍ

هوَ أنْ يجدَ طريقةً ليتّصلَ بعائلتهِ ليطمئنَهُمْ عنْ نفسِهِ... ولكنّهُمْ قدْ يكونونَ تحتَ المراقبةِ. ربّما منَ الأفضلِ أنْ يكلّمَ سميح ويطلبَ منْهُ أنْ يكونَ وسيطًا بينَهُ وبينَ أهلِهِ. مشى في شوارعِ المدينةِ يبحثُ عنْ نُزُلٍ رخيصٍ يبيتُ فيهِ، ومنْ مسافةٍ ليستْ ببعيدةٍ، سمعَ أصواتًا مرتفعةً غاضبةً. توقّفَ لحظةً ثمَّ ساقَهُ سوءُ حظّهِ ليستكشفَ سببَ الصّوتِ. وجدَ نفسَهُ وسطَ مشاجرةٍ صاخبةٍ تحوّلتْ بسرعةٍ إلى عراكٍ بالأيدي.

حاولَ الابتعادَ، ولكنَّ جموعَ المتعاركينَ كانتْ تدفعُ بهِ منْ جهةٍ إلى أخرى. وفجأةً سمعَ صفيرَ الشّرطةِ القادمةِ لفضِّ الشّجارِ. ابتعدَ بسرعةٍ راكضًا بالاتّجاهِ المعاكسِ، ولكنَّ دوريةً أخرى كانتْ لهُ بالمرصادِ. أمسكَ بهِ شرطيٌّ بقوّةٍ صائحًا: "إلى أينَ الذّهابُ يا شقيُّ؟ توقّفْ عندَكَ!" ثمَّ دفعَهُ بيدٍ قويّةٍ نحوَ شاحنةِ شرطةِ مكافحةِ الشَّغبِ الّتي كانتْ متوقّفةً في أوّلِ الشّارعِ.

قالَ ماجد: "لا دخلَ لي بالمشاجرةِ! أقسمُ لكمْ إنّني كنتُ مارًّا بهذهِ المنطقةِ فقط، وأحاطَ بي المتشاجرونَ وقدْ كنتُ أحاولُ الابتعادَ عنْهُمْ."

صاحَ بهِ شرطيٌّ آخرُ: "اخرسْ يا شقيُّ! لقدْ ملَلْنا منْ سماعِ مثلِ هذهِ الأعذارِ."

امتلأتِ الشّاحنةُ بالمتشاجرينَ. بعضُهُمْ قمصانُهُمْ ممزقّةٌ، وبعضُهُمْ تظهرُ كدماتٌ على وجوهِهِمْ، والدّمُ يسيلُ منْ أفواهِهِمْ.

في المخفرِ، وقفَ الجميعُ في طابورٍ واحدٍ ليأخُذَ الشّرطيُّ أسماءَهُمْ وبطاقاتِ هويّاتِهِمْ لتصويرِها.

أدخلوهمْ بعدَ هذا إلى زنزانةٍ كبيرةٍ. قالَ الشّرطيُّ بتهكّمٍ وهوَ ينظرُ إلى وجوهِهِمْ: "سنتأكّدُ منْ أسمائِكمْ لنرى منْ منْكمْ عندَهُ أسبقيّاتٌ. سيظهرُ كلُّ شيءٍ عندَنا على الحاسوبِ. كلُّ شيءٍ..."

كانَتْ ليلَةً رهيبةً لمْ يغمضْ لماجد جفنٌ طوالَها. وفي صباحِ اليومِ التالي تمَّ الإفراجُ عنْ معظمِ المعتقلينَ بكفالةٍ ما عدا ماجد وشابّيْنِ آخرَيْنِ.

جلسوا في الزنزانةِ ينظرونَ إلى بعضِهِمْ بتوجّسٍ ودونَ أنْ ينطقوا بأيِّ حرفٍ. أخيراً نوديَ على اسمِ ماجد.

نظرَ المحقّقُ إلى ماجد طويلًا ثمَّ سألَهُ: "هلِ اسمُكَ ماجد أحمد محمّد؟"

- "نعمْ."

- "عمرُكَ؟"

- "إحدى وعشرونَ سنةً."

- "عملُكَ؟"

- "طالبٌ في كلّيّةِ الصّحافةِ."

حدّقَ المحقّقُ في ماجد منْ تحتِ حاجبيْنِ كثيفيْنِ متلاصقيْنِ ثمَّ ضربَ بيدِهِ على الطّاولةِ وقالَ:

"لقد وصلتْنا معلوماتٌ تفيدُ بأنّكَ عضوٌ في مجموعةٍ مسلّحةٍ خارجةٍ عنِ القانونِ

يا بطلُ! سأغلقُ إضبارتَكَ في قسمِ الشّرطةِ؛ فقدِ اتُّخِذَ قرارٌ بنقلِكَ إلى المخابراتِ العامّةِ للتّحقيقِ معكَ. ستلقى جزاءَ خيانتِكَ هناكَ. فهمْ يعرفونَ كيفَ يتصرّفونَ معَ الأنذالِ منْ شاكلتِكَ." ثمَّ أشار للشّرطيّ الواقفِ خلفَهُ: "خذوهُ!"

قيّدَ الشّرطيُّ يديْ ماجد خلفَ ظهرِهِ ودفعَهُ إلى الشّاحنةِ مع الشّابيْنِ الآخريْنِ.

عرفَ ماجد في قرارةِ نفسهِ أنهُ لنْ يخرجَ منْ هذا المأزقِ بسرعةٍ أوْ بسهولةٍ.

في الشّاحنةِ، تبادلَ الشّبابُ الثّلاثةُ النّظراتِ وتحاشَوُا الحديثَ مع بعضِهِمْ خوفًا منَ الحارسِ المرافقِ لهمْ.

◆◆◆

28
اللّحظة المناسبة



كانتْ شادن تتحيّنُ اللّحظةَ المناسبةَ لتفتحَ موضوعَ رفضِ الفيزا مع والديْها، وكادتْ أنْ تفعلَ ذلكَ أكثرَ منْ مرّةٍ ولكنْ لم يطاوعْها قلبُها أنْ تفسدَ اللّحظاتِ الجميلةَ على مائدةِ الغداءِ مع سميح، هذهِ اللّحظاتُ ذكّرتْها بجمعاتِ "أيّام زمان" مع ماجد؛ فقدْ كانَ الطّعامُ شهيًّا ووجودُ سميح معهُمْ أعطى الجلسةَ نكهةً أخرى. لأوّلِ مرّةٍ منذُ زمنٍ تحدّثَ أبو ماجد بإسهابٍ عنْ مواضيعَ مختلفةٍ وضحِكَ عاليًا على نكاتِ سميح. وكلّما كانتْ أمّ ماجد تصرُّ على سميح ليأكلَ أكثرَ، كانتْ شادن ترى في عينيْها شوقًا وفرحًا وكأنَّ وجودَ سميح قرّبَها منَ ابنِها ماجد.

بعدَ أنِ احتسَوُا القهوةَ، أدركتْ شادن أنْ لا مجالَ لتأجيلِ الموضوعِ أكثرَ منْ ذلكَ فاستجمعتْ شجاعتَها وقالتْ: "أمّي، أبي، وصلتْنا رسالةٌ منْ عمّي حامد، ولكنَّ محتواها معَ الأسفِ ليسَ كما نرغبُ أو نتوقّعُ."

سادَ الصّمتُ للحظاتٍ ثمَّ قالَ أبو ماجد بهدوءٍ: "رفضوا أنْ يعطونا الفيزا. أليسَ كذلكَ؟ واللهِ كنتُ أشعرُ بذلكَ."

شهقتْ أمّ ماجد وضربتْ بيدِها على صدرِها وهيَ تقولُ: "لماذا؟ ما الّذي

حصلَ؟ لماذا رفضونا؟"

قالتْ شادن وهيَ تحاولُ أنْ تخفيَ حزنَها وخوفَها على ماجد: "منْ خلالِ تحقيقاتِهِمْ يبدو أنّهُمُ اكتشفوا أنَّ ماجد عضوٌ في مجموعةٍ مشتركةٍ في القتالِ الدّائرِ. وبما أنَّ طلبَ الفيزا كانَ للعائلةِ كلِّها فقدْ رفضونا."

ثمَّ أردفتْ قائلةً لتعطيَهُمْ بارقةَ أملٍ: "ولكنَّ عمّي طمأنَني بأنّهُ سيقدّمُ طلبًا جديدًا للفيزا، ولكنْ كما تعرفونَ... هذا سيستغرقُ بعضَ الوقتِ."

"لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ" تمتمَ أبو ماجد عدّةَ مرّاتٍ، أمّا أمّ ماجد فلمْ تستطعْ وقفَ سيلِ الدّموعِ منَ الانحدارِ على خدّيْها وهيَ تقولُ: "ولكنّهُ تركَ المجموعةَ المسلّحةَ. أليسَ كذلكَ؟ قولوا لهمْ ذلكَ لعلّهُمْ يغيّرونَ رأيَهُمْ ويعطونا الفيزا. آهٍ يا ابني يا حبيبي... أينَ أنتَ؟ أرأيتَ ماذا فعلتَ بنا وبنفسِكَ؟"

حاولَ سميح أنْ يخفّفَ منْ هولِ وقعِ الخبرِ عليْهِمْ ولكنّهُ عرفَ في قرارةِ نفسِهِ أنّهُمْ كانوا يبكونَ ويتحسّرونَ على مصيرِ ابنِهِمْ ماجد وليسَ على رفضِ الفيزا فقط.

◆◆◆

29
أخبار مزعجة



اعتادتْ عائلةُ شادن النّومَ والاستيقاظَ على أصواتِ الانفجاراتِ. صارَ منَ السّهْلِ على الواحدِ منهُمْ أنْ يميّزَ بينَ أصواتِ الانفجاراتِ فيقولُ وهوَ يهزُّ رأسَهُ كخبيرٍ: "هذا صاروخٌ... هذا برميلٌ متفجّرٌ... هذهِ طائراتٌ مغيرةٌ."

صوتُ الانفجاراتِ صارَ يقتربُ رويدًا رويدًا منَ المناطقِ السّكنيّةِ. اتّكأتْ شادن على طرفِ الكنبةِ في الغرفةِ الدّاخليّةِ الّتي صارتْ مقرًّا دائمًا للعائلةِ وبدأتْ تقرأُ لوالديْها الأخبارَ الّتي تصلُها على هاتفِها كلّما كانتْ شبكةُ الإنترت تعملُ:

"انفجارٌ في المنطقةِ الشّماليّةِ. تهدّمُ خمسِ عماراتٍ ووقوعُ عددٍ كبيرٍ منَ القتلى والجرحى بينَ السّكّانِ. الدّفاعُ المدنيُّ ينقذُ الكثيرَ منهُمْ بمساعدةِ مجموعةٍ منَ الشّبابِ المتطوّعينَ."

قالَ أبو ماجد: "يا ساترُ يا ربُّ"

فكّرتْ شادن بسميح، ودعتِ اللهَ أنْ يبقيَهُ سالمًا ثمَّ استمرّتْ بقراءةِ الأخبارِ:

"انفجارٌ كبيرٌ فجرَ اليومِ يهدمُ المجمّعَ التّجاريَّ المركزيَّ و........"

توقّفتْ شادن عنْ قراءةِ الخبرِ... هوى قلبُها... إنّهُ المجمّعُ حيثُ يوجدُ محلُّ

والدِها. نظرتْ بسرعةٍ إلى والدِها لترى وقعَ الخبرِ عليهِ؛ فوجدتْهُ يصيحُ: "أبو مصطفى؟ الشّباب؟ لا... لا... عندَ الفجرِ؟ الحمدُ لله... سلّمهمُ اللهُ!" ثمَّ هدأ قليلاً كأنّهُ أدركَ الآنَ أنَّ محلّهُ قدِ انتهى... أخذَ يضربُ كفًّا بكفٍّ وهوَ يردّدُ قائلاً: "لا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ. كلُّ شيءٍ ضاعَ."

زعزعَ هذا الخبرُ كيانَ أبي ماجد، وتأكّدَ لهُ شعورُهُ بأنّهُ قدْ فقدَ زمامَ الأمورِ كربِّ أسرةٍ لهذا البيتِ منذُ زمنٍ طويلٍ. لمْ يتخيّلْ أبدًا أنْ يجلسَ مع عائلتِهِ على السّجّادةِ في وسطِ البيتِ الّذي يهتزُّ بسببِ الانفجاراتِ المتتاليَةِ القريبةِ والبعيدةِ. لمْ يتخيّلْ أبدًا أنْ يتهدّمَ المجمّعُ وتتهدّمَ معهُ آمالُهُ وتضيعَ سنواتُ تعبِهِ وجهدِهِ وتذهبَ أدراجَ الرّياحِ... حتّى المخرجُ الوحيدُ الّذي كانَ متاحًا لهمْ أُغلقَ في وجوهِهِمْ ورُفضتْ الفيزا إلى السّويد.

ما العملُ الآنَ؟ وإلى أينَ المفرُّ؟ وكيفَ يمكنُ أنْ يحافظَ على سلامةِ عائلتِهِ وينقلَها إلى برِّ الأمانِ؟

وكأنَّ ما همْ فيهِ منْ مصائبَ لمْ يكنْ كافيًا، فذاتَ مساءٍ سمعَ أبو ماجد وعائلتُهُ صوتًا كانوا يتوقّعونَهُ بوَجَلٍ منذُ أنْ وصلَهُمْ خبرُ هروبِ ماجد منْ جماعتِهِ. صوتُ بساطيرَ تصعدُ الدّرجَ للمرّةِ الثّانيةِ. هذهِ المرّةَ، أدركتِ العائلةُ فورًا أنّها المقصودةُ بهذهِ الزّيارةِ. نفسُ الصّوتِ المرعبِ طرقَ مسامعهُمْ بعنفٍ وأصابهمْ بالقشعريرةِ والهلعِ؛ فعلا صوتُ دعاءِ أمّ ماجد: "يا ربُّ، استرْنا منَ القادمِ... رحمتُكَ يا ربُّ."

حافظتْ شادن على هدوئِها، وكما أوصاها سميح فقدِ اتّصلتْ بهِ مباشرةً، وهيَ

تشكرُ اللهَ أنَّ خطوطَ الهاتفِ كانتْ تعملُ في تلكَ اللّحظةِ، وعندَما ردَّ عليها صاحتْ قائلةً: "لقدْ أتَوْا يا سميح... أسرعْ! بربّكَ أسرعْ!"

خبطاتٌ قويّةٌ هزّتِ البابَ منْ مفصليْهِ، ثمَّ دُفعَ بقوّةٍ وعنفٍ بضربةِ بسطارٍ. وقفَ خمسةُ مسلّحينَ ملثّمينَ على بابِ البيتِ. صرخَ أحدُهُمْ: "أينَ ماجد؟ نعرفُ أنّهُ عادَ إلى هنا. إنّهُ خائنٌ وهاربٌ."

"فتّشوا البيتَ!" صرخَ آخرُ. ومرّةً ثانيةً تكرّرَ مشهدُ فتحِ الخزاناتِ ورميِ محتوياتِها على الأرضِ وتكسيرِ الزّجاجِ.

صاحتْ أمّ ماجد: "عيبٌ عليكُمْ! ألا يوجدُ لديكُمْ عائلاتٌ؟ أليسَ لكمْ أمّهاتٌ وآباءٌ وأخواتٌ؟ ألا يكفينا ما نحنُ فيهِ. ماجد، ابنُنا، اختفى ولا نعرفُ لهُ أثرًا وأنتمْ تحطّمونَ بيتَنا وتروّعونَنا."

اقتربَ أحدُ الملثّمينَ، الّذي ناداهُ أحدُهُمْ بأبي فادي، منْ أمّ ماجد وصرخَ بغضبٍ: "اخرسي وإلّا..."

رأتْ شادن والدَها يشتاطُ غضبًا ويقتربُ منَ المسمّى بأبي فادي وهوَ يصرخُ قائلاً: "اخرسْ أنتَ يا صعلوكُ، وتعلّمْ كيفَ تتحدّثُ مع النّاسِ المحترمينَ."

التفتَ أبو فادي وصوّبَ بندقيّتَهُ إلى رأسِ أبي ماجد. صاحتْ شادن بأعلى صوتِها وهيَ تهجمُ على والدِها وتحيطُهُ بذراعيْها: "لا... لا... أبعدِ البندقيّةَ عنْ رأسِ والدي!"

في تلكَ اللّحظةِ، دخلَ سميح بصحبةِ مجموعةٍ كبيرةٍ مسلّحةٍ مكوّنةٍ منْ أهالي

الحيِّ الأشدّاءِ، كانتْ جمعيّةُ الحيِّ قدْ كوّنتْها منَ متطوّعينَ لتحميَ الحيَّ منَ السّلبِ والنّهبِ وأعمالِ العنفِ الّتي انتشرتْ في كلِّ مكانٍ.

صاحَ أبو فادي الّذي بدا منْ تصرّفاتِهِ أنّهُ قائدُ المجموعةِ المسلّحةِ: "ابتعدوا أو أطلقُ النّارَ على رأسِ هذا العجوزِ وعلى ابنتِهِ أيضًا."

قالَ سميح بصوْتٍ واثقٍ: "اهدأْ قليلاً، وانظرْ حولكَ في تمعّنٍ، واعرفْ أنَّ هناكَ عددًا مماثلاً لنا خارجَ العمارةِ. نحنُ لنْ نؤذيَكَ، وسنسمحُ لكَ ولزملائِكَ بمغادرةِ المكانِ دونَ أيِّ مشاكل. هذهِ فرصةٌ لنْ تتكرّرَ."

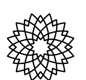
نظرَ قائدُ المجموعةِ إلى سميح ورفاقِهِ الأشدّاءِ الّذينَ كانوا يصوّبونَ بنادقَهُمْ نحوَهُ ونحوَ رفاقِهِ، وأدركَ أنَّ عددَهُمْ يفوقُ عددَ مجموعتِهِ فأنزلَ سلاحَهُ وبإيماءةٍ منْ رأسهِ لأفرادِ مجموعتِهِ انسحبوا إلى البابِ.

توقّفَ أبو فادي خارجَ بابِ البيتِ وقالَ مهدّدًا: "تأكّدوا أنَّ الموضوعَ لمْ ينتهِ. سنجدُ هذا الخائنَ وسنمسكُ بهِ وسيكونُ عبرةً لمنْ يفكّرُ بالهربِ منّا."

◆◆◆

30

خبر عاجل



ومع مرورِ الأيّامِ، ازدادتِ الأمورُ تعقيدًا، وأصبحتِ الاشتباكاتُ أكثرَ حدّةً في منطقةِ حيِّ الياسمين. وجدَ أبو ماجد مذياعًا صغيرًا "ترانزيستور" يعملُ على البطاريّاتِ كانَ قدِ استبدلَهُ بوسائلَ أخرى أكثرَ تطوّرًا منذُ زمنٍ بعيدٍ، وصارَ يستمعُ لهُ كلَّ الوقتِ. كانتْ شادن تتابعُ الأخبارَ على هاتِفِها كلّما كانتِ الشّبكةُ تعملُ. كلٌّ منهما يحاولُ أنْ يحصلَ على معلوماتٍ أكثرَ منْ أيِّ جهةٍ متاحةٍ.

في أحدِ الأيّامِ، رنَّ هاتفُ شادن فظنّتْ في باديءِ الأمرِ أنَّ سميح يريدُ أنْ يطمئنَّ عليهِمْ كعادتِهِ، ولكنْ عندَما ردّتْ عليهِ، سمعتْهُ يصرخُ قائلاً: "شادن! اخرجوا منْ بيتِكُمْ! الآنَ حالاً... حالاً. منطقتُكُمْ معرّضةٌ للقصفِ. أرجوكِ! أرجوكِ، لا تنتظروا، اخرجوا الآنَ حالاً. اذهبوا إلى أيِّ ملجأٍ قريبٍ."

قفزتْ شادن منْ مكانِها مرعوبةً وهيَ تصرخُ: "أمّي... أبي... هيّا أسرعا، علينا مغادرةُ البيتِ حالاً! نحنُ في خطرٍ."

رأتْ والدتَها تدورُ حولَ نفسِها وتحرّكُ يديْها بقلقٍ وهيَ تفكّرُ بما يجبُ أنْ تأخذَهُ معهُمْ، ولكنَّ شادن أوقفتْها قائلةً: "لا وقتَ لديْنا يا أمّي. هيّا!"

صاحَ أبو ماجد: "والحزامُ؟"

أشارت شادن إلى خصرِها قائلةً: "إنّهُ بأمانٍ كما أوصيتَني. هيّا! باللهِ عليكُما... هيّا!"

هرولتِ العائلةُ على الدّرجِ بمعيّةِ منْ تبقّى منْ سكّانِ العمارةِ الّذينَ يبدو أيضًا أنّهُمْ قدْ تلقّوْا تحذيرًا مثلَهُمْ.

وقفوا أمامَ العمارةِ يتلفّتونَ حولهمْ لا فكرةَ لديهمْ أينَ يذهبونَ. رأوْا جيرانَهمْ يركضونَ باتّجاهِ الدّوّارِ وهمْ يقولونَ بلهفةٍ: "هيّا الحقونا يا جيرانُ! سمعنا أنَّ المدرسةَ في آخرِ الشّارعِ فيها ملجأٌ كبيرٌ يمكننا أنْ نحتميَ بهِ."

كانَ الملجأُ معتمًا مكتظًّا بالنّاسِ يكادُ يخلو منَ التّهويةِ. بحثتْ شادن حتّى وجدتْ مكانًا مناسبًا أجلستْ فيهِ والديْها. فجأةً، قفزتْ والدتُها منْ مكانِها وهيَ تشهقُ قائلةً: "يا للمصيبةِ! نسيتُ دواءَ والدِكِ... إنّهُ دواءٌ مهمٌّ... دواءٌ للقلبِ. عليَّ أنْ أذهبَ وأحضرَهُ حالاً... حالاً." وبدأتْ تمشي باتّجاهِ البابِ ولكنَّ شادن أوقفتْها قائلةً: "لا يا أمّي، لا يمكنُكِ أنْ تذهبي الآنَ. اسمعي! لقدْ بدأَ القصفُ. سأذهبُ أنا بعدَ أنْ يتوقّفَ القصفُ."

صاحَ أبو ماجد: "أنا سأذهبُ. لنْ يذهبَ أحدٌ غيري... هيّا ارجعا!"

في عتمةِ الملجأِ، جلسَ الجميعُ وآذانُهُمْ صاغيةٌ لكلِّ ما يدورُ خارجَ الملجأِ، يتابعونَ صوتَ الانفجاراتِ المتلاحقةِ الّتي كانتْ تهزُّ الملجأَ ويتخلّلُها صراخٌ ووقعُ أقدامٍ تركضُ. وفي الملجأِ أصواتُ أنينٍ وأطفالٌ يبكونَ بصوتٍ عالٍ، وآخرونَ يحبسونَ الشّهقةَ والبكاءَ منْ شدّةِ الخوفِ.

وأخيرًا سادَ الهدوءُ المكانَ، وبقيَ الجميعُ في الملجأِ صامتينَ غيرَ مصدّقينَ أنَّ القتالَ قدْ توقّفَ.

بعدَ مدّةٍ، استجمعَ بعضُ الشّبابِ شجاعتَهُمْ وخرجوا بحذرٍ ليتفحّصوا الوضعَ، وعندَما عادوا عبّرتْ وجوهُهُمْ عنْ هولِ ما رأوهُ خارجَ الملجأِ.

قرفصَ أحدُهُمْ على الأرضِ وأمسكَ رأسَهُ بينَ يدَيْهِ ثمَّ أجهشَ بالبكاءِ وهوَ يقولُ: "لمْ يبقَ شيءٌ. دمارٌ شاملٌ في الخارجِ."

قالَ أحدُهُمْ: "أنصحُ الجميعَ أنْ يبقوْا مكانَهُمُ اللّيلةَ حتّى نتأكّدَ منْ توقّفِ الاشتباكاتِ." صافراتُ سيّاراتِ الإسعافِ تقتربُ أكثرَ فأكثرَ منَ المكانِ... صراخٌ ونحيبٌ تقشعرُّ لهُ الأبدانُ، وأصواتُ خطواتٍ تركضُ هنا وهناكَ. همستْ أمّ ماجد لشادن: "والدّواءُ؟"

قالتْ شادن: "انتظري قليلاً يا أمّي."

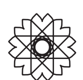
ظلّتْ شادن تحاولُ الاتّصالَ بسميح لتطمئنَهُ عليْهِمْ ولتطلبَ منْهُ أنْ يحضرَ الدّواءَ إذا تمكّنَ منْ ذلكَ.

ولكنَّ الإرسالَ كانَ ضعيفًا في الملجأِ.

◆◆◆

31

ماذا سيحصل الآن؟



لمْ تتجدّدِ الاشتباكاتُ تلكَ اللّيلةَ. في صباحِ اليومِ التّالي، بدأَ النّاسُ بالخروجِ تباعًا منَ الملجأِ. الكلُّ يأملُ أنْ يعودَ ويجدَ بيتَهُ ما زالَ واقفًا. حمدتْ أمّ ماجد ربَّها أنَّ اللّيلةَ انقضتْ على خيرٍ وحاولتْ أنْ تقنعَ أبا ماجد بأنْ يبقى في الملجأِ كيْ تذهبَ مع شادن لتفقّدِ البيتِ وإحضارِ الدّواءِ، ولكنَّ أبا ماجد رفضَ ذلكَ رفضًا قاطعًا بلْ طلبَ منهُما البقاءَ في الملجأِ وهمَّ أنْ يذهبَ وحدَهُ فكانَ الحلّ أنْ يذهبوا معًا جميعًا.

خطفتْ أشعّةُ الشّمسِ السّاطعةُ أبصارَهُمْ للحظاتٍ فورَ خروجِهِمْ منْ عتمةِ الملجأِ واحتاجوا إلى لحظاتٍ ليريحوا نظرَهُمْ ويروْا هولَ ما حدثَ لحيّهِمْ. كلُّ المعالمِ الّتي يعرفونَها اختفتْ. لمْ يبقَ إلا بناياتٌ هنا وهناكَ نجتْ بأعجوبةٍ منَ الدّمارِ. كانَ المنظرُ كأنّهُ منْ فيلمٍ سينمائيٍّ منْ إنتاجِ هوليوود.

اختاروا خطواتِهِمْ بعنايةٍ بينَ الأنقاضِ وهمْ ينظرونَ حولَهُمْ مشدوهينَ، هلْ هذهِ حقيقةٌ أمْ حلمٌ مزعجٌ سيصحونَ منهُ قريبًا؟

عندَما وصلوا إلى موقعِ عمارتِهِمْ لمْ يجدوها... لمْ يجدوا سوى الرّكامِ. وقفوا مع جيرانٍ آخرينَ ينظرونَ حولَهُمْ مصدومينَ. كانَ هذا المنظرُ أكثرَ ممّا يمكنُ لقلبِ

أبي ماجد المتعبِ أنْ يحتملَهُ؛ فسقطَ أرضًا.

صاحتْ أمّ ماجد بأعلى صوتِها وهيَ تركضُ هنا وهناكَ: "الدّواء... الدّواء... لماذا نسيتُهُ؟" صارتْ تكلّمُ نفسَها وكأنَّ مسًّا قدْ أصابَها. ثمَّ هجمتْ على أنقاضِ العمارةِ تحفرُ بيديْها وتصيحُ: "الدّواء... الدّواء... لا بدَّ أنْ أجدَهُ. سأضعُ لهُ حبّةً تحتَ لسانِهِ وسيتحسّنُ مباشرةً." انضمَّ إليْها آخرونَ يصرخونَ كالمجانينِ ويحفرونَ بينَ الأنقاضِ بحثًا عمّا تبقّى منْ ممتلكاتِهِمْ وذكرياتِهِمْ.

ركضتْ شادن إلى والدِها تحاولُ إنعاشَهُ. ضربتْ خديْهِ بكفّيْها وهيَ تقولُ: "بابا... بابا... اصحى يا بابا، افتحْ عينيْكَ وتحدّثْ معي. بابا حبيبي، لا تزعلْ على البيتِ، المهمُّ أنّنا بخيرٍ... كلُّ شيءٍ فداكَ يا بابا، المحلُّ... البيتُ... المهمُّ أنْ نبقى معًا... بابا... بابا... حبيبي اصحى... سيعودُ ماجد وسيكونُ كلُّ شيءٍ على ما يرامُ."

فتحَ أبو ماجد عينيْهِ وشدَّ على يدِ شادن وقالَ بصوتٍ ضعيفٍ: "أستحلفُكِ... حامد... السّويد..."

ثمَّ أغمضَ عينيْهِ إلى الأبدِ.

استمرّتْ شادن محاولةً إيقاظَهُ. التفَّ النّاسُ حولَها وحولَ والدَتِها، بعضُهُمْ يشدُّ أمّ ماجد بعيدًا عنِ الأنقاضِ محاولينَ تهدئتَها، وآخرونَ يحاولونَ مواساةَ شادن الّتي أدركتْ أنّها فقدتْ والدَها فأجهشتْ بالبكاءِ وهيَ ترى أحدَهُمْ يغطّي وجهَ والدِها الحبيبِ بحطّتِهِ.

هزَّ الحزنُ كيانَها وشعرتْ أنّها فقدتِ الدّنيا وأنَّ الأرضَ الّتي تمشي عليها لمْ تعدْ

ثابتةً على الإطلاقِ. وبالرّغمِ منْ حزنِها الشّديدِ إلّا أنَها أدركتْ أنَّ عليْها أنْ تكونَ قويّةً لأنَّ والدتَها بحاجةٍ لها فلمْ يتبقَّ لها أحدٌ سواها.

مسحتْ دموعَها وأسرعتْ تحضنُ والدتَها الّتي كانتْ تصرخُ وتبكي وتلومُ نفسَها لأنّها نسيَتِ الدّواءَ في البيتِ.

سمعتْ شادن أصواتَ سيّاراتٍ وخطواتٍ تسرعُ نحوَهُمْ. قالَ أحدُهُمْ: "لعلَّ رجالَ الدّفاعِ المدنيِّ قدْ وصلوا."

فتحتْ عينيْها ومنْ خلالِ دموعِها رأتْ سميح يقفُ أمامَها.

أسرعتْ نحوَهُ ورمتْ نفسَها بينَ ذراعيْهِ غيرَ آبهةٍ بأحدٍ وانخرطتْ مجدّدًا في البكاءِ: "سميح، أبي... أبي... ماتَ يا سميح! أبي ماتَ..."

مسحَ سميح على رأسِها بحنانٍ ثمَّ ذهبَ إلى والدتِها وساعدَها على الوقوفِ.

قالتْ شادن وهيَ تبكي بمرارةٍ عندَما رأتْ والدَها يُحملُ إلى سيّارةِ إسعافٍ متوقّفةٍ في أوّلِ الشّارعِ: "ماذا سيحصلُ الآنَ يا سميح؟"

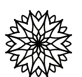
- "اهدئي يا عزيزتي... خذي والدتَكِ إلى الملجأِ الآنَ. سأحضرُ بعدَ الانتهاءِ منْ عملي لنتحدّثَ معًا عمّا سنفعلُ. تماسكي يا شادن! أريدُكِ قويّةً... تمام؟ تمام؟"

حرّكتْ شادن رأسَها موافقةً والدّموعُ تنهمرُ على خدّيْها.

◆◆◆

32

خسرنا كلّ شيء



في ذلكَ اليومِ المشؤومِ، فقدَ كثيرٌ منَ النّاسِ كلَّ شيءٍ وعادوا إلى الملجأِ وهمْ يجرّونَ أذيالَ الخيبةِ واليأسِ، لمْ يعودوا يملكون إلّا ما على ظهورِهِمْ منْ ملابسَ. كانَ عليْهِم جميعًا البحثُ عنْ مأوىً جديدٍ في مكانٍ آمنٍ... كانَ عليهِمْ أنْ يبدأوا منَ الصّفرِ. بدأَ شبابٌ منَ المتطوّعينَ بتوزيعِ أكياسِ الخبزِ وحليبِ الأطفالِ والماءِ على السّكّانِ المصدومينَ في الملجأِ.

مدَّ أحدُهُمْ رغيفيْ خبزٍ وقارورةَ ماءٍ لشادن فهزّتْ رأسَها بالنّفيِ بشدّةٍ. نكزتْها سيّدةٌ بقربِها بقوّةٍ وهيَ تقولُ: "خذي حصّتَكُما منَ الطّعامِ يا ابنتي. لقدْ فقدْنا كلَّ شيءٍ... كلَّ شيءٍ."

أجهشتْ شادن بالبكاءِ وهيَ تقولُ: "أدري... طبعًا أدري. فقدتُ والدي... يعني فقدتُ كلَّ شيءٍ. الخبزُ والماءُ لنْ يعيداهُ."

وضعَ المتطوّعُ الخبزَ والماءَ بكلِّ لطفٍ قربَ شادن ووالدتِها واستمرَّ في التّوزيعِ.

ركزتْ شادن رأسَها على كتفِ والدتِها وأخفتْ وجهَها وسمحتْ لدموعِها أنْ تنسكبَ. حضنتْها أمُّها بشدّةٍ. كانتْ كلُّ واحدةٍ منهما تواسي الأخرى حتّى أنهكَهُما البكاءُ.

بعدَ الانتهاءِ منْ دوريتِهِ معَ الدّفاعِ المدنيِّ، عادَ سميح إلى الملجأِ. قرفصَ أمامَ أمّ ماجد وقالَ لها بكلِّ لطفٍ: "يسلم راسك يا خالة. رحمةُ اللهِ على عمّي أبي ماجد. أرجو منكِ ألّا تشغلي بالَكِ بأيِّ شيءٍ. سأقومُ أنا بكلِّ الإجراءاتِ المطلوبةِ."

عندها انفجرتْ أمُّ ماجد باكيةً. ربّتَ سميح على يدِها وهوَ يقولُ: " الله يرحمه ويجعل مثواه الجنة. هذهِ سنّةُ الحياةِ يا خالة. علينْا أنْ نتقبّلَ مشيئةَ اللهِ. والآنَ، تفضّلا معي. منَ الأفضلِ ألّا تبقيا في الملجأِ."

قالتْ أمّ ماجد: "إلى أينَ نذهبُ؟ لا يوجدُ عندَنا مكانٌ نذهبُ إليهِ... لقدْ خسرْنا كلَّ شيءٍ... كلَّ شيءٍ."

قالَ سميح: "هذا ما جئتُ أتحدّثُ معكما بشأنِهِ يا خالةُ. سآخذُكُما إلى بيتِ العائلةِ والحمدُ للهِ أنّهُ في منطقةٍ لمْ يصلْها القتالُ حتّى الآنَ. أهلي انتقلوا للعيشِ في القريةِ ليبقَوْا مع جدّي. أصرّوا على أنْ أرافقَهُمْ ووعدتُهُمْ أنْ أوافيَهُمْ عندَما أتمكّنُ منْ ذلكَ. يمكنُكُما أنْ تبقيا في البيتِ إلى أنْ ترتّبا أمورَكُما أمّا أنا فسأبيتُ عندَ صديقي."

كانَ الخيارُ بينَ أنْ تبقيا في الملجأِ أوْ أنْ تذهبا إلى بيتِ سميح. وعندَما رأى سميح التردّدَ باديًا في وجهيْهِما أصرَّ قائلاً: "أهلي يرحبّونَ بكما ويقولونَ لكما "البيتُ بيتُكما". تستطيعانِ البقاءَ فيهِ كما تشاءانِ. وتذكّرا أيضًا أنَّ عليَّ أنْ أفيَ بوعدٍ قطعتُهُ على نفسي لصديقي ماجد."

شعرتْ أمّ ماجد وشادن بالامتنانِ لسميح، وقبلتا دعوتَهُ للعيشِ في بيتِ العائلةِ حتّى تتدبرا أمرَهُما.

تابعَ سميح كلَّ الأمورِ الرّسميةِ المتعلّقةِ بالوفاةِ منْ دفنٍ وإستخراجِ أوراقِ الوفاةِ. بكتْ شادن بحرقةٍ وقالتْ: "كانَ يجبُ أنْ يحضرَ ماجد دفنَ والدِهِ ويصلّيَ عليهِ ويدعوَ لهُ."

ردَّ سميح بلطفٍ: "لوْ كانَ بإمكانِهِ الحضورُ لحضرَ يا شادن. لا تقسي على أخيكِ؛ فأنتِ لا تعرفينَ ظروفَهُ. فكّري أيضًا كمْ سيتألّمُ عندَما يعرفُ عنْ وفاةِ والدِهِ خلالَ غيابِهِ."

وعندَما عرفَ جيرانُ عائلةِ سميح بما حدثَ لعائلةِ أبي ماجد تعاطفوا مع شادن وأمِّها وهبّوا لمساندتِهِما. كانتْ كلُّ جارةٍ تحضرُ وجبةً ساخنةً يوميًّا وتجلسُ لساعاتٍ تواسي أمّ ماجد وتخفّفُ عنْها. أمّا شادن فكانتْ تحافظُ على صلابةِ أعصابِها أمامَ والدتِها وتسمحُ لنفسِها بالبكاءِ في الحمّامِ حزنًا على والدِها، وأسفًا على فقدانِها بيتًا تربّتْ فيهِ منذُ الطّفولةِ.

أدركتْ شادن أنَّ الأمورَ في حياتِها قدْ تغيّرتْ إلى الأبدِ، وأنَّ عليها أنْ تكونَ قويّةً وأنْ تتحمّلَ مسؤوليةَ العائلةِ. كانتْ وصيّة والدِها الأخيرة لها أنْ تبذلَ كلَّ ما باستطاعتِها لتسافرَ هيَ وأمُّها إلى السّويد عندَ عمّها حامد. ولكنَّ الذّهابَ إلى السّويد يحتاجُ إلى وقتٍ طويل للحصولِ على الأوراقِ الرّسميّةِ المطلوبةِ. إذًا عليْها الآنَ أنْ تركّزَ جهودَها على إيجادِ سكنٍ جديدٍ لها ولوالدتِها.

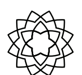
تحدّثتْ مع والدتِها ومع سميح عنْ أفضلِ الخياراتِ المتاحةِ لهُما. هلْ تبحثانِ عنْ بيتٍ جديدٍ في سوريا أمْ تسافرانِ إلى لبنانَ عندَ خالِها إلى أنْ تهدأَ الأمورُ في البلادِ؟

حسمتْ أمّ ماجد الموضوعَ ذاتَ صباحٍ عندَما قالتْ: "أريدُ أنْ أذهبَ إلى بيتِ أخي توفيق في لبنان. لمْ أرَهُ منذُ سنواتٍ. الحروبُ شتّتنا وباعدتنا... ألا يكفي أنّني لمْ أسمعْ ما يطمئنني منْ أخي عادل في مخيّمِ اليرموكِ منذُ مدّةٍ طويلةٍ. نعمْ أريدُ أنْ أذهبَ إلى لبنانَ... لبنانُ قريبٌ... قريبٌ جدًّا. بمجرّدِ أنْ يصلَنا خبرٌ عنْ ماجد سنعودُ إلى سوريا."

◆◆◆

33

زيارة إلى السّجن



وأخيرًا وصلَ خبرٌ عنْ ماجد ولكنّهُ لمْ يكنِ الخبرَ الّذي كانوا ينتظرونَهُ ويأملونَ سماعَهُ.

فقدِ اتّصلَ بهمْ خليل، أحدُ الشّبابِ الّذينَ اعتقلوا مع ماجد في ذلكَ اليومِ المشؤومِ ليطمئنَهُمْ أنّ ماجد حيٌّ يُرزقُ وأنّهُ في المعتقلِ. ففي أيّامِ المعتقلِ الطّويلةِ توطّدتِ العلاقةُ بينَ الشّبابِ الثّلاثةِ وعاهدوا بعضَهُمْ أنْ يقومَ منْ يخرجُ منَ السّجنِ أوّلاً بالاتّصالِ بعائلاتِ الآخرينَ ليعلمَهُمْ بمصيرِ أبنائِهمْ.

وقدْ حافظَ خليل على وعدِهِ واتّصلَ برقمِ شادن الّذي حفّظَهُ إيّاهُ ماجد. وقتَها لمْ يعطِهِ رقمَ والدِهِ لأنّهُ خافَ أنْ يؤثّرَ خبرٌ مزعجٌ مثلُ هذا على صحّتِهِ. كانَ يعرفُ أنَّ أختَهُ شادن قويّةٌ وستعرفُ كيفَ تتصرّفُ.

رنَّ هاتفُ شادن فردّتْ. كانَ على الخطِّ الآخرِ صوتٌ غريبٌ لمْ تميّزْهُ قالَ لها:

- "الأختُ شادن؟ السّلامُ عليكُمْ."

- "نعمْ شادن. وعليكُمُ السّلامُ. منْ يتكلّمُ؟"

- "أنا زميلُ ماجد."

- "ماجد! أينَ هوَ؟! أريدُ أنْ أكلّمَهُ... زميلُ ماجد؟؟ زميلُهُ... أينَ؟"

- "في السّجنِ."

- "في السّجنِ!!!"

- "نعمْ يا أختي. أنا وماجد أُلقيَ القبضُ علينا بتهمةِ الانتماءِ إلى مجموعةٍ مسلّحةٍ. وعاهدْنا بعضَنا في حالِ خرجَ أحدُنا أنْ يتّصلَ بعائلةِ زميلِهِ ليعلمَها بمصيرِ ابنِها. أحببْتُ أنْ أعلمَكُمْ أنّهُ بصحّةٍ جيّدةٍ، معتقلٌ في السّجنِ المركزيِّ."

صرخَتْ شادن فرحةً: "أنتَ خرجتَ، يعني ماجد سيخرجُ أيضًا. أليسَ كذلكَ؟"

- "للأسفِ، لا... لنْ يخرجَ لسنواتٍ عديدةٍ."

- "لا تقلْ هذا!! كيفَ خرجْتَ أنتَ؟"

سكتَ قليلاً ثمَّ قالَ: "التباسٌ في الاسمِ. سامحيني يا أختي. لقدْ أوفيتُ بوعدي لصديقي ماجد." وأنهى المكالمةَ...

أصرّتْ شادن على الذّهابِ إلى السّجنِ المركزيِّ ومحاولةِ ترتيبِ زيارةٍ لماجد. رفضتْ رفضًا قاطعًا أنْ يذهبَ سميح بدلاً عنْها قائلةً لهُ: "أشكرُكَ منْ كلِّ قلبي يا سميح على كلِّ ما قمتَ بهِ منْ أجلِنا، ولكنْ عليَّ أنْ أعتمدَ على نفسي وأنْ أتدبّرَ أمورَ العائلةِ. لنْ أسمحَ لكَ أنْ تتورّطَ في هذا الأمرِ؛ فأنا أخافُ إنْ ذهبْتَ لتسألَ عنْ ماجد أنْ يتّهموكَ بالتّواطؤِ معهُ ويحبسوكَ أنتَ أيضًا. أنا أختُهُ ومنَ الطّبيعيِّ أنْ أسألَ عنهُ وأحاولَ أنْ أراهُ."

بعدَ نقاشٍ طويلٍ ومحتدمٍ مع شادن، وبعدَ أنْ فشلَ سميح في ثنيها عنْ عزمِها، أصرَّ على أنْ يوصلَها بسيّارتِهِ إلى السّجنِ؛ لأنّهُ في مدينةٍ أخرى والطّريقُ إليهِ طويلةٌ وقدْ تكونُ محفوفةً بالمخاطرِ. أكّدَ لها أنّهُ سينتظرُها في الخارجِ لحينِ أنْ تنتهيَ منْ مهمّتِها. لمْ تمانعْ شادن فهيَ دائمًا تشعرُ بأمانٍ أكثرَ عندَما تكونُ بصحبتِهِ.

كانَ على شادن أنْ تخبرَ أمَّها عنْ خبرِ اعتقالِ ماجد وعنْ عزمِها على زيارتِهِ في السّجنِ للاطمئنانِ عليهِ.

للوهلةِ الأولى، تقبّلتْ أمّ ماجد الخبرَ بارتياحٍ لأنّه طمأنَها أنّ ابنَها ما زالَ على قيدِ الحياةِ ثمَّ ما لبثتْ أنْ عادتْ إلى الخوفِ والقلقِ على مصيرِهِ منْ جديدٍ. أوصتْ شادن إحدى الجاراتِ على أمّها خلالَ غيابِها وكلُّها أملٌ أنْ تتمكّنَ منْ رؤيةِ أخيها ماجد لتطمئنَّ هيَ وأمُّها عليه.

كانتْ هذهِ أوّلَ زيارةٍ لها إلى سجنٍ... نظرتْ حولَها إلى الأسوارِ العاليةِ والأسلاكِ الشائكةِ وشعرتْ بانقباضٍ شديدٍ في قلبِها. مسكينٌ أخوها ماجد. أينَ ذهبتْ أحلامُهُ؟ ماذا سيكونُ مصيرُهُ؟

بعدَ انتظارٍ طويلٍ قيلَ لها إنّهُ لا يوجدُ لديْهِمْ أيُّ سجينٍ بهذا الاسمِ، ونصحوها بالذّهابِ إلى فرعِ وزارةِ الدّاخليةِ، وهناكَ أيضًا لمْ يؤكّدْ لها أحدٌ أيَّ معلومةٍ عنْ ماجد. لمْ تيأسْ شادن فعادتْ مرّةً أخرى إلى السّجْنِ المركزيِّ للاستفسارِ عنْ أخيها. وفي هذهِ المرّة، لمحتْ بارقةَ أملٍ عندَما سألتِ الموظّفَ عنْ ماجد بإصرارٍ ورجاءٍ، فنظرَ إلى الحاسوبِ ليبحثَ عنِ الاسمِ، وعندَما رفعَ عينيْهِ عنِ الشّاشةِ وهزَّ رأسَهُ بالنّفيِ كشفتْ نظراتُهُ أنّهُ يخفي شيئًا. كانَ التعبُ واليأسُ

قدِ استبدّا بها فوجدتْ نفسَها تبكي وتستجيرُ بهِ قائلة: "أرجوكَ، أرجوكَ، والدي تُوُفِّيَ ووالدتي سيصيبُها مسٌّ وهيَ لا تعرفُ مصيرَ ابنِها. أرجوكَ، أفرحْ قلبَها. امنحْها القليلَ منَ الأملِ. اشفِ غليلَها."

سكتَتْ برهةً ثم أردفتْ قائلةً: "أنا أدركُ أنّهُ قدْ يكونُ عندَكَ أوامرُ بعدمِ إعطاءِ أيِّ معلومةٍ لأحدٍ، ولكنْ باللهِ عليكَ... بربّكَ طمّنا عنه... أخبرْ أختَهُ وأمَّهُ المكلومةَ... هلْ هوَ حيٌّ يرزقُ؟ وأقسمُ لكَ إنّنا لنْ نفشيَ سرّكَ."

نظرَ الموظّفُ حولَهُ بقلقٍ وخوفٍ ثمَّ همسَ بسرعةٍ: "نعمْ، يوجدُ نفسُ الاسمِ عندي ولكنَّ هناكَ علامةً قربَ اسمِهِ تمنعُ منْ إعطاءِ أيِّ معلومةٍ عنهُ. أنصحُكِ بالعودةِ إلى البيتِ ونسيانِ الموضوعِ."

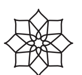
قالتْ شادن باكيةً: "ولكنّني أريدُ أنْ أزورَهُ وأطمئنَّ عليهِ."

صاحَ الموظّفُ بغضبٍ وقدِ استعادَ بعضًا منْ هيبتِهِ: "قلتُ لكِ إنّهُ غيرُ موجودٍ. إذًا كيفَ ستزورينَهُ؟"

◆◆◆

34

بداية مرحلة جديدة



تذكّرتْ شادن اليومَ الّذي عادَ فيه والدُها منَ المحلِّ حاملاً المالَ والأوراقَ الرّسميّةَ. لمْ يعرفْ وقتَها أنَّ القدرَ كانَ يتربّصُ بالمجمّعِ التّجاريّ وأنّهُ سيصبحُ بعدَ مدّةٍ قصيرةٍ كومةً منَ الرّكامِ. حمدتِ اللهَ تعالى لأنّهُمْ لمْ يخسروا كلَّ شيءٍ. تحسّستِ الحزامَ حولَ خصرِها. إنّها تعتبرهُ حزامَ الأمانِ لها ولوالدتِها وفرصةً لبدءِ حياةٍ كريمةٍ في مكانٍ آخرَ. كانتْ شادن تحافظُ عليهِ ولا تخلعُهُ إلّا للضّرورةِ أو لتأخذَ منهُ ما تحتاجُهُ منْ مالٍ.

بالنّسبةِ لها ولوالدتِها فقدْ كانتْ أهمُّ أولويّاتِهما محاولةَ طرقِ كلِّ الأبوابِ لمساعدةِ ماجد على الخروجِ منَ السّجنِ والعودةِ إلى عائلتِهِ. طلبتْ شادن منْ سميح أنْ يساعدَها في العثورِ على محامٍ ليتابعَ قضيّةَ ماجد. عرّفَها سميح على صديقِهِ المحامي عدنان.

قالَ عدنان: "سأكونُ صريحًا معكِ يا شادن. الأمرُ صعبٌ جدًّا خاصّةً في هذهِ الأوضاعِ الّتي نعيشُها، وقدْ تستمرُّ القضيّةُ لسنواتٍ طويلةٍ." وعندَما رأى التّأثّرَ واضحًا على وجهِها، تابعَ كلامَهُ بلطفٍ: "ولكنّني أعدُكِ وعدًا صادقًا أنّني لنْ أتركَ ماجد حتّى أجدَ لهُ مخرجًا منْ هذا المأزقِ، وإنْ شاءَ اللهُ سيلتمُّ شملُ عائلتِكُمْ منْ جديدٍ."

لمْ يأخذِ التّحضيرُ للسّفرِ إلى لبنان وقتًا طويلاً فلمْ يكنْ مع شادن وأمّها غيرُ بعضِ الملابسِ وبعضِ ما تبرّعتْ لهما بهِ جاراتُ سميح. كلُّ شيءٍ ضاعَ معَ الرّكامِ... ملابسُهُمْ... أثاثُهُمْ... صورُهُمُ المعلّقةُ على الحائطِ... ذكرياتُهُمْ ... كلُّ شيءٍ ذهبَ أدراجَ الرّياحِ.

أصرَّ سميح على أنْ يوصلَهُمْ إلى موقفِ السّفريّاتِ. وفي سيارةِ سميح سادَ الصّمتُ بينَهُمْ وهمْ يمرّونَ داخلَ أحياءٍ دمّرها الاقتتالُ بالكاملِ فغدتْ كأنَّها مدنُ أشباحٍ. غرقتْ شادن في صمتِها وتأمّلاتِها... هل بقيَ سكّانُها أحياءً؟ أمْ لمْ يتمكّنوا منَ الهربِ؟ إلى أينَ فرّوا بحياتِهمْ وحياةِ أطفالِهمْ؟

قالَ سميح كأنّهُ يردُّ على تساؤلِها: "بعضُهُمْ ذهبَ إلى لبنان، وآخرونَ إلى الأردنِّ أوْ إلى تركيا. بعضُهُمْ نجحَ في الوصولِ إلى أوروبا، تركوا كلَّ شيءٍ وذهبوا إلى مكانٍ يستطيعونَ العيشَ فيهِ بأمانٍ."

وأخيرًا وصلوا إلى موقفِ السّفريّاتِ. اتّفقَ سميح مع أحدِ السّائقينَ وأوصاهُ بأنْ يهتمَّ بهما ويقدّمَ لهما المساعدةَ وودّعَهُما قائلاً: "انتبها لنفسيْكُما جيّدًا، وإذا احتجتُما لأيِّ شيءٍ تذكّرا أنّني قريبٌ منكُما ومستعدٌّ لتقديمِ المساعدةِ. أعدُكُما أنّني سأتابعُ موضوعَ ماجد معَ المحامي وأعلمُكُما بأيِّ تطوّرٍ قدْ يحدثُ، وإنْ شاءَ اللهُ ستهدأُ الأمورُ، وستعودانِ إلى سوريا وسيلتمُّ شملُنا جميعًا."

دخلتْ أمّ ماجد السّيّارةَ والدّموعُ تترقرقُ في عينيْها وقالتْ: "باركَ اللهُ فيكَ يا سميح. لا نعرفُ أنا وشادن كيفَ نشكركَ أنتَ وعائلتَكَ على استضافتِنا في بيتِكُمْ، وعلى كلِّ مواقفِكَ الشّهمةِ معنا. كنتَ مثلَ ابنٍ لي وأخٍ لشادن وستظلُّ

كذلكَ دائمًا يا بنيّ."

قالَ سميح بتأثّر واضحٍ وهوَ يغلقُ بابَ السّيّارةِ: "سأفتقدُكُمْ كثيرًا يا خالة. انتبهي لنفسِكِ ولشادن."

صافحَ سميح شادن مودّعًا وقالَ هامسًا وفي عينيْهِ الكثيرُ ممّا يبوحُ بهِ قلبُهُ: "سأكونُ هنا بالانتظارِ... يا شادن."

شعرتْ شادن بوجهِها يحمرُّ خجلاً وسحبتْ يدَها بصعوبةٍ منْ يدهِ وهيَ تقولُ بارتباكٍ: "انتبهْ لنفسِكَ يا سميح. سنظلُّ على اتّصالٍ بكَ."

عندَما بدأتِ السّيَارةُ بالتّحرّكِ، نظرتْ شادن إلى الوراءِ ولوّحتْ لسميح الّذي بقيَ واقفًا يراقبُ السّيّارةَ وهيَ تختفي أمامَهُ. شعرتْ بالحزنِ على فراقِهِ والخوفِ عليهِ وتمنّتْ لوْ أنّهُ معهُمْ في السّيّارةِ. كمْ ستشتاقُ إليهِ! فقدْ تعوّدتْ أنْ تراهُ وتحدّثَهُ كلَّ يومٍ وأنْ تجدَهُ أمامَها عندَما تحتاجُ إلى مشورةٍ أو إلى مساعدةٍ. كيفَ ستتدبّرُ الأمورَ منْ دونِهِ؟ وبّختْ نفسَها مردّدةً: "أنا قويّةٌ، وأقدرُ أنْ أتدبّرَ أموري وأمورَ والدتي. نعمْ... أنا قويّةٌ وقادرةٌ."

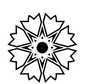
آخرُ مرّةٍ زارتْ فيها بيروت كانتْ وهيَ في التّاسعةِ منْ عمرِها. لمْ ترَ أقاربَها منذُ ذلكَ اليومِ. كيفَ سيكونُ اللّقاءُ بهمْ في هذهِ الظّروفِ؟ استرقتِ النّظرَ إلى وجهِ والدتِها فوجدتْ فيهِ أملاً وشوقًا للقاءِ أخيها بعدَ طولِ غيابٍ. كانتْ قدْ حدّثتْهُ هاتفيًّا بعدَ وفاةِ زوجِها وبكتْ طويلاً فبكى معها. استحلَفها أخوها أنْ تحضرَ لزيارتِهِ إلى أنْ تهدأَ الأمورُ قائلاً: "تعالي يا زهرة عنّا، صحيح بيتنا مش قدّ المقام، بس منحطّك إنتِ وشادن بعيوننا يا أختي." ها همْ في بدايةِ مرحلةٍ جديدةٍ منْ

حياتِهمْ... إنّهم في طريقِهِمْ إلى بيروت.

◆◆◆

35

في بيروت



بيروت كانتْ كما تتذكّرُها منْ طفولتِها... صاخبةً تضجُّ بالفوضى وبالحياةِ. همهمةُ الشّارعِ وحركةُ النّاسِ النّشطةُ على الأرصفةِ جعلَها تشعرُ أنَّ بيروتَ هيَ أحلى مدينةٍ في العالمِ. ولأوّلِ مرّةٍ منذُ مدّةٍ طويلةٍ أحسّتْ بالرّاحةِ والأمانِ. كطفلةٍ صغيرةٍ صارتْ تشيرُ إلى أشياءَ تلفتُ نظرَها في الشّارعِ قائلةً: "انظري يا أمّي! ما أحلى هذا المكانَ! انظري إلى عجقة السّيّاراتِ! تُرى أينَ البحرُ؟ كمِ اشتقتُ للمشيِ على الكورنيشِ!"

هزّتْ والدتُها رأسَها مسايرةً لها وسحابةُ الحزنِ لا تغادرُ عينيْها ولوْ للحظةٍ.

أوصلَهُما السّائقُ إلى أوّلِ المخيّمِ وفاءً لوعدٍ قطعَهُ لسميح الّذي دفعَ لهُ مبلغًا إضافيًّا ليأخذَهُما مباشرةً إلى المكانِ الّذي تقصدانِهِ. وقفتا للحظاتٍ تنظرانِ حولَهُما... حتّى صورُ الحربِ في سوريا لمْ تستطعْ أنْ تخفيَ كآبةَ المخيّمِ حيثُ يعيشُ خالُها. مشتا في أزقّةِ المخيّمِ الضيّقةِ تسألانِ المارّةَ عنْ بيتِهِ. وبسرعةٍ دلّهُما أحدُهُمْ على البيتِ. كانَ لقاءُ أمّ ماجد بأخيها توفيق لقاءً مؤثّرًا أبكى الجميعَ. نفّسَتْ أمُّ ماجد عنْ حزنِها ولوعةِ قلبِها لفقدانِ زوجِها، وأخبرتْهُ عنِ اختفاءِ ابنِها ماجد وانتهاءِ أمرِهِ في السّجنِ.

جلسَ أفرادُ العائلةِ في غرفةِ الجلوسِ يحاولُ كلٌّ منهُمْ أنْ يواسيَ أمّ ماجد بما تسنّى له منْ عباراتٍ تقليديّةٍ تريحُ السّامعينَ: "الله يرحمه... اللي خلّف ما مات... قريبًا سيطلقُ سراحُ ماجد وسيلتمُّ شملُكمْ من جديدٍ."

تعرّفتْ شادن على أولادِ خالِها مرّةً ثانيةً بعدَ طولِ فراقٍ، لقدْ زادَ عددُهُمْ منذُ آخرِ زيارةٍ كانتْ قدْ رأتْهُمْ فيها. عندَ خالِها خمسةُ أطفالٍ: ثلاثُ بناتٍ وولدانِ. أكبرُ البناتِ هي سنيّة وعمرُها خمسَ عشرةَ سنةً، تليها رحمة وعمرُها ثلاثَ عشرةَ سنةً ثمَّ ميسون ذاتُ السّنواتِ العشرِ، أمّا الولدان: رامي ومصطفى فكانَ عمراهُما سبعَ سنواتٍ وخمسَ سنواتٍ على التّرتيبِ.

كانَ أكثرَ ما تذكرُهُ منْ زياراتِها السّابقةِ لبيتِ خالِها وهيَ طفلةٌ متعةُ اللّعبِ مع بناتِ خالِها في أزقّةِ المخيّمِ، والمشوارُ في عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ إلى الكورنيشِ حيثُ أكلُ الذّرةِ المشويّةِ والبوظةِ والهربُ منْ رذاذِ الموجِ عندَما يكونُ البحرُ هائجًا. وتذكرُ جيّدًا أيضًا التّسكّعَ في شارعِ الحمرا وأكلَ سندويشاتِ الصّاجِ وهيَ تنظرُ إلى الملابسِ الجميلةِ في واجهةِ المحلّاتِ.

نظرتْ حولَها وصُدِمَتْ منْ بساطةِ بيتِ خالِها الّذي ما زالَ على حالِه منذُ سنواتٍ خَلَتْ. بيتُهُمْ في سوريا كانَ متواضعًا، ولكنّهُ بالمقارنةِ مع بيتِ خالِها يمكنُ اعتبارُهُ قصرًا. فكّرتْ: أينَ سيناموَنَ؟ وكيفَ ستكونُ الحياةُ في هذا البيتِ المكتظِّ بسكّانِهِ؟

أعطاهُمُ الخالُ غرفةً صغيرةً أضيفتْ لاحقًا إلى البيتِ بطريقةٍ عشوائيّةٍ، تكادُ لاتتسّعُ إلّا لفرشةٍ واحدةٍ على الأرضِ. قالتْ زوجةُ خالِها، أمّ رامي: "تفضّلا،

تفضّلا. الغرفة مش قدّ المقام. كانتْ هذهِ الغرفةُ لسنيّة؛ لأنّها الأكبرُ ولكنْ أنتمْ أولى منْها الآنَ. سنيّة ستنامُ مع إخوتِها. أليسَ كذلكَ يا سنيّة؟" رمقتْهُمْ سنيّة بنظرةٍ فشلتْ في أنْ تخفيَ فيها استياءَها منْ فقدانِها لغرفتِها الخاصّةِ الّتي جاهدتْ طويلاً لتحصلَ عليْها.

◆◆◆

36
في المخيّم



اغتنمتْ شادن أوّلَ فرصةٍ سنحتْ لها لتحصلَ على رقمِ هاتفٍ لبنانيٍّ وتشحنَهُ. أرسلتِ الرّقمَ لسميح الّذي اتّصلَ بها فورًا، وتكلّمَ مع والدتِها مؤكّدًا لها أنّهُ يتابعُ موضوعَ ماجد، وسيتّصلُ بهما في حالِ سمعَ بأيِّ جديدٍ.

كانتْ في شوقٍ لتبادلِ الأحاديثِ معهُ على الهاتفِ كما تعوّدتْ، ولكنْ... أينَ ومتى؟ فلا يوجدُ في بيتِ خالِها أيُّ مكانٍ يمكنُ أنْ يشعرَ المرءُ فيهِ بخصوصيّتِهِ؛ لذلكَ اكتفتْ بتبادلِ الرّسائلِ النّصّيّةِ معهُ.

بعدَ سنواتٍ منْ غيابِها عنْ عائلةِ خالِها، وجدتْ شادن أنَّ سنيّة، الأقربَ عمرًا لها، تغيّرتْ جوهرًا وقالبًا. فبينَما تذكرُها طفلةً بجدائلَ تركضُ وتلعبُ معَها في الأزقّةِ أصبحتِ الآنَ امرأةً صغيرةً أحلامُها لا تتعدّى حاكورةَ المنزلِ البسيطةَ. تركتْ سنيّة المدرسةَ بعدَ الصّفِّ الخامسِ؛ لأنَّ تحصيلَها الدّراسيَّ لمْ يكنْ جيّدًا، وبقيتْ في البيتِ تساعدُ والدتَها في تربيةِ إخوتِها. وعندَما سألتْها شادن عنْ سببِ ذلكَ ضحكتْ وقالتْ: "تكفيني الدّراسةُ للصّفِّ الخامسِ. البنتُ مصيرُها أنْ تتزوّجَ وتقعدَ في البيتِ."

كانتْ سنيّة تتمنّى منْ صميمِ قلبِها أن تكونَ صديقةً لشادن، ولكنَّ شادن

وجدتْ صعوبةً في تبادلِ الحديثِ معها لعدمِ وجودِ اهتماماتٍ مشتركةٍ بينَهُما. ومع مرورِ الأيّامِ، بدأتْ شادن تشعرُ أنَّ سنيّة لا تطيقُ وجودَها وأمَّها في البيتِ. سمعتْها مرّةً تحدّثُ صديقةً حضرتْ لزيارتِها: "وكأنَّ وضعَنا يحتملُ وجودَ شخصيْنِ إضافيّيْنِ نسكنُهُما معنا ونطعمُهُما."

حزَّ في نفسِ شادن ما سمعتْهُ منْ سنيّة، وعندَما ذهبتْ إلى غرفتِها ليلاً، أخرجتْ مبلغًا منَ المالِ منَ الحزامِ وهمستْ لوالدتِها أنْ تعطيَهُ لخالِها ليساعدَ في تكاليفِ إقامتِهِما دونَ أنْ تخبرَها بما سمعتْهُ منْ سنيّة.

كانتْ قدْ تحدّثتْ مع والدتِها وهما في بيتِ سميح عنْ خططِهِما للمستقبلِ حيثُ اتّفقتا على أنَّ المالَ الّذي بحوزتِهِما هوَ كلُّ ما تملكانِ في هذا العالمِ، وعليهِما أنْ تحافظا عليهِ إلى أنْ يعودَ ماجد ويتمكّنوا جميعًا من أنْ يبدأوا حياتَهُمْ منْ جديدٍ. أيقنتْ شادن أنَّ عليها أنْ تجدَ عملاً في القريبِ العاجلِ ليكفيَها وأمَّها تكاليفَ الحياةِ اليوميّةِ. ولكنْ أيُّ عملٍ هذا الذي يمكنُ أنْ تجدَهُ؟

يبدو أنَّ موضوعَ السّويد قدْ أصبحَ حلمًا بعيدَ المنالِ، ففي آخرِ رسالةٍ نصيّةٍ أكّدَ لها عمُّها أنّهُ ما يزالُ يحاولُ، ولكنَّ الموضوعَ سيستغرقُ وقتًا طويلاً. بعدَ أسبوعٍ منَ التّفكيرِ أعلنتْ شادن عنْ رغبتِها في العملِ.

قالَ خالُها محتجًّا: "لا حاجةَ للعملِ يا ابنةَ أختي. عندَنا ما يكفينا. نعيشُ معًا على كسرةِ خبزٍ."

ولكنَّ أمّ رامي قالتْ بحدّةٍ: "طبعًا... تعملُ. الشّغلُ ليسَ عيبًا. إنّها صبيّةٌ ومتعلّمةٌ ويجبُ أنْ تعتمدَ على نفسِها. لاتؤاخذوني. لا يوجدُ أحدٌ يستطيعُ أن

يعيلَكُما."

احتجَّ الخالُ قائلاً: "اسكتي يا أمّ رامي! خالها رقبته سدّادة."

ابتسمتْ أمّ رامي ابتسامةً خبيثةً وتمتمتْ: "خالها يشيل اللي عنده أوّلا."

بعدَ عدّةِ أيّامٍ، قالتْ أمّ رامي: "عندي خبرٌ سيفرحُكِ يا شادن. يملكُ أبو فارس، قريبُ جارتي صفيّة، نوفوتيه في شارعٍ متفرّعٍ منْ شارعِ الحمرا، ويبحثُ عنْ فتاةٍ لتعملَ بائعةً في المحلِّ. ولكنْ عليَّ أنْ ألفتَ نظرَكِ إلى أنَّ عملَكِ سيكونُ غيرَ قانونيٍّ لأنَّ السّوريّينَ لا يُسمحُ لهمْ بالعملِ دونَ تصريحٍ خاصٍّ منَ السّلطاتِ كما أنّكِ لمْ تبلغي السّنَّ القانونيّةَ للعملِ وهوَ ثمانيَ عشرةَ سنةً. لقدْ أكّدَ لي أبو فارس أنّهُ سيتدبّرُ الأمرَ إذا أثبتِّ جدارتَكِ. المبلغُ الّذي سيدفعُهُ ليسَ بكثيرٍ ولكنّهُ أفضلُ منْ لا شيءٍ. سآخذُكِ إلى محلّهِ غدًا إنْ شاءَ اللهُ. ما رأيكِ؟"

أصرّتْ والدةُ شادن على مرافقتِهما قائلةً: "يجبُ أنْ أرى المكانَ الّذي ستعملُ فيه ابنتي وأطمئنَّ عليها."

كانَ عليهمْ أنْ يركبوا "سرفيسين" أي سيّارتيْ أجرةٍ ليصلوا إلى شارعِ الحمرا، وهناكَ استمرّوا مشيًا على الأقدامِ إلى أنْ وصلوا عبرَ أحدِ الشّوارعِ المتفرّعةِ إلى محلٍّ صغيرٍ يبيعُ الملابسَ القطنيّةَ والإكسسواراتِ.

تفحّصَ أبو فارس شادن قائلاً: "هلْ أنتِ الموظّفةُ الجديدةُ؟ تبدينَ صغيرةً. بسيطة... سنتدبّرُ الأمرَ. لا أعدُكِ بوظيفةٍ ثابتةٍ قبلَ أنْ أرى إنْ كنتِ تستطيعينَ إدارةَ المحلِّ وحدَكِ. سأعطيكِ فرصةَ أسبوعيْنِ للتّدرّبِ دونَ راتبٍ وبعدَها

سأقرّرُ." بسرعةٍ ودونَ أيِّ تردّدٍ وجدتْ شادن نفسَها تقولُ بصوتٍ يوحي بالثّقةِ بالنّفسِ: "يا أستاذُ، أسبوعُ تدريبٍ واحدٌ دونَ راتبٍ يكفي وسترى كيفَ سأعملُ بجدٍّ."

ضحكَ الرّجلُ طويلاً وقالَ مخاطبًا أمّ رامي: "فتاةٌ نبيهةٌ، تدافعُ عنْ حقِّها، يعجبُني ذلكَ. موافقٌ سأدرّبُكِ لمدّةِ أسبوعٍ واحدٍ فقط دونَ راتبٍ، وبعدَها أُقرّرُ."

عملتْ شادن بنشاطٍ وجدٍّ في محلِّ أبي فارس، وكما وعدتْهُ أثبتَتْ نفسَها وتمكّنتْ منْ أنْ تديرَ المحلَّ وتتعاملَ معَ الزّبائنِ وحدَها في فترةٍ زمنيّةٍ وجيزةٍ.

في البدايةِ، قامتْ بتنظيفِ أرضيّةِ المحلِّ بالماءِ والصّابونِ حتّى ظهرَ لونُ البلاطِ الأصليِّ، ثمَّ أعادتْ ترتيبَ الملابسِ على الرّفوفِ وغيّرتْ ديكورَ نافذةِ العرضِ في الواجهةِ؛ فرتّبتِ البضائعَ بشكلٍ فنيٍّ جميلٍ. لمْ يصدّقْ أبو فارس ما رأى وقرّرَ أنْ يعطيَها زيادةً على الراتبِ الّذي اتّفقَ معَها عليهِ.

قالتْ لهُ شادن: "يا عمّ أبا فارس، كانَ والدي- رحمهُ اللهُ- يديرُ محلّاً للأقمشةِ في سوريا وكانَ يهتمُّ بنظافةِ وترتيبِ المحلِّ وبطريقةِ عرضِ الأقمشةِ وكان دائمًا يقولُ إنَّ العينَ هيَ الّتي تشتري."

ومع أنَّ المواصلاتِ كانتْ متعبةً وساعاتِ الدّوامِ طويلةً إلّا أنّها شعرتْ بالرّضا والاستقلاليّةِ.

اشترتْ بأوّلِ راتبٍ استلمتْهُ منْ أبي فارس ملابسَ لها ولوالدتِها ودفاترَ تلوينٍ

لرامي ومصطفى، وحلوى لبيتِ خالِها حُلوانَ أوّلِ مبلغٍ تقبضُهُ منْ عملِها.

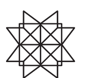
في المساءِ قبلَ النّومِ، جلستْ مع والدتِها على فرشتِهِما في الغرفةِ الصّغيرةِ. وضعتْ شادن رأسَها على صدرِ والدتِها وضمّتْها كما كانتْ تفعلُ وهيَ طفلةٌ. قالتْ والدتُها وهيَ تمسّدُ شعرَها: "حبيبةُ قلبي... أنتِ نورُ عينيَّ يا شادن... أنتِ السّببُ الّذي منْ أجلِهِ أستيقظُ كلَّ صباحٍ."

ضمّتْ شادن أمَّها بقوّةٍ أكبرَ وقالتْ: "أحبّكِ يا أمّي." وعندَما رأتِ الدّموعَ تترقرقُ في عينيْ والدتِها قالتْ ممازحةً: "ماما... حبيبتي، بلا ما نقلبها دراما." وبدأتْ تحكي لها قصصًا مضحكةً حصلتْ لها مع بعضِ الزّبائنِ. وعندَما غلبَهُما النّعاسُ واستعدّتا للنّومِ، همستْ أمّ ماجد لنفسِها وهيَ تتثاءبُ وتديرُ وجهَها نحوَ الحائطِ: "سأبحثُ أنا أيضًا عنْ عملٍ يا حبيبتي، لنْ أتركَ الحِمْلَ كلَّهُ عليكِ."

◆◆◆

37

حركة بسيطة



جلسَ ماجد في زنزانةِ الحبسِ الانفراديِّ يراقبُ النّملَ وهوَ يمشي في خطٍّ مستقيمٍ عبرَ الغرفةِ مثلَ العسكرِ. وجودُ النّملِ في زنزانتِهِ خفّفَ عنهُ الشّعورَ القاتلَ بالوحدةِ قليلاً. كانَ يحتفظُ لهُ ببعضِ فتاتِ الخبزِ يبعثرُهُ هنا وهناكَ ويحسبُ الوقتَ الّذي يستغرقُهُ النّملُ ليكتشفَ مكانَ الفتاتِ المبعثرِ على أرضيّةِ الزّنزانةِ الباردةِ.

مع مرورِ الأيّامِ، صارَ يتحدّثُ مع النّملِ ويحاولُ تمضيةَ الوقتِ بمراقبةِ حركتِهِ النّشطةِ الّتي لا تهدأُ. يغيّرُ مسارَهُ بحركةٍ بسيطةٍ فيقطعُ بإصبعِهِ المبلولِ طريقَهُ. حركةٌ بسيطةٌ تبعدُهُ عنْ مسارِهِ تمامًا مثلَ الإنسانِ... تمامًا مثلَ ما حصلَ معهُ...

في هذا السّجْنِ الموحشِ، كانَ لا يميّزُ اللّيلَ منَ النّهارِ. الضّوءُ الوحيدُ في الغرفةِ كانَ يتسلّلُ منْ فتحةِ الطّعامِ في أسفلِ البابِ الحديديِّ. يمرُّ الوقتُ بطيئًا وكأنّهُ صخرةٌ كبيرةٌ لا تتزحزحُ، فيُمضي ساعاتِ السّجنِ الطّويلةَ في التّفكيرِ والتّأمّلِ: كمْ منَ الوقتِ سيبقى سجينًا؟ هلْ سيرى عائلتَهُ مرّةً ثانيةً؟ هلْ ستسنحُ لهُ الفرصةُ ليعيشَ حياتَهُ بشكلٍ طبيعيٍّ؟ هلْ سيُفرجُ عنهُ مثلَ زميلِهِ خليل؟ هلْ سيرى النّورَ مرّةً أخرى؟

هلْ حافظَ خليل على وعدِهِ واتّصلَ بشادن وأخبرَها عنْ مكانِ وجودِهِ؟ آآآآه... كمِ اشتاقَ إلى حضنِ أمّهِ ودعائِها لهُ كلّما دخلَ أوْ خرجَ منَ البيتِ... كمِ اشتاقَ إلى والدِهِ وإلى حديثِهِما الدّافئِ... كمِ اشتاقَ إلى شادن وإلى مناكفتِهِما الدّائمةِ. كمْ يتمنّى لوْ يلتمُّ شملُ عائلتِهِ مرّةً ثانيةً ولوْ للحظةٍ ليضمَّ والدتَهُ إلى صدرِهِ ويقبّلَ رأسَ والدِهِ ويمازحَ شادن كعادتِهِ ويتحدّثَ معَها.

تمدّدَ على البساطِ القذرِ في زاويةِ الغرفةِ المعتمةِ. لمْ تعدْ رائحةُ البولِ والرّطوبةِ تزعجهُ. تحسّسَ الكدماتِ المؤلمةَ على ذراعيْهِ ورأسِهِ... مسحَ بظاهرِ كفِّهِ عينَهُ المتورّمةَ ثمَّ خبّأَ رأسَهُ تحتَ ذراعِهِ وأطلقَ العنانَ لمشاعرِ الحزنِ والألمِ.

أمّا سميح فلمْ يفقدِ الأملَ في الحصولِ على أخبارٍ عنْ ماجد، وكان دائمَ الاتّصالِ بالمحامي عدنان. وفي يومٍ منَ الأيّامِ، اتّصلَ بهِ المحامي وأخبرَهُ أنَّ قائمةً منْ أسماءِ المساجينِ الّذينَ صدرتْ في حقِّهِمْ أحكامٌ قضائيّةٌ قدْ أعلنتْ وتتضمنُ اسمَ ماجد وأضافَ قائلاً: "يبدو أنَّ المحكمةَ رأَفَتْ بماجد بعدَ أنْ تأكّدَ لها هروبُهُ منَ المجموعةِ المسلّحةِ قبلَ القبضِ عليهِ؛ لذا فقدْ حُكِمَ عليهِ بالسّجنِ خمسَ سنواتٍ فقط."

صاحَ سميح: "خمسُ سنواتٍ!! وتقولُ فقط!" أجابَ المحامي: "اشكرْ ربّكَ يا سميح. هناكَ منْ حُكِمَ عليهِ بالسّجنِ عشرينَ سنةً أوْ أكثرَ. وهناكَ منْ فُقِدَ أثرُهُمْ ولا يعرفُ أهلُهُمْ عنْهُمْ شيئًا."

أخيرًا ظهرَ خبرٌ رسميٌّ عنْ ماجد، وتحدّدتْ فترةُ اعتقالِهِ بمدّةٍ زمنيّةٍ معروفةٍ، وأصبحَ لدى سميح أخبارٌ عنْ ماجد ليخبرَ شادن ووالدتَها بها. سيتّصلُ بهما في

أقربِ فرصةٍ وسيبذلُ قصارى جهدِهِ ليوصلَ رسالةً إلى ماجد عنْ طريقِ المحامي ليطلعَهُ على ما حصل لعائلتِهِ في فترةِ غيابِهِ عنهُمْ؛ فليسَ منَ العدلِ أنْ يجهلَ حقيقةَ ماحصلَ لأهلِهِ وأينَ استقرَّ بهِمُ الأمرُ.

◆◆◆

38

الخيّاطة بشرى



بعدَ أنِ اتّخذتْ أمّ ماجد قرارًا حاسمًا بالبحثِ عنْ عملٍ طلبتْ منْ زوجةِ أخيها أنْ تساعدَها في سعيها هذا. في بادئِ الأمرِ استغربتْ أمُّ رامي وصاحتْ باستهجانٍ: "أنتِ يا أمّ ماجد تطلبينَ عملاً؟! بربّكِ ماذا يمكنُ أنْ تعمَلي؟ خدّامةً في البيوتِ؟!!"

- "نعم، إذا احتاجَ الأمرُ ذلكَ. الشّغل مش عيب، لا أريدُ أنْ أكونَ أنا وابنتي عالةً على أحدٍ. أنا خيّاطةٌ ماهرةٌ. كنتُ أخيطُ كلَّ ملابسي وملابسِ ابنتي. قدْ أجدُ عملاً في الخياطة؟"

- "خيّاطة؟ كيفَ نسيتُ؟ آه... تذكّرتُ! قمتِ بخياطةِ فستانٍ لسنيّة، كانَ منْ أجملِ ما لبستْ."

- "عزيزتي أمّ رامي، تذكّري أيضًا أنّهُ عندَما أحصلُ على عملٍ سأتمكّنُ منَ المشاركةِ في مصاريفِ البيتِ؛ فأنا أدركُ المسؤوليّةَ الكبيرةَ الملقاةَ على كتفِ أخي ولا أريدُ أنْ أزيدَها ثقلاً."

- "واللهِ أنتِ ستّ الفاهمين يا أمّ ماجد. دعيني أسألُ الخيّاطةَ بشرى في المخيّمِ لعلّها تحتاجُ إلى مُساعِدَةٍ لها أو تعرفُ أحدًا بحاجةٍ إلى خيّاطةٍ ماهرةٍ مثلِكِ."

- "باركَ اللهُ فيكِ يا أمّ رامي."

- "ولو يا أمّ ماجد. أنتِ مثل أختي وأكثر. ما رأيكِ أن تساعديني؟ طلب منّي أبو رامي أكلة ورق دوالي؟ راح أحضّر التتبيلة."

- "وأنا سأقوّرُ الكوسا، وسأساعدُكِ في لفِّ ورقِ الدّوالي."

انشغلتِ الاثنتانِ في المطبخِ تتمازحانِ وتتبادلانِ الأخبارَ والقصصَ، ولأوّلِ مرّةٍ شعرتْ زهرة أنّها قريبةٌ منْ زوجةِ أخيها، وتمنّتْ أنْ يدومَ الحالُ فهيَ تحتاجُ إلى صديقةٍ تأنسُ إليْها.

منْ حسنِ حظِّ زهرة أنَّ الخيّاطةَ بشرى كانتْ بحاجةٍ إلى مساعدةٍ لأنَّ موسمَ الأعراسِ على الأبوابِ. اتّفقتْ زهرة معها على أنْ تعملَ عندَها ثلاثةَ أيّامٍ في الأسبوعِ.

تسكنُ بشرى عندَ أطرافِ المخيّمِ أي على بُعْدِ عشرِ دقائقَ مشيًا على الأقدامِ منْ بيتِ أخيها. كانَ المشيُ في أزقّةِ المخيّمِ للوصولِ إلى بيتِ الخيّاطةِ بشرى يُخرجُها منْ وحدتِها ويجعلُها ترى بأمِّ عينيْها حقيقةَ العيشِ في مخيّمٍ للّاجئينَ...

أولادٌ يلعبونَ في الأزقّةِ... شبابٌ لا يجدونَ عملاً يتسكّعونَ في الشّوارعِ وهمْ ينفثونَ دخانَ السّجائرِ ويتعاركونَ على أتفهِ الأسبابِ. ضجيجٌ يعمُّ الأزقّةَ الضّيّقةَ المتعرّجةَ، وصوتُ حديثِ الجاراتِ ينتقلُ منْ فوقِ أسطحِ البيوتِ الإسمنتيّةِ المتلاصقةِ. روائحُ منتشرةٌ تختلطُ فيها رائحةُ الخبزِ الطّازجِ المنبعثةُ منْ مخبزٍ قريبٍ برائحةِ المجاري... النّفاياتُ تتراكمُ في الأزقّةِ... إنّها صورةٌ واقعيّةٌ مؤلمةٌ

لحياةِ النّاسِ في المخيّمِ. مضى على هذهِ الحالةِ عقودٌ منَ الزّمنِ دونَ تغييرٍ يُذكرُ. أقنعَ سكّانُ المخيّمِ أنفسَهُمْ بأنّهُمْ يعيشونَ في وضعٍ مؤقّتٍ ولا يزالونَ منذُ عقودٍ يرزحونَ تحتَ هذا الوضعِ المتردّي ويترقّبونَ يومَ العودةِ.

مصيرُ حياةِ اللّجوءِ مصيرٌ تجنّبَتْهُ زهرة عندَما تزوّجتْ منْ سوريٍّ وحصلتْ على الجنسيّةِ السّوريّةِ وخرجتْ منْ مخيّمِ اليرموكِ لتعيشَ مع زوجِها. ولكنْ ها هيَ الآنَ تمرُّ بنفسِ التّجربةِ المريرةِ فقدْ وجدتْ نفسَها وابنتَها لاجئتيْنِ تعيشانِ في مخيّمٍ للّاجئينَ... وكأنّهُ قَدَرٌ محتومٌ عليها أنْ تعيشَ تحتَ وطأةِ اللّجوءِ... لجوءٌ تلوَ لجوءٍ...

كانتْ تتطلّعُ إلى الجلساتِ الحميمةِ مع أخيها توفيق الّذي كانَ يناديها حالَ عودتِهِ منْ عملِهِ لتجلسَ معهُ وبالأخصِّ عندَما تكونُ هناكَ مناسبةُ فرحٍ أو خطبةٍ أو مولدٍ تذهبُ إليها زوجتُهُ والأولادُ فيصفو لهما الجوُّ. تحضّرُ إبريقًا من الشّاي الشّديدِ الحلاوةِ معَ الميراميةِ كما يحبّهُ... تتحدّثُ معهُ عنْ طفولتِهِما فيتذكّرانِ الأيّامَ الحلوةَ والمرّةَ الّتي مرّتْ بهما. تبوحُ لهُ باشتياقِها لزوجِها وشعورِها بالوحدةِ وخوفِها على وحيدِها ماجد، فيخفّفُ عنها قدرَ استطاعتِهِ.

أمّا في بيتِ الخيّاطةِ بشرى، فقدْ كانتْ زهرة تدخلُ عالمًا آخرَ حيثُ تجتمعُ بنساءٍ منَ المخيّمِ وتسمعُ قصصًا وحكاياتٍ عنِ المشاكلِ الأُسريّةِ والأسرارِ العائليّةِ وكلِّ أخبارِ جيرانِهنَّ فيمرُّ الوقتُ سريعًا. تعودُ إلى البيتِ وتلتقي بشادن فتجلسانِ قبلَ النّومِ على طرفِ الفرشةِ كصديقتيْنِ حميمتيْنِ تتبادلانِ الأخبارَ والقصصَ.

أخبرتْ شادن والدتَها عنْ صديقتِها الجديدةِ الّتي تعملُ في المحلِّ المقابلِ لمحلِّ

أبي فارس.

قالتْ شادن: "اسمُها تيريزا، وهيَ لطيفةٌ جدًّا يا أمّي. تحبُّ الضّحكَ والمزاحَ وقلبُها طيّبٌ. أذهبُ معَها إلى مقهىً قريبٍ في فترةِ الغداءِ."

أكملتْ شادن حديثَها قائلةً: "تيريزا صريحةٌ، ومثلَ كثيرٍ منَ اللّبنانياتِ تهتمُّ بمظهرِها وأناقتِها. بالأمسِ قالتْ لي: لمَ لا تهتمّينَ بمظهرِكِ أكثرَ يا شادن؟ يجبُ أنْ تقصّي شعرَكِ وتضعي المكياجَ وطلاءَ الأظافرِ مثلي."

تضحكُ أمّ ماجد قائلةً: " قلبها فاضي رفيقتك... بس لو تعرف حالنا الأول."

قالتْ شادن بنظرةٍ حالمةٍ: "ولكنْ ما رأيكِ لوْ أقصُّ شعري قَصّةً حلوةً؟ والله جاي على بالي يا أمّي!"

تنهّدتْ أمّ ماجد وهيَ تقولُ: "ولمَ لا يا ابنتي. أنتِ صبيّةٌ وحلوةٌ. لكِ الحقُّ في أنْ تفرحي بشبابِكِ وتهتمّي بمظهرِكِ." ضحكتْ شادن وطبعتْ قبلةً على جبينِ والدتِها ثمَّ ما لبثتْ أمّ رامي أنْ قاطعتْ حديثَهُما منَ الغرفةِ المجاورةِ قائلةً: "على شو عم تتوشوشوا وتضحكوا؟ ضحكونا معكم."

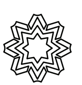
قالَ أبو رامي:" اتركيهم بحالهم يا أم ّرامي."

نظرتْ شادن إلى أمّها وهمستْ بحزنٍ: "متى يا أمّي سيصبحُ لنا بيتٌ مستقلٌّ نسكنُ فيهِ؟ متى؟"

◆◆◆

39

أخبار شبه جيّدة



مرّتِ الأيّامُ وتأقلمتْ شادن ووالدتُها مع روتينِ الحياةِ اليوميّةِ الجديدةِ، ولكنّهما لمْ تشعرا أبدًا بالاستقرارِ. كانتا تتابعانِ بحزنٍ وخوفٍ أخبارَ القتالِ في سوريا، وصورَ القتلِ والدّمارِ والأهالي المشرّدينَ منْ بيوتِهِمْ، واللّاجئينَ المخاطرينَ بحياتِهِمْ وحياةِ أولادِهِمْ في البحارِ ليصلوا إلى أوروبا بحثًا عنِ الأمانِ.

ذاتَ يومٍ، اتّصلَ سميح بشادن في غيرِ الموعدِ المتّفقِ عليهِ بينَهُما. كانَ عندَها زبونٌ في المحلِّ فلمْ تتمكّنْ من الرّدِّ عليهِ. انشغلَ بالُها كثيرًا، وعندَما خرجَ الزّبونُ اتّصلتْ فورًا بهِ قائلةً: "طمئنّي يا سميح. ليسَ منْ عادتِكَ التّحدَثُ معي في مثلِ هذا الوقتِ."

أجابَ سميح: "عندي أخبارٌ عنْ ماجد."

صاحتْ شادن: "ماجد! باللهِ عليكَ، قلْ لي إنّهُ خرجَ منَ السّجنِ."

ردَّ سميح بصوتٍ متأثّرٍ: "للأسفِ، لا يا شادن... لمْ يخرجْ، ولكنْ على الأقلِ نعرفُ أينَ هوَ ومتى سيخرجُ. وصلني خبرٌ منَ المحامي أنّهُ صدرَ حكمٌ رسميٌّ بحقِّ ماجد، وقدْ رأفتِ المحكمةُ بهِ لأنّهُ كانَ في حالةِ هروبٍ من الجماعةِ المسلّحةِ عندَما قُبضَ عليهِ."

صاحتْ شادن: "أخبرني الحقيقةَ ياسميح؟ كمْ سنةً حُكِمَ عليهِ؟"

صمتَ سميح قليلاً ثمَّ قالَ: "خمسُ سنواتٍ."

انفجرتْ شادن بالبكاءِ وهيَ تقولُ: "خمسُ سنواتٍ... مسكينٌ يا ماجد! هذا كثيرٌ!"

- "اهدئي يا شادن واحمدي ربَّكِ أنّهُ بخيرٍ. الجيّدُ في الموضوعِ أنَّ حكمًا صدرَ بحقّهِ ولمْ يعدْ مفقودًا. يكفي أنَّ اسمَهُ في السّجلّاتِ الرّسميّةِ. سيمرُّ الوقتُ وقدْ تتغيّرُ الأمورُ ويخرجُ قبلَ انتهاءِ مدّةِ محكوميّتهِ بعفوٍ خاصٍّ."

- "إنْ شاءَ اللهُ... ولكنْ هلْ منَ الممكنِ أنْ نزورَهُ الآنَ؟"

- "للأسفِ يا شادن، الزّيارةُ ممنوعةٌ بتاتًا بحجّةِ الأوضاعِ المتوتّرةِ في البلادِ."

مرَّ هذا اليومُ بطيئًا على شادن. وما إنِ انتهى دوامُها حتّى أسرعتْ إلى البيتِ لتخبرَ أمّها بما حدثَ. فتحَ هذا الخبرُ الجروحَ مرّةً ثانيةً؛ فبكتْ أمّ ماجد بلوعةٍ وألمٍ وانزوتْ في غرفتِها وامتنعتْ عنْ تناولِ الطّعامِ. حاولَ أخوها أنْ يخفّفَ عنْها قائلاً: "سيمرُّ الوقتُ بسرعةٍ يا أختي، وسيخرجُ ماجد منَ السّجنِ لتعودوا إلى سوريا وتبنوا حياةً جديدةً هناكَ، وإنْ شاءَ اللهُ تكونُ الأمورُ قدْ هدأتْ والحربُ قدِ انتهتْ."

قالَ مصطفى الصّغيرُ الّذي كانَ يتابعُ الحديثَ: "يعني راح تبقوا ساكنين عنا كمان خمس سنين؟"

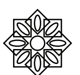
ضحكتْ ميسون ونكزتْ أختَها رحمة. صاحَ أبو رامي: "عيب يا مصطفى!!"

قالتْ شادن وفي حلقِها غصّةً: "لا يا مصطفى. أكيد لا... إنْ شاءَ اللهُ سيكونُ لنا بيتٌ خاصٌّ بنا، وستأتونَ أنتمْ لزيارتِنا."

◆◆◆

40

تيريزا



كانتْ شادن تستمتعُ برفقةِ تيريزا مع أنّها تختلفُ عنها بشخصيّتِها وبنظرتِها إلى الحياةِ. وقدْ يكونُ هذا هوَ سببَ اتّفاقِهما... يقالُ إنَّ الأضدادَ تتجاذبُ. تأخذُ تيريزا الحياةَ ببساطةٍ وعفويّةٍ. هيَ كثيرةُ الكلامِ، تقولُ كلَّ ما يخطرُ ببالِها، طيّبةُ القلبِ ولا تحملُ ضغينةً لأحدٍ. دائمًا في جعبتِها أخبارٌ مسلّيةٌ وطريفةٌ. كثيراً ما كانتْ تحكي لها عنْ صديقِها سليم الذي كانتْ تتخانقُ معهُ بشكلٍ يوميٍّ على أتفهِ الأسبابِ وتشكوهُ لشادن. فتقولُ لها: "لماذا إذًا تبقيْنَ معهُ؟" تضحكُ تيريزا وتقولُ باستغرابٍ: "لأنّنا نحبُّ بعضَنا طبعًا. وقدْ وعدَني بالزّواجِ بعدَ أنْ يجدَ عملاً."

في أحدِ الأيّامِ بعدَ أنْ تحدّثتْ تيريزا لشادن مطوّلًا عنْ خطيبِها سليم وعنْ خططِهما للمستقبلِ، انتبهتْ لنفسِها وقالتْ ضاحكةً: "اعذريني يا شادن، أحيانًا أنسى نفسي ولا أتوقّفُ عنِ الكلامِ. أخبريني أنتِ عنْ نفسِكِ. هلْ هناكَ شخصٌ معجبٌ بكِ أوْ هلْ أنتِ معجبةٌ بأحدٍ؟ قولي لي، أنا مثلُ أختكِ الكبيرةِ."

شعرتْ شادن بالخجلِ وقالتْ: "لا... لا يوجدُ أحدٌ في حياتي. ما زلتُ صغيرةً على مثلِ هذهِ الأمورِ، وحياتُنا صعبةٌ كما تريْنَ."

ضحكتْ تيريزا وقالتْ: "احمرارُ وجهِكِ فضحَ أمرَكِ يا عزيزتي. ما اسمُ هذا الشّخصِ الّذي ذكرتِهِ أمامي أكثرَ منْ مرّةٍ؟ آه سمير... ربيح... سميح؟"

ضحكتْ شادن وقالتْ: "سميح؟! لا... لا... إنّهُ صديقُ أخي ماجد وقدْ ساعدَنا كثيرًا في أزمتِنا."

ولكنَّ تيريزا أصرّتْ قائلةً: "صديقُ أخيكِ فقط؟! اعترفي! ألا يوجدُ إعجابٌ منْ طرفِكِ أوْ منْ طرفِهِ؟"

ابتسمتْ شادن بخجلٍ وقالتْ: "عندَما أكونُ معهُ أوْ أتحدّثُ معهُ أشعرُ بالرّاحةِ والأمانِ. أشعرُ أنّهُ يهتمُّ بي وبعائلتي، وبأنّني أستطيعُ أنْ أتحدّثَ معهُ في أيِّ موضوعٍ. هلْ هذا هوَ الحبُّ أمْ أنّهُ شعورٌ أخويٌّ فقط؟ لا أدري يا تيريزا."

ضحكتْ تيريزا وقالتْ: "نعمْ، ما زلتِ صغيرةً يا عزيزتي. عندَما تصبحينَ في العشرينَ من عمرِكِ مثلي ستعرفينَ."

أحيانًا، كانَ سليم يشاركُهُما وجبةَ الغداءِ في المطعمِ القريبِ منْ عملِهِما، وذاتَ يومٍ، أحضرَ معهُ صديقًا وبادرَهُما بقولِهِ: "أريدُ أنْ أعرّفكما على صديقي شادي وهوَ منْ سوريا. هذهِ شادن صديقةُ تيريزا وهيَ منْ سوريا أيضًا." كانَ شادي شابًّا طويلاً، أسمرَ البشرةِ، نحيفَ البنيَةِ، لهُ عينانِ ثاقبتانِ، حركاتُهُ تنمُّ عنْ قلقٍ شديدٍ. دائمُ النّظرِ حولَهُ وكأنّهُ ينتظرُ شخصًا ما، أوْ شيئًا ما ليحدثَ، وبالرّغمِ منْ ذلكَ فقدْ كانْ يُضحكُ الجميعَ بنكاتِهِ عندَما يتكلّمُ، فهوَ سريعُ البديهةِ ولا يتركُ شيئًا يمرُّ دونَ أنْ يعلّقَ عليهِ؛ فيسودُ جوٌّ منَ المرحِ أثناءَ الجلوسِ بصحبتِهِ. بالرّغمِ منْ نظرتِهِ السّاخرةِ في الحياةِ إلا أنَّ مسحةً منَ الحزنِ كانتْ تبدو

مختبئةً خلفَ هاتيْنِ العينيْنِ الثّاقبتيْنِ.

كثيرًا ما كانَ يتجنّبُ الكلامَ في مواضيعَ جادّةٍ أو في أمورٍ شخصيّةٍ، وإذا سئلَ عنْ وقتِ وسببِ تركِهِ لسوريا فسرعانَ ما كانَ يغيّرُ الموضوعَ بنباهةٍ عنْ طريقِ المزاحِ؛ ولذلكَ لمْ يعرفْ عنْهُ أحدٌ أيَّ شيءٍ بخلافِ ما يريدُ أنْ يظهرَهُ بإرادتِهِ. هذا الغموضُ في شخصيّتِهِ زادَ منْ فضولِ شادن وتيريزا لمعرفةِ المزيدِ عنْهُ. وقدْ تأكّدَ لهما أنَّ هناكَ ما يخفيهِ عندَما أخبرَهُما سليم أنَّ شادي أسرَّ لهُ سابقًا أنّهُ يعملُ ليلَ نهار ليجمعَ المالَ الكافيَ ليسافرَ إلى أوروبا على متنِ سفينةِ هجرةٍ غيرِ شرعيّةٍ. قالتْ تيريزا: "يا ويلي! ألا يخافُ الغرقَ كما يحدثُ معَ الكثيرِ منْ قواربِ اللّاجئينَ الّتي نشاهدُها على التّلفازِ؟"

أجابَ سليم بنظرةٍ حزينةٍ: "إنّهُ يعتقدُ أنَّ الهدفَ الّذي يسعى إليه يستحقُّ المجازفةَ، ويقولُ بتهكّمٍ إنّهُ لا يوجدُ ما يخسرُهُ."

شعرتْ شادن بحزنٍ عميقٍ على شادي وعلى كلِّ السّوريينَ الّذينَ وجدوا أنفسَهُمْ قسرًا وسطَ هذهِ المحنةِ.

كانتْ شادن تتطلّعُ بشوقٍ إلى حديثِها اليوميِّ مع سميح؛ فتجلسُ في طريقِها إلى البيتِ على مقعدٍ في حديقةٍ قريبةٍ منْ عملِها لتسمعَ أخبارَهُ ولتحكيَ لهُ عنْ تفاصيلِ يومِها.

أخبرتْهُ عنْ تيريزا وعنِ المشاكسةِ الدّائرةِ بينَ تيريزا وخطيبِها سليم في أغلبِ الأوقاتِ.

ضحكَ سميح وقالَ: "نعم، هناكَ بعضُ النّاسِ يعبّرونَ عنْ محبّتِهِمْ لبعضٍ عنْ طريقِ الخناقِ."

وعندَما أخبرتْهُ عنْ غموضِ شادي وعنْ عزمِهِ على الهجرةِ على متنِ قاربٍ غيرِ شرعيٍّ إلى أوروبا، صمتَ قليلاً ثمَّ علّقَ قائلاً: "مسكينٌ هذا الشّابُّ. يبدو أنَّ مصيبةً حلَتْ بأهلِهِ ولا يريدُ أنْ يفصحَ عنْها."

حكى لها سميح بدورِهِ عنْ أخبارِ البلدِ وعنْ عملِهِ مع متطوّعي الدّفاعِ المدنيِّ.

قالَ لها: "وأخيرًا تمكّنتُ منْ تنظيمِ وقتي وتحديدِ وقتٍ للرّسمِ. كمْ أشعرُ بالسّعادةِ والرّاحةِ وأنا أرسمُ يا شادن. أتركُ لنفسي العنانَ لأحلّقَ مع نصِّ القصّةِ الّتي أرسمُها وأنسى الأحوالَ السّيئةَ الّتي نعيشُها. وأنا الآنَ على وشكِ الانتهاءِ منْ رسمِ كتابِ الأطفالِ الّذي أخبرتُكِ عنهُ وسوفَ أرسلُهُ إلى دارِ النّشرِ قريبًا."

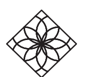
صمتَ قليلاً ثمَّ قالَ: "عندَما رأى صديقي حسّان رسوماتي استغربَ وقالَ: يا زلمة! كيفَ تستطيعُ أنْ ترسمَ بمثلِ هذا الفرحِ وهذهِ البراءةِ وأنتَ في وسطِ كلِّ هذهِ البشاعةِ؟ فأجبتُهُ بقولي: المهمُّ ألّا تدعَ أيَّ شيءٍ يمسُّ نقاءَ روحِكَ يا صديقي."

- "كلامُكَ صحيحٌ يا سميح. كمْ كنتُ أتمنّى أنْ أكونَ معَكَ عندَما تمسكُ الكتابَ بينَ يديْكَ لأوّلِ مرّةٍ."

- "أتمنّى ذلكَ أيضًا يا شادن. لا تعرفينَ كمْ أتمنّى ذلكَ."

◆◆◆

41
في صالون الشّعر



جلستْ شادن أمامَ المرآةِ في صالونِ الشّعرِ الّذي أخذتْها تيريزا إليهِ. المنشفةُ حولَ رقبتِها وشعرُها الكستنائيُّ المبلّلُ الطّويلُ ينسدلُ إلى منتصفِ ظهرِها. وقفَ الكوافير "توني" خلفَها وهوَ يحملُ المشطَ والمقصَّ وسألَها باهتمامٍ: "مدموزيل، كيف بدّك قصّلّك شعرك؟"

تحمّستْ تيريزا محاولةً أنْ تقنعَ شادن بقصِّ شعرِها على آخرِ موضةٍ وهيَ تريها صورةً في إحدى المجلّاتِ لفتاةٍ بمثلِ عمرِها. لها شعرٌ متدرّجُ الألوانِ وقصيرٌ منْ جهةٍ وطويلٌ منَ الجهةِ الأخرى. ضحكتْ شادن وقالتْ: "تيريزا، هذهِ ليستْ أنا. هذهِ أنتِ. لا تحاولي إقناعي. أعرفُ تمامًا ما أريدُ."

التفتتْ إلى الحلّاقِ توني وقالتْ لهُ: "أريدُ أنْ أقصَّ شعري "كاريه" ليصلَ لأوّلِ كتفي مثلَ هذهِ الصّورةِ. لا أريدُهُ قصيرًا جدًّا لأنّني أريدُ أنْ أتمكّنَ منْ ربطِهِ إذا أحببْتُ."

نظرَ طوني إلى الصّورةِ باشمئزازٍ وقالَ: "أمتأكّدةٌ أنتِ؟! "كاريه"! صارَ موضةً قديمةً يا مدموزيل."

ولكنَّ شادن أصرّتْ على خيارِها. وعندَما خرجتْ منَ الصّالونِ قالتْ لها تيريزا

ضاحكةً: "لا أريدُ أنْ أتراجعَ عنْ كلامي، ولكنْ عليَّ أنْ أعترفَ أنّها قَصَّةُ شعرٍ تليقُ بكِ مع أنّني ما زلتُ أجدُها موضةً قديمةً."

ضحكتِ الاثنتان وشبكتا ذراعيْهِما ومشتا إلى المقهى، وهناكَ بعدَ أنْ طلبتا كوبيْ عصيرٍ بدأتْ تيريزا كعادتِها تثرثرُ وتحكي أخبارًا منْ هنا وهناكَ، ثمَّ توقّفتْ بعدَ مدّةٍ وقالتْ: "شادن! ما بكِ سرحانةً لا تركّزينَ على حديثي؟"

- "هناكَ ما يقلقُني يا تيريزا. منْ عادةِ سميح أنْ يكلّمَني كلَّ يومٍ ولكنّهُ لمْ يتّصلْ بي منذُ ثلاثةِ أيّامٍ وعندَما حاولتُ الاتّصالَ بهِ لمْ يردَّ على اتّصالي."

- "لا تقلقي... منَ الممكنِ أنْ يكونَ مشغولاً بأمرٍ ما. استمرّي بالمحاولةِ."

عندَما عادتْ شادن إلى البيتِ، صُعِقَ الجميعُ بقصّةِ شعرِها. قالتْ زوجةُ خالها: "ليش قصّيتي شعرك يا شادن؟ كان حلو طويل!"

سألتْ سنيّة باستياءٍ واضحٍ: "أينَ قصصتِ شعركِ؟ في شارعِ الحمرا؟! في المخيّمِ صالونُ شعرٍ تديرهُ صديقةُ أمّي ولا يكلّفُ الكثيرَ."

ضحكتْ ميسون وقالتْ باستهزاءٍ: "ماهو شادن غنيّة، بتشتغل وبتجيب مصاري مش زيّك يا سنيّة."

غضبتْ سنيّة ونكزت ميسون بكوعِها أمّا رحمة فقالتْ: "يمّا أنا بدّي أقص شعري مثل شادن! بدّي ... بدّي بدّي وفي شارع الحمرا كمان." وشرعتْ ببكاءٍ مصطنعٍ.

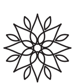
نظرتْ أمّ رامي إلى شادن نظرةَ غضبٍ وكأنّها تقولُ: "انظري إلى المشاكلِ الّتي سبّبتِها لي."

تضايقتْ شادن منْ هذهِ التّعليقاتِ السّخيفةِ على قَصّةِ شعرِها. ولكنْ عندَما عادتْ والدتُها منْ عملِها ورأتْها ابتسمتْ وقالتْ لها: "ما شاءَ اللهُ يا حبيبتي. القَصَّةُ تليقُ بكِ. تبدينَ مثلَ ممثّلاتِ السّينما. حماكِ اللهُ يا ابنتي."

عانقتْ شادن والدتَها وقالتْ ضاحكةً: "سعيدةٌ جدًّا لأنَّ شعري أعجبَكِ يا أمّي العزيزة."

◆◆◆

42
سأظلّ أحاول



بمرورِ الأيّامِ، قلّلتْ أمّ رامي منَ انتقادِها وامتعاضِها منْ وجودِ أختِ زوجِها وابنتِها معهمْ في البيتِ، خاصّةً عندَما صارتْ أمّ ماجد تشاركُ في مصروفِ البيتِ، ممّا خفّفَ قليلاً منْ عبءِ مصاريفِ العائلةِ الكبيرةِ. كانَ وقتُ شادن المفضّلُ ليلاً، عندَما تختلي مع والدتِها في غرفتِهما بينَما بقيّةُ العائلةِ منشغلةٌ بمشاهدةِ برامجِ التّلفازِ. كانتْ شادن عندَما ترى أمّها تعبةً، تتثاءبُ، تقولُ لها: "هيّا يا أمّي، يبدو عليكِ التّعبُ، لنذهبْ إلى النّومِ. علينا أنْ نستيقظَ باكرًا للذّهابِ إلى عملِنا."

تقولُ سنيّة: "ألا تريدانِ مشاهدةَ المسلسلِ التّركيِّ؟ سيعرضُ بعدَ قليلٍ."

تردُّ أمّ ماجد: "واللهِ يا ابنتي، النّومُ سلطانٌ. بصعوبةٍ أستطيعُ أنْ أبقى مستيقظةً. خبّرينا غدًا عمّا سيحصلُ في المسلسلِ."

وفي الغرفةِ الصّغيرةِ وعلى صوتِ التّلفازِ المرتفعِ، تشعرُ شادن بأنَّ لديْها بعضًا منَ الخصوصيّةِ لتتبادلَ أطرافَ الحديثِ مع أمّها...

- "أمّي أنا قلقةٌ عليكِ. لماذا تتأخّرينَ في العملِ هذهِ الأيّامَ؟"

- "ازدادَ الطّلبُ على تفصيلِ فساتينِ السّهرةِ لأنَّ موسمَ الأعراسِ في المخيّمِ ابتدأَ.

ألا تسمعينَ صوتَ إطلاقِ الرّصاصِ والمفرقعاتِ كلَّ ليلةٍ؟"

- "طبعًا أسمعُ، ولكنّي لا أفهمُ كيفَ ما زالَ البعضُ يعبّرُ عنْ فرحِهِ بإطلاقِ الرّصاصِ. باللهِ عليكِ يا أمّي أنْ تبتعدي عنِ الشّارعِ عندَما يبدأُ إطلاقُ الرّصاصِ."

- "لا تقلقي عليَّ يا حبيبتي. تبدأُ الاحتفالاتُ عادةً في المساءِ وأكونُ قدْ عدتُ إلى البيتِ. بصراحةٍ يا شادن، أنا سعيدةٌ لأنَّ شغلَ الخيّاطةِ بشرى قدِ ازدادَ فطلبتْ منّي أنْ أساعدَها أكثرَ. وطبعًا هذا سيُدِرُّ علينا دخلاً أكبرَ."

- "ولكنْ... لا أريدُكِ أنْ تتعبي."

- "أحيانًا، يا ابنتي، التّعبُ يكونُ راحةً. العملُ يلهيني عنِ التّفكيرِ بماجد وبوالدِكِ الحبيبِ رحمةُ اللهِ عليهِ. على فكرة... هلْ وصلَكِ أيُّ خبرٍ جديدٍ عنْ ماجد منْ سميح؟"

- "للأسفِ، لا... منذُ عدّةِ أيّامٍ، أحاولُ أنْ أتّصلَ بهِ ولكنّهُ لا يردُّ على هاتفِهِ."

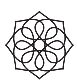
- "أرجو ألّا يكونَ قدْ أصابَهُ سوءٌ. استمرّي بالمحاولةِ يا ابنتي وطمئنيني عنهُ. أقلقُ عليهِ كما لو كانَ ابني. باركَ اللهُ في هذا الشابِّ. ساندَنا وساعدَنا في أصعبِ اللّحظاتِ."

قالتْ شادن بقلقٍ: "نعمْ يا أمّي. إنّهُ حقًّا شابٌّ طيّبٌ، وأنا أيضًا انشغلَ بالي عليهِ. سأظلُّ أحاولُ."

◆◆◆

43

من سحب البساط؟



اعتادتْ شادن على العملِ في متجرِ أبي فارس وارتاحَ الزّبائنُ لمعاملتِها؛ فقدْ كانتْ بشوشةً لطيفةً معهمْ. تحاولُ جهدَها دائمًا أنْ ترضيَهُمْ وتجدَ ما يناسبُهُمْ ويناسبُ ميزانيّاتِهِمْ. كانَ أبو فارس راضيًا عنْ عملِها خاصّةً عندَما رأى زيادةَ المبيعاتِ في متجرِهِ. كانَ يقولُ لها أحيانًا بعدَ أنْ يعدَّ الغلّةَ: "يعطيكِ العافية يا ابنتي. في الحقيقةِ أنتِ منْ أفضلِ الموظّفينَ الّذينَ مرّوا عليَّ حتّى مع صغرِ سنّكِ. استمرّي بنشاطِكِ يا شادن وسأكافئُكِ."

مع مرورِ الأيّامِ والأسابيعِ، نسيتْ شادن أنّها تعملُ بشكلٍ غيرِ قانونيٍّ؛ لذلكَ صُدمتْ عندَما كلّمَها أبو فارس ذاتَ صباحٍ يطلبُ منْها بكلِّ حزنٍ عدمَ الحضورِ إلى المحلِّ لعدّةِ أيّامٍ قائلاً: "للأسفِ يا شادن، يبدو أنَّ أحدًا ما قدْ قدّمَ شكوى كيديّةً بحقّي بأنّي أوظّفُ فتاةً سوريّةً دونَ أوراقٍ رسميّةٍ. والحقُّ يقالُ إنَّ بعضَ أصحابِ المحلّاتِ المجاورةِ يحسدونَني على تحسّنِ مبيعاتِ المحلِّ منذُ عملتِ أنتِ فيهِ. حذّرني صديقٌ لي منْ أنَّ المفتّشينَ سيحضرونَ إلى المحلِّ "كبسية". سأكونُ هناكَ لأستقبلَهُمْ وعندَما أتأكّدُ أنّهُمْ لنْ يعودوا سأعاودُ الاتّصالَ بكِ."

شعرتْ شادن كأنَّ أحدَهُمْ قدْ سحبَ البساطَ منْ تحتِ قدميْها؛ ففقدتْ ذلكَ الشّعورَ بالأمانِ الّذي بدأتْ تحسُّ بهِ مؤخّرًا، وأدركتْ حقيقةَ أنّها لاجئةٌ في لبنانَ،

ولا يحقُّ لها العملُ إلا بإذنٍ منَ السّلطاتِ الرّسميّةِ كما أنّ الحصولَ على هذا الإذنِ الرّسميِّ صعبٌ ومكلّفٌ.

طلبتْ شادن منْ أبي فارس أنْ يُبقيَ الأمرَ سرًّا إلى أنْ تهدأَ الأمورُ وتعودَ إلى العملِ. لمْ ترغبْ في أنْ يصلَ الخبرُ لزوجةِ خالِها. كانتْ تأملُ في أنْ تُحلَّ مشكلتُها في فترةٍ قريبةٍ.

في اليومِ التّالي، خرجتْ كعادتِها منَ البيتِ. اتّفقتْ مع تيريزا أنْ تلتقيَ بها في فترةِ الغداءِ في نفسِ المقهى، ولكنْ كيفَ وأينَ لها أنْ تقضيَ بقيّةَ الوقتِ؟ قرّرتِ الذّهابَ إلى الكورنيشِ والتّمشّيَ على شاطئِ البحرِ كما كانتْ تفعلُ وهيَ طفلةٌ. طلبتْ منَ السرفيسِ أنْ يوصلَها إلى هناكَ. اشترتْ كعكةً بسمسمٍ منْ بائعٍ متجوّلٍ وجلستْ على مقعدٍ يطلُّ على البحرِ لتستمتعَ بزرقةِ لونهِ وتسمعَ هديرَ أمواجِهِ الأبديّةِ وتراقبَ طيورَ البحرِ تجولُ وتصولُ في سمائِهِ. أمامَ عظمةِ هذا المشهدِ بدتْ لها مشاكلُها صغيرةً وغيرَ مهمّةٍ.

عكّرَ صفوَ هذا الهدوءِ الّذي شعرتْ بهِ شابٌّ كانَ يراقبُها عنْ بعدٍ، ما لبثَ أنِ اقتربَ منْها وجلسَ قربَها وقالَ لها: "حابب أتعرّف عليك. إنتِ لوحدك وأنا لوحدي. شو رأيك؟"

كادتْ شادن تختنقُ بلقمةٍ منَ الكعكةِ بلعتْها بسرعةٍ وقالتْ بصوتٍ غاضبٍ: "ابتعدْ عنّي حالاً... لا أريدُ أنْ أتعرّفَ على أحدٍ." وابتعدتْ عنِ المقعدِ وهيَ تفكّرُ باستياءٍ: "لماذا منَ الصّعبِ على الفتاةِ أنْ تجلسَ أوْ تمشيَ وحدَها دونَ أنْ يتحرّشَ بها أحدٌ؟"

حاولتْ مرارًا الاتّصالَ بسميح وفي كلِّ مرّةٍ كانتْ تصلُها نفسُ الرّسالةِ الصوتيّةِ: "رقمُ الهاتفِ المطلوبِ مغلقٌ حاليًّا."

كمْ هيَ بحاجةٍ لأنْ تتحدّثَ معهُ في هذا الظّرفِ الّذي تمرُّ بهِ. ولكنْ لماذا لا يردُّ على هاتفِهِ؟ ليسَ منْ عادتِهِ أنْ يُغلقَ الهاتفَ. أغمضتْ عينيْها وناجتِ اللهَ بدعاءٍ صادقٍ: "يا ربّ... احفظْ سميح منْ كلِّ أذىً."

في اليومِ التّالي، وبعدَ محاولاتٍ عديدةٍ للاتّصالِ بهِ فوجئتْ بصوتِ فتاةٍ يردُّ عليْها بغضبٍ: "كفّي عنِ الاتّصالِ بهذا الرّقمِ يا ستّ! ألا يوجدُ لديكِ القليلُ منَ الذّوقِ والأدبِ؟"

قالتْ شادن بصوتٍ قلقٍ: "عفوًا... ولكنْ هلْ هذا رقمُ سميح؟"

"نعم هذا رقمُ سميح... لا تتّصلي مرّةً ثانيةً على هذا الرّقمِ. سميح لا يحتاجُ إلى أيِّ إزعاجٍ. ما قلةُ الذّوقِ هذهِ؟!" وأغلقتِ الفتاةُ الخطَّ.

جلستْ شادن مصدومةً تنظرُ إلى هاتفِها محاولةً أنْ تفهمَ ما حصلَ. أينَ سميح؟ لماذا لا يردُّ بنفسِهِ على هاتفِهِ؟ ومنْ هذهِ الفتاةُ الّتي تردُّ بهذهِ الشّراسةِ مستخدمةً هاتفَهُ ؟ انسابتِ الدّموعُ على خدّيْها وشعرتْ بخيبةِ أملٍ شديدةٍ، وفي أعماقِ نفسِها قرّرت أنّها لنْ تعيدَ الاتّصالَ بهِ.

في المقهى، أخبرتْ تيريزا بما حدثَ فانفجرتْ تيريزا غاضبةً: "الرّجالُ لا يؤمَنُ جانبُهُمْ. الموضوعُ واضحٌ وضوحَ الشّمسِ. الظّاهرُ أنَّها خطيبةُ سميح وهيَ تشعرُ بالغيرةِ منْ أيِّ فتاةٍ تتّصلُ بهِ."

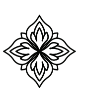
انفعلتْ شادن وقالتْ: "لا... لا. قلتُ لكِ إنَّ سميح صديقٌ حميمٌ لأخي ولعائلتِنا. لوْ أنّهُ ارتبطَ بأيِّ فتاةٍ لأخبرَني. أعرفُ كلَّ شيءٍ عنهُ ويعرفُ كلَّ شيءٍ عنّي."

ولكنَّ تيريزا حسمتِ الأمرَ في عقلِها ورفضتْ أنْ تغيّرَ رأيَها.

◆◆◆

44

أمام معضلة



وجدتْ شادن نفسَها أمامَ معضلةٍ. ماذا لوْ طالَ الأمرُ قبلَ أنْ يتّصلَ بها أبو فارس؟ لا تستطيعُ أنْ تتخيّلَ نفسَها تقضي يومًا بعدَ يومٍ في بيتِ خالِها وتتحمّلُ شماتةَ بناتِ خالِها، كما أنَّ التّسكّعَ على الكورنيشِ وحدَها أو في الأسواقِ ليسَ حلّاً أيضًا. إنّها تحتاجُ إلى مكانٍ آمنٍ تقضي الوقتَ فيهِ دونَ أنْ تُضطرَّ إلى إنفاقِ النّقودِ. فجأةً، تذكّرتْ زبونتَها في المحلِّ، السّيّدة نوال، الّتي أخبرتْها أنّها تعملُ في المكتبةِ العامّةِ لبلديّةِ بيروت. ستذهبُ لزيارتِها في المكتبةِ وتقضي وقتَها هناكَ بينَ الكتبِ.

منذُ مدّةٍ طويلةٍ، لمْ تزرْ مكتبةً أوْ تفتحْ كتابًا. كانتْ قارئةً نهمةً قبلَ الأحداثِ. تنهّدتْ شادن وهيَ تفكّرُ في حياتِها الّتي انقلبتْ رأسًا على عقبٍ بينَ ليلةٍ وضحاها. كانَ منَ المفروضِ أنْ تتقدّمَ لامتحانِ البكالوريا هذا العامَ، وتتخرّجَ منَ المدرسةِ ثمَّ تدخلَ الجامعةَ. ولكنْ شاءتْ ظروفُ الحربِ والدّمارِ أنْ تغيّرَ كلَّ خططِها للمستقبلِ.

في تلكَ اللّيلةِ، وبعدَ أنِ اختلتْ شادن بأمِّها في غرفتِهما الصّغيرةِ باحتْ لها بما حصلَ مع أبي فارس. قالتْ أمُّها بغضبٍ: "لماذا أخفيتِ عنّي الأمرَ يا شادن؟"

- "لمْ أقصدْ ذلكَ يا أمّي، لمْ أرغبْ بأنْ أقلقَكِ وظننتُ أنَّ الموضوعَ مع أبي فارس سيُحلُّ بسرعةٍ."

- "أنتِ تعرفينَ أنّني أغضبُ عندَما تخفينَ عنّي شيئًا يا شادن. ما العملُ الآنَ؟"

- "أرجوكِ، أرجوكِ يا أمّي، لا تطلبي منّي البقاءَ في البيتِ حتّى يأتيَني خبرٌ منْ أبي فارس. سأموتُ قهرًا في هذا البيتِ الضيّقِ والمعتمِ مع زوجةِ خالي ومع سنيّة."

- "ولكنْ أينَ ستذهبينَ؟"

- "تعرّفتُ وأنا في المحلِّ على سيّدةٍ لطيفةٍ تعملُ في المكتبةِ العامّةِ. سأذهبُ لزيارتِها، ويمكنُني أنْ أبقى في المكتبةِ منَ الصّباحِ حتّى انتهاءِ الدّوامِ، أقرأُ واستخدمُ الحاسوبَ."

- "أذكرُ كمْ كنتِ تحبّينَ القراءةَ. قدْ يكونُ هذا حلاًّ مناسبًا إلى أنْ يعاودَ أبو فارس الاتّصالَ بكِ."

حضنتْ شادن والدتَها قائلةً: "الله يخلّيكِ لي يا أمّي."

قبّلتْ أمّ ماجد جبينَ ابنتِها وهيَ تقولُ:

"لا تقلقي يا شادن! سأزيدُ منْ ساعاتِ عملي عندَ بشرى إلى أنْ تعودي إلى عملِكِ."

وقبلَ أنْ تنامَ بلّلتْ دموعُها الصّامتةُ وسادتَها وهيَ تتذكّرُ زوجَها وتفكّرُ بحالِها وبحالِ ابنتِها وبابنِها الّذي يقضي زهرةَ شبابهِ في السّجنْ.

ككلِّ يومٍ، استيقظتْ شادن باكرًا. لبستْ ملابسَها بسرعةٍ محاولةً ألّا توقظَ والدتَها الّتي لا تذهبُ إلى عملِها قبلَ السّاعةِ العاشرةِ. البيتُ صباحًا صاخبٌ كخليّةِ نحلٍ... علا صوتُ رحمة الّتي كانتْ تحاولُ إيقاظَ رامي ومصطفى ليلبسا ويستعدّا للذّهابِ إلى المدرسةِ. صرخَ خالها توفيق منْ غرفتِهِ: "أينَ القهوةُ؟"

أسرعتْ سنيّة حاملةً صينيّةً عليها ركوةُ القهوةِ وفنجانُ والدِها المفضّلُ قائلةً: "ها هيَ القهوةُ يا أبي."

كانتْ أمّ رامي تعدُّ الفطورَ في المطبخِ الصّغيرِ الموجودِ في زاويةِ غرفةِ الجلوسِ حيثُ ينامُ رامي ومصطفى على فرشاتٍ إسفنجيّةٍ يسحبانِها منْ تحتِ الأريكةِ في اللّيلِ. حضّرتْ أمّ رامي قِدرًا كبيرًا منَ الفولِ وقالتْ: "هيّا أسرعوا، الفطورُ جاهزٌ. ستأكلونَ الفولَ بصلصةِ البندورةِ اليومَ. سيشبعُكُمْ إلى وقتِ الظهيرةِ."

صاحَ رامي: "أنا لا أحبُّ الفولَ. أريدُ منقوشةَ زعترٍ." صاحَ مصطفى: "وأنا أريدُ بيضًا مقليًّا."

صرختْ أمّ رامي بعصبيّةٍ: "يكفي... يكفي. منْ قالَ لكمْ إنّني أديرُ مطعمًا. منْ لا يريدُ أكلَ الفولِ فليبقَ بالجوعِ."

أكلتْ شادن صحنَ الفولِ مع نصفِ رغيفِ خبزٍ. لا تستطيعُ شادن أنْ تنكرَ أنَّ زوجةَ خالها تحضّرُ فولًا لذيذًا ولكنَّ فيهِ الكثيرَ منَ الثّومِ. منَ الأفضلِ أنْ تفرّشَ أسنانها قبلَ الخروجِ.

قالتْ سنية متذمّرةً: "كلُّ واحدٍ منكُمْ سيذهبُ في طريقهِ، وستتركونني لأرتّبَ

وأنظّفَ البيتَ منْ ورائِكُمْ. هذا ليسَ عدلاً. يا ليتَني لمْ أتركِ المدرسةَ."

بعدَ أنْ غسلتْ شادن صحنَها وأكوابَ الشّايِ الموجودةَ في الحوضِ، استعدّتْ للخروجِ منَ البيتِ لكنَّ زوجةَ خالِها استوقفتْها بسؤالِها: "هلْ ما زالتِ المصونةُ أمّكِ نائمةً؟"

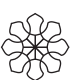
ردّتْ شادن بغضبٍ: "نعمْ يا خالة. إنّها تعملُ ساعاتٍ طويلةً ولا تعودُ إلى البيتِ إلّا آخرَ النّهارِ. ستستيقظُ بعدَ قليلٍ وتخرجُ إلى عملِها، وأنا أيضًا عليَّ ألّا اتأخّرَ عنْ عملي... اعذروني، أراكُمْ لاحقًا."

سمعتْ شادن أمّ رامي تتمتمُ خلفَ ظهرِها: "واللهِ كأنّني أُديرُ فندقًا ومطعمًا في هذا البيتِ."

◆◆◆

45

في المكتبة



مشتْ شادن إلى أنْ وصلتِ الشّارعَ الرئيسيَّ، وهناكَ وجدتْ "سرفيسًا" استقلّتْهُ بسرعةٍ إلى ساحةِ "رياض الصّلح" القريبةِ منَ المكتبةِ العامّةِ. أنزلَها السّرفيسُ عندَ أوّلِ الشّارعِ المؤدّي إلى السّاحةِ.

سارتْ حتّى وصلتِ السّاحةَ فوقفتْ تتأمّلُ تمثالَ "رياض الصّلح"، أوّلِ رئيسِ وزراءَ للبنان بعدَ الاستقلالِ. نظرتْ إلى تمثالِهِ يقفُ شامخًا بطربوشِهِ وكأنّهُ يراقبُ كلَّ شيءٍ حولَهُ. حاربتْ شعورًا خفيًّا بأنْ تضربَ لهُ سلامًا عسكريًّا. ضحكتْ على الفكرةِ الّتي راودتْها. أيقظَها منْ تهيّؤاتِها طفلٌ صغيرٌ كانَ يشدُّ حقيبتَها وهوَ يقولُ: "يا ستّ... من شان الله. اشتري منّي علكة. أنا سوري مسكين."

نظرتْ في عينيِ الطّفلِ الّذي لمْ يتجاوزِ التّاسعةَ منْ عمرهِ وسألتْهُ: "ما اسمُكَ يا شاطر؟"

قالَ لها: "حسّان." أخرجتْ بعضَ النّقودِ منْ حقيبتِها واشترتْ منهُ علكةً ثمَّ قالتْ: "حسّان... اسمعني جيّدًا! لا تقلْ أبدًا "أنا سوريٌّ مسكينٌ" بعدَ اليومِ، فقطْ قلْ "أنا سوريٌّ" وكنْ فخورًا بذلكَ. اتّفقنا؟"

ابتسمَ الطّفلُ الصّغيرُ وردّدَ وراءَها: "أنا سوريٌّ... أنا سوريٌّ."

كانَ بودِّ شادن أنْ تُبعدَ هذا الطّفلَ الصّغيرَ وكلَّ الأطفالِ الّذينَ همْ مثلُهُ منَ الشّوارعِ؛ فمكانُهُمُ الصّحيحُ في المدارسِ وفي بيوتٍ دافئةٍ عامرةٍ بالمحبّةِ. إنّها إحدى أكبرِ مصائبِ الحربِ. ما أقسى حياةَ الأطفالِ الّذينَ وجدوا أنفسَهُمْ فجأةً يحملونَ على أكتافِهِمُ الصّغيرةِ مسؤوليّةَ عائلاتِهِمْ!

بعدَ أنْ سألتْ شادن أحدَ المارّةِ وصلتْ إلى المكتبةِ. دخلتْها بانتباهٍ وهيَ تنظرُ حولَها إلى رفوفِ الكتبِ. تركتْ سكينةَ المكانِ تتسلّلُ إلى قلبِها وتشعرُها بالأمانِ والرّاحةِ. رفعتْ أمينةُ المكتبةِ الّتي كانتْ مستغرقةً في عملِها رأسَها وابتسمتْ لها قائلةً: "صباحُ الخيرِ bonjour أتحتاجينَ لأيِّ مساعدةٍ؟" هزّتْ شادن رأسَها وقالتْ: "لا شكرًا، سأبحثُ عنْ كتابٍ لأطالعَهُ."

نظرتْ شادن حولَها تبحثُ عنِ السّيّدةِ نوال ولكنّها لمْ تجدْها. مشتْ بينَ رفوفِ الكتبِ في قاعةِ المكتبةِ الكبيرةِ وتوقّفتْ عندَ رفِّ الرّواياتِ. اختارتْ روايةً جديدةً لكاتبِها المفضّلِ، ثمَّ جلستْ في زاويةٍ منَ المكتبةِ قربَ نافذةٍ كبيرةٍ تطلُّ على حديقةٍ منسّقةٍ جميلةٍ وبدأتْ تقرأُ. دخلتْ في عالمِ الرّوايةِ وتفاعلتْ معَها حتّى إنّها لمْ تنتبهْ عندَما وقفتِ السّيّدةُ نوال أمامَها مبتسمةً تقولُ: "شادن؟ أنتِ شادن منْ محلِّ أبي فارس. أليسَ كذلكَ؟ ماذا تفعلينَ هنا في المكتبةِ؟ هلْ تركتِ العملَ مع أبي فارس؟"

وقفتْ شادن وصافحتِ السّيّدةَ نوال بحرارةٍ وقالتْ: "آسفةٌ، لمْ أنتبهْ لكِ. كنتُ مندمجةً جدًّا في الرّوايةِ."

وقبلَ أنْ تجيبَها على سؤالِها، رنَّ هاتفُ السّيّدةِ نوال فأسرعتْ عائدةً إلى مكتبِها

وهيَ تبتسمُ وتشيرُ لشادن بأنْ تجلسَ وتستمرَّ في القراءةِ.

وقتَ الظّهيرةِ، خرجتْ شادن منَ المكتبةِ واشترتْ شطيرةً وعصيراً ثمَّ جلستْ على مقعدٍ تحتَ شجرةٍ وارفةٍ تأكلُ وتراقبُ حركةَ السّيّاراتِ والمشاةِ وروّادَ المكتبةِ.

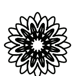
عندَما انتهى دوامُ المكتبةِ، كانَ قدْ تبقّى لشادن عدّةُ فصولٍ منَ الرّوايةِ فقط.

قالتْ لها أمينةُ المكتبةِ الّتي كانتْ تراقبُها: "يا مدموزيل... يمكنُكِ أنْ تشتركي في المكتبةِ وتستعيري كتبًا منها كما تشائينَ." ابتسمتْ شادن وقالتْ: "جوُّ المكتبةِ جميلٌ، وأحبُّ أنْ أقرأَ فيها."

◆◆◆

46

روتين جديد



في صباحِ اليومِ التّالي، وقبلَ أنْ تتوجّهَ شادن إلى المكتبةِ، قرّرتْ أنْ تتّصلَ بأبي فارس لعلَّ الظّروفَ قدْ تغيّرتْ فيطلبُ منْها أنْ تعودَ إلى عملِها.

رنَّ هاتفُهُ عدّةَ مرّاتٍ وكانتْ على وشكِ أنْ تغلقَ الهاتفَ عندَما ردَّ قائلاً: "bonjour كيفك مدموزيل شادن؟ ça va؟"

قالتْ شادن: "الحمدُ للهِ يا أبا فارس. أهاتفُكَ لأسألَ متى بإمكاني العودةُ إلى المحلِّ."

صمتَ أبو فارس ثمَّ قالَ بصوتٍ محرَجٍ: "للأسفِ، لا يا شادن. زارني مفتّشٌ، يبدو أنّهُ يعرفُ كلَّ المعلوماتِ عنكِ، فهوَ يعرفُ اسمَكِ، ويعرفُ منذُ متى تعملينَ في محلّي. كانَ شديدَ اللّهجةِ معي وهدّدني بغرامةٍ كبيرةٍ إنِ اكتشفَ أنّني وظفتُ أحدًا دونَ تصريحِ عملٍ رسميٍّ مرّةً ثانيةً. قالَ إنّهُ سيرسلُ موظّفًا منَ الدّائرةِ ليكشفَ على المحلِّ بينَ الحينِ والآخرِ. أنا محرجٌ منكِ يا شادن. حقًّا لا أريدُ أنْ أفقدَكِ لأنّكِ كنتِ موظّفةً ممتازةً، ولكنْ ما باليدِ حيلةٌ."

قاومتْ شادن رغبتَها في البكاءِ واكتفتْ بالقولِ وفي صوتِها حشرجةٌ: "لا بأسَ يا أبا فارس. أشكرُكَ على كلِّ شيءٍ."

قالَ أبو فارس: "أعتذرُ منكِ مرّةً أخرى يا شادن، وأرجو أنْ تحضرُي أو ترسلي أحدًا لاستلامِ ما تبقّى لكِ منْ راتبِكِ."

مسحتْ شادن دموعَها وتوجّهتْ إلى المكتبةِ الّتي أصبحتْ مقرًّا لها إلى أنْ تتّضحَ الأمورُ أوْ تنفرجَ هذهِ الشِّدَّةُ. وهناكَ اكتشفتْ عالمًا مثيرًا لا مجالَ للمللِ فيهِ؛ فإضافةً إلى المطالعةِ كانتْ تعقدُ في المكتبةِ أنشطةٌ لطلّابِ المدارسِ والأطفالِ والشّبابِ وكبارِ السّنِّ. كانتِ السّيّدةُ نوال تراقبُ شادن عن بعدٍ. وبعدَ عدّةِ أيّامٍ دعتْها إلى مكتبِها وحدّثتْها بكلِّ لطفٍ فما كانَ منْ شادن إلّا أنْ أخبرتْها بما حصلَ معَها ومع أبي فارس وشرحتْ لها عنْ وضعِها ووالدتِها في بيتِ خالِها. تعاطفتِ السّيّدةُ نوال معها قائلةً: "أشعرُ معكِ يا شادن. الظّروفُ صعبةٌ على الجميعِ في هذهِ الأيّامِ. أعرفُ منْ تجربَتي معكِ في محلِّ أبي فارس وبشهادتِهِ أنّكِ موظّفةٌ نشيطةٌ تعملينَ بجدٍّ وبأمانةٍ. كان بودّي أنْ أعرضَ عليكِ وظيفةً بدوامٍ كلّيٍّ تعوّضُكِ عنْ فقدانِكِ عملَكِ السّابقَ ولكنْ للأسفِ تنطبقُ على المكتبةِ نفسُ شروطِ التّوظيفِ بالنّسبةِ لغيرِ اللّبنانيّين، ولكنْ، يمكنُني أنْ أعرضَ عليكِ عملاً مؤقّتًا إلى أنْ ترتّبي أمورَكِ. نحتاجُ إلى فتاةٍ نشيطةٍ لتعملَ كمساعدةٍ للمكتبيّينَ أثناءَ أنشطةِ المكتبةِ. معَ الأسفِ فإنَّ الرّاتبَ سيكونُ متواضعًا بسببِ عدمِ توفّرِ ميزانيّةٍ كافيةٍ للتّوظيفِ في المكتبةِ. هلْ تناسبُكِ مثلُ هذهِ الوظيفةِ؟"

- "نعم، تناسبُني يا سيّدةُ نوال. أشكرُكِ منْ كلِّ قلبي؛ فأنا بحاجةٍ للعملِ، وأعدُكِ أنْ أعملَ بجدٍّ ونشاطٍ وآملُ أنْ أكونَ عندَ حسنِ ظنّكِ."

فرحتْ شادن لأنَّ المبلغَ الصّغيرَ سيغطّي مصاريفَ المواصلاتِ اليوميّةِ على الأقلِّ. لا حاجةَ بعدَ اليومِ لإخفاءِ الأمرِ عنْ عائلةِ خالِها. ستخبرُ الجميعَ عمّا

حصلَ مع أبي فارس وعنْ حصولِها على وظيفةٍ جديدةٍ.

بينَ يومٍ وليلةٍ أصبحَ لشادن روتينٌ يوميٌّ جديدٌ. وجدتْ عملَها في المكتبةِ ممتعًا. كانتْ تقومُ بأيِّ عملٍ يوكلُ إليها بنشاطٍ وحماسٍ. تعلّمتِ التّصنيفَ المستخدمَ في المكتبةِ وصارتْ تعيدُ الكتبَ إلى أماكنِها الصّحيحةِ بعدَ أنْ ينتهيَ الأطفالُ منْ قراءتِها. كما ساعدتْ أيضًا في تهيئةِ غرفةِ العرضِ للمحاضراتِ الصّباحيّةِ وطباعةِ أوراقِ المحاضراتِ.

في أحدِ الأيّامِ، تغيّبتِ المسؤولةُ عنْ قراءةِ قصصِ الأطفالِ بسببِ المرضِ. عرضتْ شادن على السّيّدةِ نوال أنْ تقومَ هيَ بقراءةِ قصّةٍ للأطفالِ بدلاً منْ إلغاءِ الفترةِ المخصصّةِ لذلكَ منْ برنامجِ المكتبةِ. اختارتْ قصّةً طريفةً كانتْ تحبُّ الاستماعَ إليْها منذُ كانتْ طفلةً، وقرأتْها بأسلوبٍ تفاعليٍّ جعلَ الأطفالَ يضحكونَ ويشاركونَ في النّقاشِ.

بعدَ أنِ انتهتْ منْ قراءةِ القصّةِ، فوجئتْ بالسّيّدةِ نوال التي تعمدّتْ حضورَ الجلسةِ تصفّقُ لها وتقولُ: "شادن! كنتِ حقًّا رائعةً! أنتِ حكواتيّةٌ بالسّليقةِ."

استقرّتِ الأمورُ في حياةِ شادن. وبالرّغمِ منْ أنّها لمْ تعدْ تكسبُ راتبًا كراتبِها السّابقِ إلّا أنّها تملكُ على الأقلِّ وظيفةً تشغلُها وتفيدُها فهيَ تقرأُ وتجوبُ العالمَ من خلالِ الإنترنتِ في وقتِ فراغِها في المكتبةِ.

مع أنّها كانتْ تتبادلُ الأخبارَ مع تيريزا على الهاتفِ، إلّا أنّها اشتاقتْ إلى قضاءِ الوقتِ معَها كما كانتْ تفعلُ سابقًا. اتّفقتْ مع أبي فارس أنْ يعطيَ ما تبقّى من راتبِها لتيريزا لتوصلَهُ لها. حضرتْ تيريزا في فترةِ الغداءِ. اشترتْ كلٌّ منهما

سندويش شاورما وعلبةَ عصيرٍ وجلستا على مقعدٍ مطلٍّ على السّاحةِ تأكلانِ وتتبادلانِ الأخبارَ. قالتْ تيريزا وهيَ تبتسمُ:

- "اشتقتُ إليكِ يا شادن. لا يوجدُ منْ أقضي معهُ فترةَ الغداءِ الآنَ."

- "وأنا أيضًا اشتقتُ إليكِ. للأسف، المكتبةُ بعيدةٌ عنْ عملِكِ وإلّا لعدْنا للاجتماعِ يوميًّا."

- "صحيحٌ فالمواصلاتُ تأخذُ وقتًا طويلاً؛ لذا عليَّ أنْ أسرعَ لأعودَ وإلّا حصلتْ لي مشكلةٌ مع صاحبِ النّوفوتيه."

- "قولي لي بسرعةٍ، ما هيَ أخبارُكِ؟"

- "سليم وجدَ عملاً في الخليجِ، وسيسافرُ آخرَ الشّهرِ."

- "هذا رائعٌ! إذًا ستتزوّجانِ قريبًا."

- "نعمْ، هذا ما خطّطنا لهُ بعدَ أنْ يستقرَّ ويجدَ بيتًا. وفي أوّلِ إجازةٍ سيعودُ إلى لبنان سنتزوّجُ وسنسافرُ معًا."

- "مبروك يا تيريزا. أتمنّى لكما السّعادةَ ولكنّي سأشتاقُ إليكِ."

- "وأنا أيضًا يا عزيزتي. هلْ هناكَ أيُّ أخبارٍ عنْ سميح؟"

- "لا... للأسفِ... أرسلتُ رسالةً إلى بريدِهِ الإلكترونيِّ منْ حاسوبِ المكتبةِ ولكنْ لمْ يصلْني أيُّ ردٍّ. وبصراحةٍ لمْ أرغبْ أنْ أتّصلَ بهِ مرّةً أخرى خوفًا منْ أنْ تردَّ

عليَّ هذهِ الفتاةُ الشّرسةُ أوْ تبهدلَني."

- "معكِ حقٌّ. ولكنْ احزري منِ الّذي يسألُ عنكِ دائمًا؟"

- "منْ؟"

- "شادي."

- "ما أخبارُهُ؟"

- "يقولُ سليم إنّهُ سيسافرُ قريبًا عنْ طريقِ القواربِ غيرِ الشّرعيّةِ."

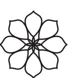
- "مسكينٌ شادي... ستكونُ حقًّا مغامرةً خطيرةً. أتمنّى لهُ أنْ ينجحَ ويصلَ إلى مبتغاهُ."

نظرتْ تيريزا إلى ساعتِها وقفزتْ منْ مكانِها قائلةً: "أفٍّ! لقدْ تأخّرتُ. سأذهبُ الآنَ، أراكِ لاحقًا."

وأشارتْ لسرفيسٍ منْ بعيدٍ سرعانَ ما توقّفَ فقالتْ لهُ: "إلى شارعِ الحمرا منْ فضلِكَ."

◆◆◆

47
نتالي



بتشجيعٍ منَ السّيّدةِ نوال، انطلقتْ شادن تعملُ بجدٍّ في المكتبةِ، ترتّبُ الكتبَ وتعيدُها إلى أماكنِها على الرّفوفِ المناسبةِ وتساعدُ في إدخالِ المعلوماتِ وتقرأُ القصصَ للأطفالِ وتؤدّي أيَّ عملٍ يوكلُ إليها بنشاطٍ ودقّةٍ. استدعتْها السّيّدةُ نوال ذاتَ صباحٍ وقالتْ لها: "منْ متابعتي لكِ ياشادن، تبيّنَ لي أنّكِ تعرفينَ كيفيّةَ التّعاملِ معَ الأطفالِ وعرضِ القصصِ عليهِمْ. ما رأيكِ أنْ تكوني مسؤولةً عنْ مجموعاتِ أطفالِ رياضِ الأطفالِ الّتي تزورُ المكتبةَ؟ سأطلبُ منْ نتالي أنْ تركّزَ على أطفالِ المرحلةِ الابتدائيّةِ."

تردّدتْ شادن في البدايةِ ولكنّها وجدتِ الأمرَ فرصةً لتثبتَ نفسَها فوافقتْ قائلةً: "أرجو أنْ أكونَ عندَ حسنِ ظنّكِ يا سيّدة نوال."

كانتْ تشعرُ بحماسٍ عندَما يُطْلَبُ منْها أنْ تستعدَّ لقدومِ مدرسةٍ ومجموعةٍ منْ أطفالِ الرّوضةِ، فتسرعُ إلى رفوفِ قصصِ الأطفالِ وتقرأُ العديدَ منَ القصصِ وتختارُ منْها قصّةً. وبعدَها تحاولُ أنْ تجدَ دمىً مناسبةً لعرضِ القصّةِ ثمَّ تصمّمُ عملاً فنيًّا ليقومَ الأطفالُ بتنفيذهِ بعدَ الاستماعِ إلى القصّةِ.

في جلسةِ القراءةِ، كانَ الأطفالُ يجلسونَ بهدوءٍ وكلّهُمْ آذانٌ صاغيةٌ، يتفاعلونَ مع

أحداثِ القصّةِ فينادونَ الدّمى بأسمائِها، ويردّونَ على أسئلةِ شادن بكلِّ نشاطٍ. صارَ روّادُ المكتبةِ منَ الأطفالِ والمدارسِ يعرفونَ شادن ويطلبونَها بالاسمِ كيْ تقرأَ لهمُ القصصَ. وكما حصلَ معَها في محلِّ أبي فارس فقدْ أثبتَتْ شادن نفسَها في المكتبةِ في وقتٍ قصيرٍ، ليسَ فقط معَ الأطفالِ ولكنْ أيضًا مع موظّفي ومتطوّعي المكتبةِ... كلّهمْ ما عدا نتالي الّتي شعرتْ بالضّيقِ لأنَّ تسليطَ الضّوءِ تحوّلَ إلى شادن بدلاً عنها وصارتْ تنافسُها على اهتمامِ الأطفالِ والسّيّدةِ نوال.

حاولتْ شادن التّقرّبَ منْ نتالي، ولكنّ هذهِ لمْ تتفاعلْ معَها بلْ إنّها حاولتْ أكثرَ منْ مرّةٍ أنْ تعرقلَ عملَها. وفي أحدِ الأيّامِ وبينَما كانتْ شادن في مستودعِ المكتبةِ تحضرُ كرتونًا مقوّىً، سمعتْ نتالي تتحدّثُ مع زميلةٍ لها وتقولُ: "السّوريّونَ ملأوا البلدَ وأخذوا وظائفَنا. يجبُ على الحكومةِ أنْ تشدّدَ القوانينَ عليهِمْ أوْ أنْ تعيدَهُمْ إلى سوريا. الحالةُ صارتْ لا تطاقُ!"

عرفتْ شادن أنّها المعنيّةُ بهذهِ الملاحظةِ، وشعرتْ كمْ هيَ مهدّدةٌ طوالَ الوقتِ. تذكّرتْ كيفَ اضطرّتْ أنْ تتركَ محلَّ أبي فارس بينَ ليلةٍ وضحاها بسببِ شخصٍ مؤمنٍ بما قالتهُ نتالي للتوِّ.

خرجتْ منَ المستودعِ وهيَ تحملُ لفّاتِ الكرتونِ. انتبهتْ نتالي فجأةً إلى وجودِها فقالتْ بإحراجٍ: "لمْ أقصدْكِ أنتِ بكلامي يا شادن. كنتُ أقصدُ الآخرينَ."

رمقتْها شادن بنظرةٍ ساخرةٍ ومشتْ رافعةً رأسَها عاليًا محاولةً جهدَها أنْ تحبسَ دموعَها. لمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى انتبهتِ السّيّدةُ نوال إلى أنَّ شادن قدْ فقدَتْ بريقَها وصارَ يبدو عليها الحزنُ والقنوطُ. استدعتْها مرّةً ثانيةً إلى المكتبِ وسألتْها:

- "ما بكِ يا شادن؟ يبدو أنَّ هناكَ ما يضايقُكِ. هلْ هناكَ أخبارٌ جديدةٌ عنْ أخيكِ ماجد؟"

- "لا... لمْ نسمعْ أيَّ خبرٍ جديدٍ عنهُ."

- "هلْ هناكَ منْ ضايقَكِ في المكتبةِ؟ يمكنُكِ أنْ تقولي لي."

- "لا... ولكنْ فقطْ أشعرُ أنّني دائمًا متطفّلةٌ ومهدّدةٌ في أيِّ مكانٍ أذهبُ إليهِ."

- "كنتُ أريدُ مفاجأتَكِ ولكنّني في الوقتِ الحاليِّ أستفسرُ منَ الجهاتِ المعنيّةِ عنْ إمكانيّةِ أنْ تسجّلي في برنامجِ الدّراسةِ الخاصّةِ في البكالوريا. وأنا مستعدّةٌ أنْ أدعمَكِ شخصيًّا حتّى تنهي دراستَكِ الثّانويّةَ، وطبعًا هذا بالإضافةِ إلى عملِكِ الجزئيِّ في المكتبةِ. ألمْ تقولي لي إنَّ هذا هوَ حلمُكِ؟"

كانَ بودِّ شادن أنْ تقفزَ منْ مكانِها وتحضنَ السّيّدةَ نوال ولكنّها اكتفتْ بقولِها: "هذا منايَ! لا أعرفُ كيفَ أشكرُكِ يا سيّدة نوال. لنْ أنسى مساندتَكِ لي ما حييتُ وتأكّدي أنّني سأكونُ عندَ حسنِ ظنّكِ."

خرجتْ شادن منْ مكتبِ السّيّدةِ نوال وهيَ تشعرُ أنَّ الدّنيا لا تسعُها. لمْ تكنْ تعرفُ هولَ ما ينتظرُها وأنَّ القدرَ يتربّصُ بها...

◆◆◆

48

رصاصة طائشة



لا يعرفُ أحدٌ منّا ما يخبّئُ لهُ القدرُ منْ مفاجآتٍ وصدماتٍ. كانتْ شادن تظنُّ أنّها أخذتْ حصّتَها منَ المصائبِ بلْ أكثرَ، وأنَّ حياتَها قدْ بدأتْ تستقرُّ، ولمْ تتخيّلْ أنْ يكونَ الأسوأُ ما يزالُ في انتظارِها.

هربتْ هيَ ووالدتُها منْ سوريا لتنجوا منَ الحربِ والقصفِ والدّمارِ فلحقَ بهما القدرُ المحتومُ وخطفَ نورَ حياتِها وسندَها ومظلّةَ أمانِها في هذا العالمِ... رصاصةٌ طائشةٌ أطلقَها شخصٌ غبيٌّ احتفالاً بعرسِ قريبٍ لهُ غيرَ آبهٍ بمنطقٍ أوْ بتحذيراتٍ منْ خطورةِ مثلِ هذهِ العاداتِ الباليةِ. أطلقَ رصاصةَ فرحٍ أخذتْ حياةَ إنسانةٍ بريئةٍ كانتْ في طريقِها إلى عملِها. رصاصةً جفّفتْ نبعَ محبّةٍ وعطاءٍ، وحطّمتْ قلبَ ابنةٍ تيتّمتْ وفقدتْ أعزَّ ما لديها... رصاصةً حوّلتِ الفرحَ إلى مأتمٍ والاحتفالَ إلى عزاءٍ... رصاصةً غيّرتْ مسارَ حياةِ شادن مرّةً أخرى وإلى الأبدِ...

وقعَ الخبرُ كالصّاعقةِ على شادن. لمْ يستوعبْ عقلُها ما تسمعُ: "أمّكِ... أمّكِ يا شادن... أصيبتْ... رصاصةٌ طائشةٌ... نقلوها إلى مستشفى الهلالِ الأحمرِ. رحمةُ اللهِ عليْها... وصلتْ متوفّاةً... العمر إلك."

تحوّلَ كلُّ شيءٍ حولَها إلى سوادٍ عميقٍ كسوادِ بئرٍ يردّدُ صدى كلماتٍ يقولُها النّاسُ

الّذينَ تجمّعوا حولَها. إنَّها ترى وتسمعُ ولكنّها لا تحسُّ... ما زالتْ تهوي في بئرٍ لا قرارَ لهُ وأصواتُ النّاسِ تبتعدُ رويدًا رويدًا.

لعلّها لوْ أغلقتْ عينيْها وفتحتهما مرّةً ثانيةً ستكتشفُ أنَّ ما تسمعُهُ وتشعرُ بهِ ليسَ إلا حلمًا مزعجًا. أخذتْ تتحسّسُ بيديْها الأشياءَ منْ حولِها علّها تستيقظُ منْ هذا المنامِ المزعجِ وتجدُ أمَّها نائمةً بقربِها تبتسمُ لها ثمَّ تقبّلُ جبينَها وهيَ تقولُ كعادتِها: "صباحُ الخيرِ يا شادن..." ولكنَّ يديها كانتا ترفرفانِ مثلَ عصفورٍ صغيرٍ في فضاءِ غرفةٍ لا وجودَ لأمّها فيها... فتجدُ نفسَها تعودُ إلى البئرِ وتبتعدُ أكثرَ وأكثرَ عنْ صدى الأصواتِ منْ حولِها. صوتُ خالِها يجهشُ بالبكاءِ وهوَ يقولُ: "أختي... أختي..." أصواتُ رجالٍ غاضبةٌ.... تحقيقٌ في الحادثِ. أمّ رامي... أولادُ خالِها... الجيرانُ منْ كلِّ صوبٍ... الكلُّ حولَها... بكاءٌ وعويلٌ... صراخٌ ونحيبٌ... صوتُ آياتٍ منَ الذّكرِ الحكيمِ... عزاء...

تجلسُ على الكنبةِ في غرفةِ الجلوسِ تنظرُ أمامَها. تجلسُ سنيّة قربَها وتحيطُها بذراعِها، تبكي وتقولُ: "عمّتي حبيبتي، رحمَها اللهُ، كانتْ إنسانةً رائعةً!"

تدخلُ شادن في نفقٍ طويلٍ... تبتعدُ فيهِ عنْ كلِّ ما حولَها... تجلسُ كالصّنمِ، تنظرُ أمامَها ولا تتفاعلُ مع أيِّ أحدٍ.

هُرِعتِ الخيّاطةُ بشرى فورَ سماعِها الخبرَ إلى بيتِ العزاءِ؛ فقدْ أصبحتْ زهرة صديقةً حميمةً لها.

بكتْ بحرقةٍ لأنَّ زهرة كانتْ في طريقِها لتوصلَ بعضَ الملابسِ إلى زبونةٍ وقتَ المغربِ عندَما وقعَ الحادثُ. لوْ لمْ تطلبْ منها أنْ تقومَ بهذهِ المهمّةِ لكانتْ زهرة

ما زالتْ على قيدِ الحياةِ... لوْ... لوْ... امتلأتِ الغرفةُ بعباراتِ المواساةِ المعهودةِ...

قضاءٌ وقدرٌ... الله يرحمها ويجعل مثواها الجنّة... نصيبُها... مسكينةٌ... اللي خلّف ما مات...... ادعوا لها...

اقتربتْ بشرى منْ شادن لتواسيَها، شعرتْ منْ نظراتِ شادن أنّها في مكانٍ بعيدٍ جدًّا. ابتعدتْ عنْها وهمستْ لأمّ رامي: "هلْ بكتْ؟ هلْ صرختْ؟"

قالتْ أمّ رامي: "لا... إنّها على هذهِ الحالةِ منذُ أنْ سمعتِ الخبرَ."

قالتْ بشرى: "لا يجوزُ أنْ نتركَها على هذا الحالِ وإلّا سنفقدُها إلى الأبدِ."

جلستْ بشرى قربَ شادن. تكلّمتْ معَها، فركتْ يديْها، مسحتْ وجهَها بماءٍ باردٍ وهزّتْها بلطفٍ وهيَ تناديها: "شادن! شادن! استيقظي! انظري حولَكِ!" ثمَّ هزّتْها بشدّةٍ أكبر، وعندَما لمْ تتفاعلْ معَها ضربتْها على خدّيْها ضرباتٍ قويّةً متلاحقةً وهيَ تقولُ: "ابكي يا شادن! ابكي! أمُّكِ ماتتْ! ابكي!"

نفرتْ الدّموعُ منْ عينيْ شادن وانفجرتْ في بكاءٍ وعويلٍ يقطّعُ نياطَ القلوبِ. بكى كلُّ منْ في الغرفةِ وعلا نشيجهُم وهيَ تصرخُ: "لا... لا... لا..." ظلّتْ تنادي: "أمّي... أمّي... لا تتركيني يا أمّي... لا تتركيني."

◆◆◆

49

صدمة قويّة



توالتِ الأيّامُ والأسابيعُ وشادن في دوّامةٍ منَ الحزنِ والاكتئابِ. لا تغادرُ غرفتَها إلّا عندَما تصرُّ عليْها عائلةُ خالِها كيْ تجلسَ معهُمْ لتناولِ الطّعامِ، فتقولُ أمّ رامي: "لا يجوزُ يا شادن أنْ تظلّي دونَ تناولِ الطّعامِ. أنتِ صبيّةٌ وجسمُكِ يحتاجُ إلى الغذاءِ لتبقيْ في صحّةٍ جيّدةٍ. أمّا خالُها فقدْ كانَ يمدُّ لها قطعةً منَ الدّجاجِ وهوَ يقولُ: "كلي هذهِ القطعةَ يا شادن منْ يدِ خالِكِ. سأغضبُ إنْ لمْ تأكلي." تقضمُ قطعةً صغيرةً فقط ثمَّ تتركُها جانبًا. يتنهّدُ الخالُ قائلاً: "لا حول ولا قوّةَ إلّا باللهِ."

حاولتْ سنيّة وإخوتُها أن يخفّفوا عنْ شادن. في أحدِ الأيّامِ، اقتربَ منْها مصطفى الصّغيرُ وأعطاها رسمةً وهوَ يقولُ: "شوفي يا شادن شو رسمت لك. هاي أنتِ، وهاي عمتو أم ماجد."

ولمْ يفهمْ لماذا انفجرتْ شادن باكيةً عندَما رأتِ الرّسمةَ. بكى مصطفى وهوَ يقولُ: "لمْ أقصدْ... لمْ أقصدْ."

حضنتْهُ شادن قائلةً: "أعرفُ يا مصطفى. شكرًا لكَ على اللّوحةِ الجميلةِ." وأسرعتْ عائدةً إلى غرفتِها...

بعدَ فترةٍ منَ الزّمنِ، ملّتْ عائلةُ خالِها منْ هذا الحزنِ المتواصلِ وصارتْ تشعرُ بأنَّ شادن أصبحتْ تشكّلُ حملاً ثقيلاً إضافيًّا على العائلةِ. إذا ضحكَ أحدُهُم يشعرُ بالذّنبِ وينظرُ إليها وكأنّهُ يعتذرُ منْها. كانوا يخفضونَ صوتَ التّلفازِ أثناءَ متابعةِ مسلسلِهِمُ المفضّلِ حتّى لا يزعجوا شادن. بعدَ مدّةٍ بدأَ الجميعُ يحثّونَها على العودةِ إلى حياتِها الطّبيعيّةِ.

وفي أحدِ الأيّامِ قالتْ أمّ رامي لشادن: "ما رأيكِ أنْ تنامَ سنيّة معكِ في الغرفةِ حتّى تونّسك؟" قالتْ سنيّة بنزقٍ عندَما رأتْ رفضَ الفكرةِ واضحًا في عينيْ شادن: "أنتِ تعرفينَ أنَّ هذهِ غرفتي وقد أعطيتُها لكِ وللمرحومةِ عمّتي لفترةٍ منَ الزّمنِ أمّا الآنَ..."

هزّتْ شادن رأسَها دونَ مبالاةٍ وهيَ تقولُ: "لا شيءَ يهمُّ..."

احتاجتْ شادن إلى صدمةٍ قويّةٍ تجعلُها تمسكُ بزمامِ حياتِها منْ جديدٍ. اكتشفتْ أنَّ عليْها أنْ تجدَ القوّةَ داخلَها لتستمرَّ وتبنيَ حياتَها مرّةً أخرى. لا أحدَ يمكنُهُ أنْ يقومَ بذلكَ نيابةً عنْها. تذكّرتْ سميح وماجد ووالدَها ووالدتَها وكلَّ منِ اعتمدتْ على قوّتِهِمْ وحكمتِهِمْ. أينَ همُ الآنَ؟ صارتْ نظرةُ الشّفقةِ في أعينِ النّاسِ منْ حولِها تزعجُها، وكلمةُ "مسكينة" تغضبُها. إلى أن جاءَ يومٌ سمعتْ فيهِ حوارًا بينَ زوجةِ خالها وجارتِها...

- "يا أمّ رامي، الله يعطيك العافية أنت وزوجك. ألا يكفيكما الحملُ الّذي يثقلُ كاهليْكما؟ والآنَ عليكما أنْ تتحمّلا عبئًا آخرَ. تقطّعَ قلبي على هذهِ المسكينةِ. صارتْ يتيمةَ الأبِ والأمِّ وليسَ لها إلّا اللهُ وأنتمْ. لقدْ جئتُ لزيارتِكِ لأقترحَ

عليكِ حلّا يساعدُ هذهِ المسكينةَ كيْ تجدَ سندًا ومعيلاً."

- "وما هوَ هذا الحلُّ؟"

- "هناكَ رجلٌ مقتدرٌ يعيشُ في الخليجِ، ويفتّشُ عنْ عروسٍ صغيرةٍ سوريّةٍ. وشادن مناسبةٌ لهُ. ويريدُ أنْ يصنعَ خيرًا ويتزوّجَها ويسترَها."

- "يعني... كمْ عمرُهُ؟"

- "لا يزالُ في عزِّ شبابِهِ. خمسونَ أو خمسةٌ وأربعونَ سنةً. إنّهُ متزوّجٌ وعندَهُ أولادٌ ولكنَّ حالتَهُ الماديّةَ تسمحُ لهُ بأنْ ينفقَ على زوجةٍ ثانيةٍ. ما رأيكِ؟"

- "ولكنَّ فارقَ العمرِ كبيرٌ جدًّا."

- "كبيرٌ! ليسَ كبيرًا! إنّهُ رجلٌ مقتدرٌ. ستعيشُ في العزِّ والدّلالِ. وسيدفعُ لخالِها مَهْرًا محترمًا."

- "لا أدري يا فاطمة. شادن عنيدةٌ جدًّا! سأسألُ خالَها وأسألُها. ولكنْ قدْ يكونُ معكِ حقٌّ. يمكنُ أنْ يكونَ هذا الحلَّ الأفضلَ. مصيرُ البنتِ أنْ تتزوّجَ. الزّواجُ سِتْرٌ لها، باركَ اللهُ فيكِ يا جارتي. هلْ تشربينَ قهوةً أمْ شايًا؟"

هزَّ شادن هذا الحديثُ الّذي سمعتْهُ خلسةً وأخرجَها منْ حالةِ اللامبالاةِ والاكتئابِ. شعرتْ بالغضبِ على نفسِها وعلى كلِّ منْ همْ حولَها. كيفَ سمحتْ لنفسِها أنْ تصلَ إلى هذهِ المرحلةِ منَ الضّعفِ والاستسلامِ؟ كيفَ تحوّلتْ فجأةً في نظرِ الجميعِ إلى همٍّ يتمنّوْنَ إزاحتَهُ والخلاصَ منهُ؟ كيفَ صارتْ سلعةً تباعُ

وتشترى؟ كيفَ تتركُ للآخرينَ فرصةَ تقريرِ مصيرِها؟ لمْ يكنْ هذا ليرضيَ والدَها ولا والدتَها...

لا حاجةَ للمواجهةِ... عليها أن تقفَ على قدميْها من جديدٍ وتُخرجَ نفسَها من دوّامةِ الحزنِ وتحدّدَ مصيرَها بنفسِها.

في صباحِ اليومِ التّالي، استغربَ الجميعُ عندَما استعدّتْ شادن للخروجِ منَ البيتِ باكرًا. سألتها أمّ رامي: "إلى أين تذهبين؟"

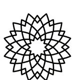
- "آنَ الأوانُ كيْ أعودَ إلى العملِ. السّيّدةُ نوال في المكتبةِ ستقبلُ بعودَتي عندَما تعرفُ ظروفي. ستتفهّمُ ما حدثَ وستعطيني فرصةً أخرى. وإنْ شاءَ اللهُ سأشاركُ معكُمْ في مصاريفِ البيتِ تمامًا كما كانتْ تفعلُ أمّي."

خرجتْ منَ البيتِ ونظراتُ الدّهشةِ في عيونِهِمْ تلاحقُها.



50

حلّ جذريّ



خرجتْ شادن منَ البيتِ ولكنّها لمْ تذهبْ إلى المكتبةِ كما قالتْ لعائلةِ خالِها. قرّرتْ ألّا تعودَ إلى المكتبةِ للعملِ فيها. لقدْ كانَ هذا العملُ حلاً مؤقّتًا وهيَ الآنَ تحتاجُ إلى حلٍّ جذريٍّ لمشكلتِها.

تذكّرتْ رغبةَ والدِها الأخيرةَ بأنْ تبذلَ كلَّ ما بوسعِها لتذهبَ إلى السّويد وتعيشَ عندَ عمِّها. يبدو لها الآنَ أنَّ السّفرَ إلى السّويد، وبأيِّ طريقةٍ ممكنةٍ، هوَ الحلُّ الوحيدُ المناسبُ لها.

عندَما رأتها تيريزا شهقتْ باستغرابٍ: "أينَ كنتِ يا شادن؟ اختفيتِ تمامًا وكأنَّ الأرضَ انشقّتْ وابتلعتكِ. حاولتُ الاتّصالَ بكِ مرارًا ولكنَّ هاتفَكِ كانَ مغلقًا. سألتُ عنكِ في المكتبةِ فقالوا لي إنّكِ توقّفتِ فجأةً عنِ الدّوامِ هناكَ. سألتْني السّيّدةُ نوال عنكِ أكثرَ منْ مرّةٍ. كانَ بالُها مشغولاً عليكِ أيضًا."

حاولتْ شادن أنْ تحبسَ دموعَها ولكنَّها فشلتْ. حضنتْها تيريزا: "قولي لي ماذا حصلَ؟ ما بكِ؟ لا تخفي عنّي شيئًا، أنا صديقتُكِ."

عندَما عرفتْ تيريزا ما مرّتْ بهِ شادن، بكتْ معَها وقالتْ لها: "كمْ هذا محزنٌ يا صديقتي. لوْ كنتُ أعرفُ بيتَ خالِكِ لجئتُ إليكِ. قولي لي، كيفَ يمكنُني أنْ

أساعدَكِ؟"

- "قرّرتُ أنْ أسافرَ إلى السّويد عندَ عمّي كما أوصاني والدي."

- "ولكنْ... الفيزا؟"

- "هذا ما أريدُ منكِ أنْ تساعديني فيهِ."

- "الفيزا؟!"

- "لا... أريدُ منكِ أنْ تتّصلي بشادي وترتّبي لي لقاءً معهُ."

- "لماذا؟"

- "لأطلبَ منهُ أنْ يساعدَني في السّفرِ على أحدِ القواربِ."

- "هلْ جننتِ؟ أتفكّرينَ بالسّفرِ مثلَ هؤلاءِ المساكينِ الّذين يلقونَ حتفهُمْ وسطَ البحرِ؟"

- "نعمْ يا تيريزا. فأنا الآنَ أقولُ مثلما يقولُ شادي، لا يوجدُ لديَّ ما أخسرُهُ. أرجوكِ اتّصلي بهِ واطلبي منهُ أنْ يقابلَنا في المقهى المعتادِ بعدَ الدّوامِ."

في المقهى، سلّمَ شادي على تيريزا وشادن وهوَ ينظرُ إليهِمْا بفضولٍ محاولاً أن يحزرَ سببَ الاتّصالِ بهِ. قفزَ منْ كرسيّهِ بغضبٍ عندَما أخبرتْهُ شادن بما تريدُ، ثمَّ تمالكَ نفسَهُ وعادَ إلى الجلوسِ: "شادن... لا أنصحُكِ أنْ تقومي بهذهِ المغامرةِ بتاتًا. إنّها خطرةٌ ولا أستطيعُ أنْ أتحمّلَ مسؤوليّةَ مساعدتِكِ. أعتذرُ... عليكِ أنْ

تجدي حلاًّ آخرَ."

اكفهرَّ وجهُ شادن وسألتْهُ بغيظٍ: "هلْ رجعتَ عنْ رأيكَ في السّفرِ؟"

نظرَ بعيدًا وقالَ: "لا، ولكنّني أتحمّلُ مسؤوليّةَ نفسي ومسؤوليّةَ قراراتي ولا أستطيعُ أنْ أشجّعَكِ أوْ أساعدَكِ."

قضتْ شادن أكثرَ منْ ساعةٍ وهيَ تحاورُ شادي ولكنْ دونَ جدوى، وأخيرًا قالتْ لهُ بغضبٍ: "أنا أيضًا أتحمّلُ مسؤوليّةَ نفسي ومسؤوليّةَ قراراتي وإذا لمْ تساعدْني فسأجدُ شخصًا آخرَ ليساعدني."

خرجَ شادي منَ المقهى ولكنّهُ عادَ بعدَ دقائقَ وقالَ: "لا أستطيعُ أنْ أتركَكِ تغامرينَ مع أشخاصٍ آخرينَ. هناكَ الكثيرُ منَ النّصّابينَ الّذينَ يعتاشونَ منْ خداعِ أمثالِنا. بما أنّكِ مصمّمةٌ إذًا دعينا نتقابلُ غدًا في نفسِ الوقتِ لنتحدّثَ في التّفاصيلِ." وخرجَ منَ المقهى.

قالتْ تيريزا: "لا أصدّقُ ما سمعتُ. لا بدَّ أنْ يكونَ هناكَ حلٌّ آخرُ. ما أخبارُ سميح؟"

- "لا خبرَ منهُ أوْ عنْ ماجد. ألا تفهمينَ يا تيريزا؟ لا يوجدُ أحدٌ غيري ليهتمَّ بي. الحربُ ما زالتْ مشتعلةً في سوريا. لا أستطيعُ العودةَ إلى بلدي، وأنا هنا في لبنان بصفةٍ غيرِ رسميّةٍ. أشعرُ بالامتنانِ لخالي ولعائلتِهِ لمساعدتِهِمْ لي ولأمّي عندَما كنّا في أمسِّ الحاجةِ لذلكَ، ولكنّني، بصراحةٍ، لا أستطيعُ أنْ أستمرَّ في العيشِ في بيتِ خالي في المخيّمِ خاصّةً بعدَ أنْ سمعتُ ما دارَ بينَ زوجةِ خالي

وجارتِها. هلْ تريدينَ منّي أنْ أتزوّجَ هذا الرّجلَ الخمسينيَّ المتزوّجَ أصلاً وعندَهُ دزّينةُ أطفالٍ؟ بنظرِهمْ هذا هوَ الحلُّ الأمثلُ."

ضحكتْ تيريزا وقالتْ: "طبعًا لا..."

- "إذًا يبدو أنَّ السّفرَ بالقواربِ غيرِ الشّرعيّةِ هوَ خياري المتبقّي الوحيدُ."

في تلكَ اللّيلةِ وعندَما عادتْ شادن إلى البيتِ، كتبتْ رسالةً للسّيّدةِ نوال، التي لم تنسَ لطفَها معها، تشكرُها على كلِّ ما قامتْ بهِ منْ أجلِها وتوضّحُ فيها ظروفَها.

عزيزتي السّيّدة نوال،

أودُّ أوّلاً أنْ أعبّرَ عنْ شكري لكِ، وتقديري العميقِ لمساندتِكِ لي بإعطائي وظيفةً في المكتبةِ عندَما كنتُ في أمسِّ الحاجةِ إليها. بذلتُ ما في وسعي لأكونَ عندَ حسنِ ظنّكِ، وتأثّرتُ كثيرًا عندَما عرفتُ أنّكِ تسعينَ لمساعدتي كيْ أحقّقَ حلمي بمتابعةِ تعليمي والحصولِ على البكالوريا لأتمكّنَ بعدَ ذلكَ منَ الالتحاقِ بالجامعة. لا بدَّ أنّكِ تساءلتِ في نفسِكِ عمّا حصلَ لي ولماذا لمْ أعدْ إلى المكتبةِ.

آخٍ يا مدام نوال... ما حصلَ لمْ يكنْ في الحسبانِ. كلُّ ما تحمّلتُهُ منْ مصاعبَ في السّنةِ الماضيةِ لا يوازي صدمةَ فقدانِ أعزِّ إنسانٍ في حياتي... أمّي، سندي وبئرِ الحنانِ الّذي طالما كنتُ أستمدُّ قوّتي وعزمي منْهُ.

لقدْ فقدتُ أمّي برصاصةٍ طائشةٍ أطلقَها أحدُهُمْ تعبيرًا عنْ فرحِهِ بزواجِ قريبٍ لهُ فسرقَ فرحي إلى الأبدِ.

أنا الآنَ أقفُ على مفترقِ طرقٍ وعليَّ أنْ أتّخذَ القرارَ الصّحيحَ. قرّرتُ

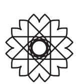
أنْ أسافرَ إلى عمّي في السّويد، وقدْ كانتْ هذهِ وصيّةَ والدي رحمةُ اللهِ عليهِ. لمْ أستطعْ أنْ أغادرَ لبنان دونَ أنْ أوضّحَ لكِ سببَ غيابي عنِ المكتبةِ. لنْ أنساكِ أبدًا يا مدام نوال.

شادن

◆◆◆

51

الاستعداد للرّحلة



قالَ شادي: "اسمعي جيّدًا يا شادن! الموضوعُ ليسَ لعبةً أوْ نزوةً بلْ إنّهُ موضوعٌ جادٌّ، مسألةُ حياةٍ أوْ موتٍ. طلبتُ أنْ أقابلَكِ اليومَ لأنَّ موعدَ الرّحلةِ قدِ اقتربَ وأحببتُ أنْ أشرحَ لكِ أكثرَ عنْ تفاصيلِها. منَ الأفضلِ السّفرُ قبلَ حلولِ فصلِ الشّتاءِ وتغيّرِ الطّقسِ الذي يزيدُ الوضعَ خطورةً. تحتاجينَ على الأقلِّ خمسةَ آلافِ دولارٍ لكافّةِ المصاريفِ الّتي ستترتّبُ عليكِ، هلْ يتوفّرُ معكِ هذا المبلغُ؟ بالنسبةِ لي فقد تمكّنتُ بصعوبةٍ بالغةٍ منْ جمعِهِ."

كانَ شادي يأملُ أنْ يسمعَ منْ شادن أنَّ المبلغَ كبيرٌ ولا يتوفّرُ معَها كيْ لا يتحمّلَ مسؤوليّتَها، ولكنّهُ استغربَ عندَما قالتْ لهُ بكلِّ ثقةٍ: "نعمْ، يتوفّرُ معي هذا المبلغُ. هلْ أحتاجُ لشيءٍ آخرَ أيضًا؟"

أرادَ أنْ يسألَها منْ أينَ حصلتْ على مثلِ هذا المبلغِ، ولكنّهُ رأى في عينيْها عدمَ رغبةٍ في التّحدّثِ في الموضوعِ فأردفَ قائلاً: "لا نحتاجُ إلى أيِّ أمتعةٍ، باستثناءِ غياراتٍ بسيطةٍ وبعضِ الأشياءِ الضّروريةِ في حقيبةٍ على الظّهرِ. أهمُّ شيءٍ هوَ الهاتفُ لأنّهُ خطُّ الحياةِ بالنّسبةِ لنا. أوّلُ مرحلةٍ منَ الرّحلةِ، السّفرُ إلى تركيا وأرخصُ طريقةٍ هيَ ركوبُ العبّارَةِ منْ ميناءِ طرابلس إلى تركيا. الرّحلةُ إلى أوروبا محفوفةٌ بالمخاطرِ وعلينا أنْ نقطعَ حدودَ عدّةِ دولٍ، وكلُّ هذهِ الدّولِ

متأهّبةٌ لمحاربتِنا ومنعِنا منَ المرورِ. هلْ ما زلتِ مصمّمةً على الذّهابِ؟"

هزّتْ شادن رأسَها وهيَ تقولُ بإصرارٍ: "نعمْ، هذا قراري ولنْ أحيدَ عنهُ."

وأثناءَ احتسائِهما فنجانًا منَ القهوةِ، أسرّتْ شادن لشادي بظروفِها الصّعبةِ الّتي لمْ تتركْ لها سوى هذا الخيارِ.

ولأوّلِ مرّةٍ حكى لها شادي تفاصيلَ عنْ حياتِهِ الخاصّةِ. عرفتْ منهُ أنَّ معظمَ عائلتِهِ قدْ قضتْ في قصفٍ صاروخيٍّ على مدينةِ حلب، أمّا زوجتُهُ الحاملُ فقدْ نجتْ لأنّها كانتْ في زيارةٍ لعائلتِها في منطقةٍ أخرى.

وهوَ بهذهِ المغامرةِ والمخاطرةِ يحاولُ أنْ يؤسّسَ لحياةٍ أفضلَ لهُ ولزوجتِهِ ولطفلِهِ المرتقبِ خارجَ سوريا.

إنّهُ ينوي أنْ يذهبَ أوّلاً، وبعدَ أنْ يستقرَّ سيتقدّمُ بطلبٍ إلى السّلطاتِ المعنيّةِ ليلمَّ شملَ عائلتِهِ. كمْ يشعرُ بالحزنِ العميقِ لأنَّ طفلَهُ سيرى النّورَ وهوَ بعيدٌ عنهُ.

تأثّرتْ شادن بحديثِ شادي وتعاطفتْ معهُ وأحسّتْ برابطٍ قويٍّ يجمعُهُما. بعدَ هذا البوحِ المتبادلِ اطمأنّتْ نفسُها لأنّها وجدتْ صديقًا وأخًا يرافقُها في هذهِ الرّحلةِ الصّعبةِ والطّويلةِ.

قالَ شادي: "بما أنّكِ مازلتِ مصرّةً على السّفرِ، سأتّصلُ بمنظّمي الرّحلةِ لأتأكّدَ منْ وجودِ مكانٍ لكِ على القاربِ."

شعرتْ شادن ببعضِ الرّهبةِ، ولكنّها حافظتْ على رباطةِ جأشِها ولمْ تظهرْ مشاعرَها أمامَ شادي. كتبتْ رسالةً لخالِها والدّموعُ تسيلُ على خدّيْها تقولُ فيها:

خالي الحبيب،

عندَما تصلُكَ رسالتي هذهِ سأكونُ في طريقي إلى السّويد. كما أخبرتْكَ أمّي، فقدْ تعثّرتْ محاولةُ الحصولِ على الفيزا أكثرَ منْ مرّةٍ؛ لذا وبعدَ تفكيرٍ طويلٍ، قرّرتُ السّفرَ مع مجموعةٍ منَ العائلاتِ السّوريّةِ عبرَ تركيا إلى أوروبا. لا تشغلْ بالَكَ يا خالي، فكثيرٌ منَ النّاسِ نجحوا في العبورِ إلى أوروبا وهمُ الآنَ يعيشونَ فيها حياةً كريمةً. كُلّي رجاءٌ أنْ تسامحَني على اتّخاذِ هذا القرارِ المصيريّ دونَ أنْ أستشيرَكَ أوْ أعلمَكَ مسبقًا بالأمر، ولكنّي كنتُ أعرفُ أنَّ قلبَكَ الحنونَ سيحاولُ أنْ يحميَني منْ نفسي، وأنّكَ كنتَ ستمنعُني منَ السّفرِ بأيِّ طريقةٍ؛ لذا قرّرتُ أنْ أكتبَ لكَ هذهِ الرّسالةَ بدلاً منْ أنْ أخبرَكَ مباشرةً بما أنوي عملَهُ. أوصاني والدي -رحمهُ الله- وهوَ يلفظُ أنفاسَهُ الأخيرةَ بأنْ أسافرَ إلى عمّي في السّويد. أرادَ لي أنْ أحصلَ على فرصةٍ في حياةٍ أفضلَ إلى أنْ تستقرَّ الأمورُ في سوريا. كنّا نخطّطُ أنا وأمّي أنْ نسافرَ معًا عندَما نحصلُ على الفيزا. كنّا نأملُ أنْ يخرجَ ماجد منَ السّجنِ ونعودَ لنبنيَ حياتَنا منْ جديدٍ في سوريا، ولكنْ... حتّى الآنَ يا خالي لا أصدّقُ أنَّ أمّي رحلتْ إلى الأبدِ. لوعةُ فراقِها لا تغادرُني لحظةً. أينَما أنظرْ يخيّلْ لي أنّني أراها فيملأُ الأملُ قلبي وأهمُّ باللّحاقِ بها، أناديها وعندَما

تستديرُ نحوي أرى بدلاً منْ وجهِها الباسمِ وجهَ امرأةٍ غريبةٍ عنّي تنظرُ إليَّ باستغرابٍ. سامحني يا خالي لقدْ أخطأتُ بحقّكَ... أعرفُ كمْ كانتْ أمّي تحبّكَ وتستمتعُ بجلساتِكُما معًا وأنتما تسترجعانِ ذكرياتِ وشقاواتِ الطّفولةِ وضحكاتِكُما الّتي كانتْ تملأُ الحارةَ في تلكَ الأيّام. أعرفُ كمْ تأثّرتَ لوفاتِها... وأنتَ يا خالي لمْ تقصّرْ في حقِّنا... فتحتَ لنا بيتَكَ وحضنتَنا مع أنَّكَ تحملُ مسؤوليّاتٍ عائليّةً كبيرةً ولا تحتاجُ لمنْ يضيفُ إليها همومًا أخرى. سامحْني يا خالي وحاولْ أنْ تتفهّمَ موقفي. أعدُكَ بأنّني سأظلُّ على اتّصالٍ بكَ حتّى لا تقلقَ عليَّ. وسلامٌ خاصٌّ لكلِّ فردٍ منْ أفرادِ العائلةِ.

مع محبّتي،

شادن

أعطتِ الرّسالةَ لتيريزا لتعملَ على إيصالِها إلى خالِها بعدَ سفرِها كيْ يعرفَ سببَ غيابِها المفاجىءِ. اشترتِ الأغراضَ الّتي تحتاجُ إليها وتركتْها في بيتِ تيريزا، وفي آخرِ يومٍ لها قبلَ السّفرِ، طلبتِ الإذنَ منْ خالِها لتبيتَ ليلتَها عندَ صديقتِها تيريزا بحجّةِ أنَّ والدتَها دخلتِ المستشفى وأنَّ حالتَها صعبةٌ. شعرتْ بالخجلِ منْ نفسِها وهيَ تكذبُ على خالِها الرّقيقِ اللّطيفِ الّذي حضنَها وانكسرَ قلبُهُ على فراقِ أختِهِ. لا يوجدُ أمامَها خيارٌ آخرُ. حتّى هذهِ الكذبةُ لمْ تنقذْها منَ انتقاداتِ زوجةِ خالها الّتي احتجّتْ بشدّةٍ على مبيتِ شادن خارجَ البيتِ، فهيَ من وجهةِ نظرِها فتاةٌ في عمرِ الزّواجِ وعليها أنْ تهتمَّ بسمعتِها.

في آخرِ ليلةٍ لشادن في بيتِ خالِها، تعمّدتْ أنْ تكونَ لطيفةً معَ الجميعِ. لاعبتْ

رامي، واستمعتْ إلى قصصِ سنيّة، وساعدتْ رحمة في دروسِها. أصرّتْ أنْ تغسلَ مواعينَ الطّعامِ وحدَها وحضّرتْ إبريقَ شايٍ للجميعِ.

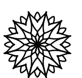
وبعدَ أنْ نامَ الجميعُ فكّتِ الحزامَ عنْ خصرِها وحكّتْ مكانَهُ. لقدْ تركَ أثرًا واضحًا في جسمِها. وضعتْ بعضَ البودرة لتخفيفِ الاحتكاكِ ثمَّ عدّتْ ما تبقّى معَها منْ مالٍ ووضعتْ بعضًا منهُ في محفظتِها لمصروفِها اليوميِّ. تفحّصتِ الأوراقَ الرّسميّةَ لعائلتِها. بكتْ وهيَ تفتحُ جوازاتِ سفرِ والدِها ووالدتِها. وضعتِ النّقودَ والأوراقَ الرّسميّةَ في أكياسِ نايلون محكمةِ الإغلاقِ ثمَّ أعادتْها إلى جيوبِ الحزامِ ولفّتهُ حولَ خصرِها مرّةً ثانيةً.

جافاها النّومُ، وتزاحمتِ الأفكارُ في مخيّلتِها... كيفَ حالُكَ يا ماجد؟ هلْ سأراكَ ثانيةً؟

وأنتَ يا سميح... لا أفهمُ ما الّذي حصلَ لكَ؟ لماذا تخلّيتَ عنّي وأنا في أمسِّ الحاجةِ إليكَ؟ لماذا؟ لماذا؟

◆◆◆

52
غيبوبة



فتحَ سميح عينيْهِ ونظرَ إلى سقفِ الغرفةِ الأبيضِ وهوَ يحاولُ أنْ يتذكّرَ أينَ هوَ وما الّذي حصلَ لهُ.

حرّكَ رأسَهُ ببطءٍ وتلاقتْ عيناهُ بعينيْ شابٍّ يحدّقُ مشدوهًا بهِ منَ السّريرِ المجاورِ لهُ.

اعتدلَ الشّابُّ في سريرِهِ وهوَ يقولُ فرحًا: "الحمدُ للهِ على السّلامةِ! وأخيرًا خرجتَ منَ الغيبوبةِ!" وضغطَ بإصرارٍ على الجرسِ المتدلّي قربَهُ يطلبُ الممرّضةَ.

عندَما فتحتِ الممرّضةُ البابَ ورأتْ سميح ينظرُ حولَهُ، أسرعتْ فرحةً تطلبُ الطّبيبَ المناوبَ، ثمَّ عادتْ بسرعةٍ إلى الغرفةِ. قالتْ لسميح وهيَ تقرأُ ضغطَهُ عنِ الشّاشةِ أمامَها: "كمْ ستفرحُ والدتُكَ وعائلتُكَ بهذا الخبرِ! في الحقيقةِ أمُّكَ تلازمُكَ ليلاً ونهارًا، ولكنْ صدفَ أنْ عادتْ هذا الصّباحَ إلى البيتِ بعدَ إلحاحٍ منَ الجميعِ لترتاحَ قليلاً وتغيّرَ ملابسَها."

حاولَ سميح أنْ يتكلّمَ ولكنَّ أنبوبَ الطّعامِ الدّاخلَ منْ أنفِهِ إلى معدتِهِ جعلَ الكلامَ صعبًا. شعرَ بتعبٍ شديدٍ؛ فأغمضَ عينيْهِ مرّةً ثانيةً إلّا أنَّ الممرّضةَ ظلّتْ تكلّمُهُ خوفًا منْ أنْ يعودَ إلى الغيبوبةِ.

أشارَ الطّبيبُ إليها أنْ تسحبَ الأنبوبَ، وتبدأَ بإعطائِهِ بعضَ الماءِ ليفحصَ قدرتَهُ على البلعِ.

وما هيَ إلّا لحظاتٌ حتّى امتلأتِ الغرفةُ بأفرادِ العائلةِ، واختلطَ البكاءُ بالضّحكِ فرحًا بعودةِ سميح إلى الحياةِ. علتِ الأصواتُ بالدّعاءِ والشّكرِ.

لمْ يتذكّرْ سميح ما حصلَ معهُ وكانَ سببًا في دخولِهِ إلى المستشفى. أخبرَهُ والدُهُ أنّهُ أصيبَ أثناءَ تطوّعهِ معَ الدّفاعِ المدنيِّ بعدَ انفجارٍ صاروخيٍّ كبيرٍ هدمَ العديدَ منَ العماراتِ السّكنيّةِ فوقَ رؤوسِ أصحابِها، تلاهُ صاروخٌ آخرُ أصابَ جماعاتِ الإنقاذِ الّتي هرعتْ إلى المكانِ لتخرجَ السّكّانَ منْ تحتِ الأنقاضِ. أصيبَ سميح بضربةٍ قويّةٍ على الرّأسِ دفعتْ بهِ تحتَ الرّكامِ ففقدَ وعيَهُ ودخلَ في غيبوبةٍ.

لمْ يخبرْهُ والدُهُ أنَّ أربعةً منْ أصدقائِهِ في الدّفاعِ المدنيِّ فقدوا حياتَهمْ في ذلكَ القصفِ. تركَ هذا الخبرَ المؤلمَ حتّى يتعافى ابنُه تمامًا.

يومًا بعدَ يومٍ... ومعَ العلاجِ الطّبيعيِّ، تحسّنت حالةُ سميح فبدأَ يمشي خطواتٍ قليلةً في الغرفةِ ثمَّ صارَ يمشي في الممرِّ لمدّةٍ أطولَ وأطولَ إلى أنْ قوِيَتْ عضلاتُهُ.

بعدَ عدّةِ أيّامٍ، سألَ والدتَهُ عنْ هاتفِهِ فقالتْ لهُ: "يا ابني، هاتفُكَ تحطّمَ في الحادثِ ولكنّنا تمكّنّا منْ إخراجِ الشّريحةِ منهُ، وقدِ احتفظتْ بها ابنةُ خالتِكَ نرمين، وأظنُّ أنّها وضعتْها في هاتفِها الإضافيّ كيْ لا يُفصَلَ خطّكَ. لا تهتمَّ يا حبيبي، المهمُّ أنّكَ بخيرٍ، سنشتري لكَ هاتفًا جديدًا."

صمتَتْ لبرهةٍ ثمَّ ابتسمتْ وقالتْ: "نرمين تسألُ عنكَ دائمًا، وسوفَ تحضرُ مع

والدتِها لزيارتِكَ غدًا. المسكينةُ لمْ تتوقّفْ عنِ البكاءِ وأنتَ في الغيبوبةِ."

تجاهلَ سميح تلميحاتِ والدتِه. فمنذُ طفولتِهِ وهيَ تخطّطُ مع خالتِه لتزويجِهِما. "سميح لنرمين ونرمين لسميح". بدأتْ كنكتةٍ وهمْ أطفالٌ وأصبحتْ حقيقةً في نظرِ الجميعِ عندَما كبرا. كمْ منْ مرّةٍ أخبرَ والدتَهُ أنَّ نرمين بالنّسبةِ لهُ مثلُ أختِهِ ولا يُكِنُّ لها أيَّ مشاعرَ أخرى. ولكنْ يبدو أنَّ والدتَهُ أصبحتْ أكثرَ إصرارًا على الموضوعِ بعدَ إصابتِهِ، فقالتْ وهيَ تقدّمُ لهُ كوبًا منَ العصيرِ: "واللهِ يا سميح نحنُ بأمسِّ الحاجةِ إلى فرحٍ بعدَ كلِّ هذا العذابِ، مُنانا أنا ووالدكَ أنْ نرى أحفادَنا ونفرحَ بهمْ. نرمين فتاةٌ ممتازةٌ وتحبّكَ جدًّا... لنْ تجدَ مثلَها."

امتعضَ سميح منْ كلامِها وظهرَ ذلكَ على تعبيراتِ وجهِهِ فتراجعتْ بقولِها: "إنّني أمزحُ معكَ يا سميح. أعرفُ أنَّ كلَّ شيءٍ في الدّنيا نصيبٌ."

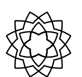
بعدَ عدّةِ أيّامٍ، تذكّرَ سميح شريحةَ هاتفِهِ، وعندَما حضرتْ نرمين لزيارتِهِ مع خالتِهِ سألَها عنْها. احمرَّ وجهُ نرمين خجلاً وقالتْ: "احتفظتُ بالشّريحةِ في هاتفي القديمِ كيْ لا تضيعَ. ولكنّني قمتُ بمسحِ كلِّ الأرقامِ بالخطأِ... أعتذرُ منكَ يا سميح... حقًّا أنا آسفةٌ."

أدارَ سميح وجهَهُ غضبًا وقالَ: "لماذا يا نرمين؟ لماذا؟ كيفَ لي أنْ أحصلَ على أرقامِ أصحابي الآنَ؟" ولكنّهُ في عقلِهِ الباطنِ كانَ يفكّرُ: "كيفَ سأتّصلُ بشادن؟ منَ المؤكّدِ أنّها حاولتِ الاتّصالَ بي. لا بدَّ أنّها تظنُّ أنّني تخلّيتُ عنْها؟"

وفي نفسِ الوقتِ كانتْ نرمين تفكّرُ: "منَ الأفضلِ أنَّ الأرقامَ القديمةَ مُسحتْ، فلنْ تتمكّنَ هذهِ الّتي اسمُها شادن منْ أنْ تتواصلَ معهُ منْ جديدٍ."

53

بدأت الرّحلة



في ميناءِ طرابلسَ، عرّفَ شادي أصدقاءَهُ على شادن قائلاً: "هذهِ شادن وهيَ صديقةٌ عزيزةٌ لتيريزا وخطيبِها سليم وستسافرُ معنا. شادن ترغبُ في الوصولِ إلى السّويد حيثُ تعيشُ عائلةُ عمّها. أُعرّفكِ يا شادن على صديقي منذُ الطّفولةِ، أشرف وزوجتِهِ ميساء وهذهِ الصّغيرةُ الأمّورةُ ابنتُهم أميرة ، صارتْ كبيرةً، عمرُها سنتانِ، أليسَ كذلكَ؟"

ضحكتْ أميرة وصارتْ تلاعبُ شادن منْ خلفِ ثوبِ والدتِها. تختبئُ وراءَها ثمَّ تظهرُ. تضحكُ كلّما قالتْ لها شادن: "بق عينو..." ارتاحَ بالُ شادن عندَما تبيّنَ لها أنَّ هناكَ في الرّحلةِ غيرَها منَ النّساءِ. يبدو أنَّ ميساء لطيفةٌ وسترتاحُ بصحبتِها.

الرّحلةُ في العبّارةِ منْ طرابلس إلى مرسين لمْ تكنْ مزعجةً. شعرتْ شادن أنّها في رحلةٍ سياحيّةٍ عاديّةٍ. كانَ البحرُ هادئًا والطّقسُ خريفيًّا لطيفًا. معظمُ ركّابِ السّفينةِ كانوا منَ السوريّينَ الّذينَ همْ في طريقِهِم إلى أوروبا عبرَ تركيا. تمنّى الجميعُ أنْ يرافقَهمُ الحظُّ وأنْ تكونَ الظّروفُ الجويّةُ جيّدةً أيضًا في رحلتِهمُ البحريّةِ الثّانيةِ المنتظرةِ.

في مرسين، تركوا أمورَ تنظيمِ الرّحلةِ لشادي الّذي كانَ يحملُ قائمةً بأسماءِ فنادقَ صغيرةٍ غيرِ مكلّفةٍ وقريبةٍ منَ الميناءِ. جلستْ شادن وميساء على مقعدٍ يطلُّ على شاطئِ البحرِ تنتظرانِ عودةَ شادي وأشرف، بينما أميرةُ الصّغيرةُ تلعبُ أمامَهُما فرحةً. ما أجملَ المناظرَ في مرسين! تمنّتْ شادن لوْ أنّهمْ في رحلةٍ سياحيّةٍ عاديّةٍ إلى تركيا بدلاً منَ المغامرةِ التي تنتظرُهمْ.

لمْ يكنِ الحصولُ على غرفٍ سهلاً أبدًا، فمعظمُ الفنادقِ كانتْ مليئةً بالنّزلاءِ. تنقّلَ شادي وأشرف من فندقٍ إلى آخرَ وكانا على وشكِ أنْ يفقدا الأملَ ويعودا إلى شادن وميساء ليبحثا عنْ مكانٍ آمنٍ في الهواءِ الطّلقِ للمبيتِ فيهِ. وأخيرًا وجدا غرفةً واحدةً فقط في أحدِ الفنادقِ المتواضعةِ. قالَ أشرف لشادي: "أميرة تعبةٌ وجائعةٌ. سنتركُ الغرفةَ لميساء وشادن وأميرة. أنا وأنت يا شادي سنتدبّرُ أمرَنا لهذهِ اللّيلةِ. سننامُ في غرفةِ الانتظارِ. سنحاولُ أنْ نجدَ فندقًا آخرَ غدًا."

في اليومِ التّالي، كانَ على الجميعِ التّحضيرُ للخطوةِ التاليةِ الصّعبةِ: السّفرِ بالقواربِ إلى أوروبا.

قضوْا صباحَ اليومِ التّالي في التّسوّقِ لشراءِ بعضِ الحاجيّاتِ الضّروريّةِ للسّفرِ متبّعينَ نصائحَ منشورةً على صفحاتِ "الفيسبوك" على شكلِ قوائمَ بما يلزمُ للرّحلةِ الصّعبةِ، قدّمها بعضُ منْ سبقَهُمْ ونجحَ في الوصولِ إلى أوروبا:

- ماءٌ نظيفٌ للشّربِ.

- دواءٌ مضادٌّ لدوارِ البحرِ.

- ليمونٌ وملحٌ.

- بعضُ الموالحِ منَ المكسّراتِ.

- تمرٌ وفواكهُ مجفّفةٌ.

- حقيبةٌ بلاستيكيّةٌ خاصّةٌ للاحتفاظِ بالمقتنياتِ منَ البللِ.

- ستراتُ نجاةٍ.

غابَ شادي وأشرف معظمَ النّهارِ، وعندَ عودتِهِمْ جلستْ شادن معهُما لتسمعَ منهُما عنِ الخياراتِ المتاحةِ للسّفرِ معَ المهربّينَ.

قالَ شادي: "كانَ لنا عدّةُ لقاءاتٍ مع مهرّبينَ مختلفينَ حصلْنا على أسمائِهم منْ معارفَ لنا. تمكنّا أنا وأشرف منْ تحديدِ أفضلِ الخياراتِ وهوَ مهرّبٌ اسمُهُ "أبو النّمر" أثنى عليهِ عدّةُ أشخاصٍ. قالَ لنا أبو النّمر إنَّ معظمَ النّاسِ يختارونَ طريقَ اليونانِ للوصولِ إلى أوروبا فيقطعونَ المسافاتِ مشيًا ويضطّرونَ إلى قطعِ حدودِ دولٍ كثيرةٍ مختلفةٍ. ولكنّهُ يرى أنَّ طريقَ إيطاليا وإنْ كانتْ أطولَ في البحرِ فهي أكثرُ مباشَرةً إلى وسطِ أوروبا وتتجنّبُ متاهاتِ دولِ البلقانِ والمعارضةِ للهجرةِ هناكَ. ستنتظرنا سفينةُ شحنٍ كبيرةٌ في وسطِ البحرِ لتحملَنا إلى إيطاليا. أخبرَنا أبو النّمر أنَّ التّكلفةَ للشّخصِ الواحدِ إلى إيطاليا ثلاثةُ آلافِ دولارٍ، وقدِ ادّعى أنّ هذا سعرٌ تفضيليٌّ لنا لأنّنا "مجموعةٌ"، وبالنّسبةِ للدّفعِ فسيتمُّ بالطّريقةِ المتّبعةِ في مثلِ هذهِ الحالاتِ، وهيَ إيداعُ المبلغِ المطلوبِ عندَ صرّافٍ معتمدٍ حيثُ يزوّدُنا الصّرّافُ برقمٍ سرّيٍّ، وفي حالِ وصلْنا سالمينَ إلى

وجهتِنا، نرسلُ الرّقمَ السّرّيَ إلى الصّرّافِ مع اسمِ المستفيدِ فيتمُّ تحويلُ المبلغِ إلى المهرّبِ. وهذا نوعٌ منَ الضّمانِ لنا. وقدْ أكّدَ لي أبو النّمر أنَّ علينا أنْ نكونَ مستعدّينَ في الأيّامِ القادمةِ لأنّه سيتمُّ الاتّصالُ بنا في أيٍّ لحظةٍ لننطلقَ فورًا." ثمَّ أردفَ قائلاً: "ما رأيكِ يا شادن؟ ما زالتِ الفرصةُ أمامَكِ لتغيّري رأيكِ، فأنتِ تدركينَ الآنَ أنّها رحلةٌ خطيرةٌ ولا يمكنُ التّنبّؤُ بما قدْ يحصلُ."

هزّتْ شادن رأسَها وقالتْ: "لا... لنْ أغيّرَ رأيي. أرجو منكَ أنْ تسجّلَني معكمْ في الرّحلةِ."

مرّتْ عدّةُ أيّامٍ وهمْ في حالةِ انتظارٍ وترقّبٍ. وأخيرًا، في مساءِ أحدِ الأيّامِ، تلقّى شادي رسالةً مقتضبةً منَ المهرّبِ يقولُ فيها: "سننطلقُ حالاً!"

◆◆◆

54

نجّنا يا ربّ



وبسرعةٍ اتّجهَ الجميعُ نحوَ نقطةِ الانطلاقِ المتّفقِ عليها. تجمّعَ أكثرُ منْ مئةِ رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ وتوزّعوا على عدّةِ حافلاتٍ كانتْ بانتظارِهِمْ.

وفي عتمةِ اللّيلِ، نقلتهُمُ الحافلاتُ إلى منطقةٍ بعيدةٍ عنْ مرسين وعنْ أعينِ السّلطاتِ حيثُ ترجّلوا منَ الباصاتِ ومشوْا بعدَها في طرقٍ وعرةٍ بينَ مزارعِ البرتقالِ إلى أنْ وصلوا إلى شاطئِ البحرِ، وظهرتْ لهمُ السّفينةُ الكبيرةُ الّتي ستقِلُّهمْ بعيدًا... بعيدًا عن شواطئِ الخوفِ والألمِ... نحوَ حياةٍ أفضلَ وبداياتٍ جديدةٍ.

صاحَ أحدُ المهرّبينَ وهوَ يحثُّ النّاسَ على ركوبِ القواربِ المطاطيّةِ الصّغيرةِ الّتي ستوصلُهُمْ إلى السّفينَةِ الكبيرةِ: "أسرعوا! هيّا أسرعوا! منْ يتأخّرْ عنْ ركوبِ القاربِ نُبحرْ بدونِهِ."

أسرعَ النّاسُ بلهفةٍ ليحجزوا لأنفسِهِمْ مكانًا على القواربِ الصّغيرةِ. كلٌّ منهُمْ يدعو اللهَ سرًّا أنْ يصلَ بسلامٍ إلى وجهتِهِ. بعدَ جهدٍ جهيدٍ، وصلوا إلى سطحِ السّفينةِ الكبيرةِ بمساعدةِ عددٍ منَ البحّارةِ الّذينَ وجّهوهُمْ بسرعةٍ إلى غرفةِ الشّحنِ في السّفينةِ ليبقوْا بعيدينَ عنِ الأعينِ. كانَ المكانُ معتمًا ومكتظًّا

باللّاجئينَ. كلٌّ منهُمْ يحاولُ أنْ يجدَ مكانًا مناسبًا ليستريحَ فيهِ خلالَ الرّحلةِ. شعروا بأمواجِ البحرِ ترتطمُ بجوانبِ السّفينةِ وتميلُ بها منْ جهةٍ إلى أخرى. بسرعةٍ أخرجتْ شادن الدّواءَ المضادَّ لدوارِ البحرِ وتناولتْ حبّتيْنِ وهيَ تفكّرُ:

"لمْ نبدأِ الرّحلةَ بعدُ، وها أنا أشعرُ بالدّوارِ. يا ربُّ.. استرْ."

يا ربُّ... يا ربُّ... ضجَّ المكانُ بتمتماتٍ وأدعيةٍ وابتهالاتٍ للهِ بالنّجاةِ منْ هذا الخطرِ المبينِ الّذي وجدوا أنفسَهُمْ فيهِ. امتزجَ الدّعاءُ ببكاءِ الأطفالِ الخافتِ والمتقطّعِ، وصوتِ هدهدةِ الأمّهاتِ لأطفالهنَّ حينًا وزجرهنَّ لهُمْ حينًا آخرَ. بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ منَ الانتظارِ في المياهِ الدّوليّةِ وسطَ البحرِ المتوسّطِ لمزيدٍ منَ الرّكّابِ، تحرّكتِ السّفينةُ. ها همْ أخيرًا في طريقِهِمْ إلى أرضِ النّجاةِ... إلى فرصةٍ للبدءِ منْ جديدٍ... بعيدًا عنِ الحروبِ... بعيدًا عنِ الفقرِ والعوزِ... وجهتهُمُ الأولى إيطاليا، بوّابتُهُمْ إلى أوروبا وبعدَها سيتابعُ كلٌّ منهُمْ طريقَهُ إلى البلدِ الذي يطمحُ بالوصولِ إليهِ.

تناوبتْ شادن مع ميساء على رعايةِ الصّغيرةِ أميرة. كانتْ شادن تحملُها فترةً، تغنّي لها وتحكي لها القصصَ وتتركُ المجالَ لميساء كيْ تنامَ لبعضِ الوقتِ. لحسنِ حظّهِمْ أنَّ معهُمْ كلَّ ما يحتاجونَهُ منْ ماءٍ للشّربِ وفواكهَ مجففّةٍ تسدُّ جوعَهُمْ وتعطيهِمُ القوّةَ على متابعةِ المشوارِ، وقدِ احتاطتْ ميساء بأنْ أحضرتْ معها حفّاظاتٍ لأميرة لعدمِ وجودِ حمّامٍ مناسبٍ. امتزجتْ روائحُ البولِ والعرقِ والقيءِ معَ الرّطوبةِ الّتي بدأتْ تتسرّبُ منْ سقفِ غرفةِ الشّحنِ لتزيدَ منْ بؤسِ حالِهِمْ.

جلستْ شادن وسطَ هذا الضّجيجِ الإنسانيِّ البائسِ تستمعُ إلى قصصِ منْ حولها، يحكيها الرّكّابُ بعضُهُمْ لبعضٍ، فيبثّونَ همومَهُمْ ويثيرونَ شجونَ الآخرينَ. تذكّرتْ شادن كيفَ كانَ والدُها ممدّدًا أمامَها بينَ حطامِ العماراتِ. نزلتْ دمعةٌ حارّةٌ منْ عينيْها وهيَ تقولُ في نفسِها: "سأحقّقُ وصيّتَكَ يا أبي... أنا في طريقي إلى السّويد. أتمنّى أنْ أصلَ بسلامٍ وألتقيَ بعمّي علّهُ يعيدُ لي دفءَ ابتسامتِكَ. كمِ اشتقتُ إليكَ يا أبي!"

أعادتْها أميرة إلى الواقعِ بطلبِها قصّةً أوْ أغنيةً. جلستْ في حضنِها فانكمشَ العالمُ للحظاتٍ وشعرتْ بدفءِ الطّفلةِ الصّغيرةِ وهيَ تضحكُ على أحداثِ قصّةٍ فتلاشى البحرُ منْ حولِهما واختفى كلُّ الضّجيجِ والألمِ.

بعدَ أيّامٍ منَ الإبحارِ، اقتربتِ السّفينةُ منَ الشّواطئِ الجنوبيّةِ لإيطاليا. دخلَ أحدُ البحّارةِ غرفةَ الشّحْنِ وصاحَ قائلاً: "نحنُ نبعدُ عنِ الشّواطئِ الإيطاليّةِ مئةَ كيلومترٍ ولا نستطيعُ أنْ نقتربَ أكثر. سنطلبُ المساعدةَ منَ السّلطاتِ بحجّةِ عدمِ وجودِ قبطانٍ مسجّلٍ على متنِ السّفينةِ ليقودَها." صاحتْ شادن: "لماذا؟ أينَ القبطانُ؟ هلْ يجوزُ الإبحارُ دونَ قبطانٍ؟" ضحكَ شادي بمرارةٍ وقالَ: "كلُّ شيءٍ ممكنٌ أنْ يحدثَ في مثلِ هذهِ الأحوالِ. لا تخافي! هذهِ هيَ الطّريقةُ المتّبعةُ كيْ لا يتمَّ القبضُ على القبطانِ بتهمةِ التّهريبِ. سمعتُ أنَّ منْ يقودُ السّفينةَ هوَ أحدُ البحّارةِ القدامى الّذينَ كانوا يعملونَ على متنِها منْ قبلُ. هذا يعني على الأقلِّ أنَّ عندَهُ خبرةً في قيادةِ السّفنِ."

فجأةً، ارتطمتِ السّفينةُ بشيءٍ صلبٍ ودوّى صوتٌ عالٍ واهتزّتْ بشدّةٍ وبدأَ الماءُ يسيلُ بشكلٍ أكبرَ منْ سقفِ الغرفةِ. شعرَ الرّكّابُ بهلعٍ شديدٍ. صاحَ أحدُ

اللّاجئينَ: "يا ربّ! نجّنا يا ربّ! البسوا ستراتِ النّجاةِ!"

وبينَ بكاءٍ وصراخٍ وعويلٍ لبسَ جميعُ الرّكّابِ ستراتِ النّجاةِ وفي أذهانِهِمْ صورٌ لمئاتِ اللّاجئينَ الّذينَ لقوا حتفَهُمْ في البحرِ وهمْ يحاولونَ الوصولَ إلى شواطئِ أوروبا مثلهُمْ تمامًا. ساعدتْ شادن أميرة على لبسِ سترتِها الّتي كانتْ كبيرةً عليها بعضَ الشّيءِ، فحاولتْ أن تشدّها قدرَ استطاعتِها. ترنّحتِ السّفينةُ منْ جهةٍ إلى أخرى بسببِ الأمواجِ العاليةِ. خرجَ جميعُ الرّكّابِ إلى سطحِ السّفينةِ. صاحَ أحدُ البحّارةِ: "لا تخافوا! سينقذونَنا بمشيئةِ اللهِ. لا تتجمّعوا على جهةٍ واحدةٍ منَ السّفينةِ وإلّا فقدتْ توازنَها. حافظوا على هدوءِ أعصابِكُمْ كيْ ننجوَ جميعًا."

"Mayday ...Mayday... النّجدةَ... النّجدةَ... سفينةٌ في خطرٍ...... أنقذونا..."

سمعتْ نداءَ الاستغاثةِ سفينةٌ آيسلنديّةٌ كانتْ قريبةً منْ موقعِ سفينةِ اللّاجئينَ فأسرعتْ لإنقاذِ الرّكّابِ بالتّعاونِ مع حرسِ الحدودِ الأوروبيِّ المشتركِ "فرونتكس". وعندَما رأى الرّكّابُ المتجمّعونَ على سطحِ السّفينةِ سفينةَ الإنقاذِ تقتربُ منهُمْ، عمّتِ الفرحةُ قلوبَهُمْ وصاروا يلوّحونَ لها ولخفرِ السّواحلِ. حضنتْ شادن ميساءَ بفرحٍ وأغرقتْ وجهَ أميرة بالقبلِ وهيَ تقولُ: "الحمدُ للهِ يا أميرة، يا أمّورة. سيتمُّ إنقاذُنا قريبًا جدًّا."

حاولتْ سفينةُ الإنقاذِ الاقترابَ منَ السّفينةِ عدّةَ مرّاتٍ، وفي كلِّ مرّةٍ كانتْ تجدُ صعوبةً بسببِ الأمواجِ العاليةِ. وأخيرًا نجحتْ في مهمّتِها وأنزلتِ القواربَ المطاطيّةَ استعدادًا لنقلِ الرّكّابِ إلى برِّ الأمانِ.

عندَما جاءَ دورُ شادن للنّزولِ إلى القاربِ، تردّدتْ قليلاً وشعرتْ بالخوفِ ولكنّها

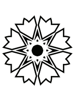
تحاملتْ على نفسِها ونزلتْ منَ السّفينةِ وتمسّكتْ جيّدًا بطرفِ القاربِ المطاطيِّ الّذي كانَ يهتزُّ يمينًا ويسارًا مع حركةِ الموجِ.

قامَ خفرُ السّواحلِ بإنقاذِ الأطفالِ والنّساءِ أوّلاً، ثمَّ أنقذوا باقيَ اللّاجئينَ واصطحبوا الجميعَ إلى "كاتانيا" في صقلّية.

◆◆◆

55

على شواطئ الغربة



وقفَ اللّاجئونَ رجالاً ونساءً وأطفالاً في صفٍّ طويلٍ لا شعورَ يرافقُهُمْ سوى التّعبِ الشّديدِ والإحباطِ. لفظَهُمُ البحرُ إلى شواطئِ الغربةِ، وها همْ يستجدونَ الأمانَ والحياةَ الكريمةَ بعدَ أنْ خذلتهُمْ أوطانُهُمْ وصاروا عبئًا ثقيلاً على الآخرينَ. وقفوا أمامَ مسؤولٍ يجلسُ على طاولةٍ، تساعدُهُ شرطيّةٌ إيطاليّةٌ واقفةٌ إلى يمينِهِ. بالقربِ منهما وقفَ مترجمٌ تحدّثَ بصوتٍ عالٍ ليسمعَهُ الجميعُ: "نعرفُ أنّكُمْ تشعرونَ بالبردِ والتّعبِ، ولنْ نطيلَ عليكُمْ. نريدُ منْ كلِّ واحدٍ منكمْ فقط اسمَهُ وعمرَهُ وجنسيّتَهُ. باقي التّفاصيلِ سنسجّلُها غدًا بعدَ أنْ ترتاحوا."

بسرعةٍ تحرّكَ الصّفُّ واستقبلَتْهُمْ متطوّعةٌ أمامَ غرفِ المخيّمِ. أعطتْ كلَّ واحدٍ منهُمْ رقمَ غرفةٍ ليبيتَ فيها.

وجدتْ شادن نفسَها مع ميساء وأميرة وسيّدتينِ وطفلٍ رضيعٍ في غرفةٍ بدتْ لها بالرّغمِ من تواضعِها كأنّها قصرٌ مقارنةً بغرفةِ الشّحنِ في السّفينةِ. ما زالتْ روائحُ السّفينةِ الكريهةُ عالقةً في أنفِها. كلُّ ما تتمنّاهُ الآنَ أنْ تأخذَ حمّامًا ساخنًا، وتلبسَ ملابسَ نظيفةً وتنامَ على سريرٍ.

حضرتْ إحدى المتطوّعاتِ إلى الغرفةِ للاطمئنانِ عليهِمْ. كانتْ شادن الوحيدةَ

الّتي تتقنُ اللّغةَ الإنكليزيّةَ؛ فطلبتْ منها التّرجمةَ لباقي السّيّداتِ في الغرفةِ. أرشدتْهُنَّ إلى الحمّامِ وإلى غرفةِ الطّعامِ ثمَّ وزّعت عليهنَّ بعضَ الملابسِ النّظيفةِ. استمتعتْ شادن بالمياهِ الساخنةِ وهيَ تنزلُ بقوّةٍ على شعرِها وجسمِها. كانتْ تريدُ أنْ تزيلَ تعبَ وآثارَ سفينةِ الشّحنِ عنها. لفّتْ شعرَها البنّيَّ بمنشفةٍ كبيرةٍ ثمَّ مسحتْ بخارَ الماءِ عنِ المرآةِ ونظرتْ إلى نفسِها. تذكّرتِ المرآةَ الكبيرةَ في غرفتِها وكيفَ كانتْ تقفُ أمامَها بعدَ كلِّ حمّامٍ. تذكّرتْ "بوسة الحمّامِ" منْ أمِّها ودمعتْ عيناها. لطالما تجنّبتِ التّفكيرَ في أمِّها خشيةَ ألّا تتمكّنَ من التّوقّفِ عنِ البكاءِ.

شعرَ اللّاجئونَ بالامتنانِ للسّلطاتِ الإيطاليّةِ الّتي اهتمّتْ بالحالاتِ المرضيّةِ فعالجتْ منْ يحتاجُ إلى علاجٍ، ووفّرتْ لهُمُ المسكنَ والطّعامَ، ولكنّهُمْ كانوا يخشوْنَ منْ أمرٍ واحدٍ وهوَ ما يسمّى ببصمةِ "دبلن".

بالنّسبةِ لمعظمِهِمْ كانتْ إيطاليا مجرّدَ مدخلٍ إلى أوروبا وليستِ الوجهةَ الأخيرةَ؛ لذا فإنّهُمْ إذا أجبروا على أخذِ البصمةِ فهذا سيؤثّرُ على خططِهمُ المستقبليّةِ في الإقامةِ في بلدٍ أوروبيٍّ آخرَ. بصمةُ دبلن تعني أنَّ اللاجئَ عليهِ أنْ يبقى في البلدِ الّذي أخذتْ فيهِ بصمتُهُ لأوّلِ مرّةٍ والدّولُ الأوروبيّةُ الأخرى سترفضُ النّظرَ في طلبِ لجوئهِ لكونهِ بصمَ لأوّلِ مرّةٍ في بلدٍ آخرَ، ولنْ تتمكّنَ شادن مثلًا منْ طلبِ اللّجوءِ والإقامةِ في السّويد كما كانتْ تنوي ولا ميساء وعائلتُها منْ طلبِ الإقامةِ في ألمانيا حيثُ لهمْ أقاربُ. لذا تمنّعَ اللّاجئونَ منْ إعطاءِ بصماتِهِمْ، وحتّى لا يحدثَ تصادمٌ قرّرتِ السّلطاتُ نقلَهمْ إلى مخيّمٍ آخرَ لحينِ البتِّ في أمرِهِمْ.

56

المخيّم الجديد



ركبَ اللّاجئونَ حافلاتٍ حضرتْ لنقلِهِمْ. جلستْ شادن على مقعدٍ في آخرِ الحافلةِ بالقربِ منْ صبيٍّ في الثّانيةَ عشرةَ منَ العمرِ تقريبًا. كانَ قليلَ الكلامِ مستغرقًا في أفكارِهِ وفي النّظرِ منْ شبّاكِ الحافلةِ إلى غرائبِ هذا البلدِ الجديدِ الّذي وجدَ نفسَهُ فيهِ. شيءٌ في ملامحِ وجهِهِ ذكّرَها بماجد؛ فشعرتْ بقلبِها يعتصرُ ألمًا. سألتِ الصّبيَّ بحنانٍ: "ما اسمُكَ يا شاطر؟"

نظرَ إليها مليًّا ثمَّ قالَ: "هاني."

ابتسمتْ وسألتْهُ: "أينَ عائلتُكَ يا هاني؟ هلْ همْ معَنا في هذهِ الحافلةِ؟"

سكتَ الصّبيُّ وعادَ إلى النّظرِ منْ شبّاكِ الحافلةِ ثمَّ قالَ بصوتٍ خافتٍ: "أنا وحدي."

شعرتْ شادن بتعاطفٍ كبيرٍ مع هذا الطّفلِ الصّغيرِ الكبيرِ. انتبهَ إلى نظرةِ الحزنِ والشّفقةِ في عينيْها فابتسمَ وقالَ لها ببراءةِ الطّفولةِ: "لا تحزني. أنا زلمة وأستطيعُ أنْ أهتمَّ بنفسي. سوفَ أصلُ إلى أوروبا ثمَّ ستلحقُ بي عائلَتي... سأنقذُهُمْ منَ الدّمارِ والحربِ."

سألتْهُ عنْ عائلتِهِ فحكى لها عنْ كلِّ فردٍ فيها وكأنّهُ يحاولُ أنْ يطبعَ صورَهُمْ في ذاكرتِهِ. وانتهى بقولِهِ ووجهُهُ يشعُّ أملاً: "إنْ شاءَ اللهُ سنجتمعُ قريبًا."

شدّتْ شادن على يدِهِ وهيَ تقولُ: "اسمي شادن، وإذا احتجتَ إلى أيِّ شيءٍ، لا تتردّدْ في طلبِ مساعدتي. وانتبهْ لنفسِكَ يا هاني... انتبهْ جيّدًا."

كانَ المخيّمُ الجديدُ كبيرًا ويحتوي على مرافقَ أكثرَ منَ المخيّمِ السّابقِ. وضعَ المنظّمونَ أفرادَ كلِّ عائلةٍ معًا فانفصلتْ شادن عنْ ميساء وأميرة واشتركتْ في غرفةٍ مع ثلاثِ نساءٍ مسافراتٍ أيضًا وحدهنَّ. أمّا شادي فكانَ في قسمٍ آخرَ مخصّصٍ للرّجالِ. لأوّلِ وهلةٍ شعرتْ شادن بالحزنِ والخوفِ؛ فشادي وأصدقاؤهُ أصبحوا عائلتَها الجديدةَ، وها هيَ تنفصلُ عنهُمْ ليذهبَ كلُّ واحدٍ في طريقِهِ.

لمْ يعرفوا متى سيغادرونَ المخيّمَ. ومعْ أنّهمْ سيقضونَ بعضَ الوقتِ في هذا المخيّمِ قبلَ أنْ يتّخذَ كلٌّ منهمُ الطّريقَ الّذي اختارَهُ إلّا أنّهمْ شعروا أنَهمْ وصلوا إلى نقطةٍ مفصليّةٍ في رحلتهمْ. حضنتْ ميساء شادن وقالتْ لها: "لنْ أنساكِ أبدًا يا شادن. اعتبريني أختكِ وإنْ شاءَ اللهُ سنلتقي مرّةً ثانيةً في سوريا أوْ في أيِّ مكانٍ آخرَ في هذا العالمِ الكبيرِ."

بكتْ أميرة قائلةً: "أريدُ أنْ تأتيَ شادن معنا."

أمّا شادي فقدْ صافحَها بحرارةٍ قائلاً: "سنفترقُ الآنَ يا شادن، ولكنَّ قلوبَنا ستظلُّ معًا، فهذهِ التّجربةُ بالرّغمِ منْ قسوتِها جعلتْنا جميعًا يدًا واحدةً، وعلى كلِّ حالٍ سنلتقي مرارًا في الكافتيريا قبلَ أنْ نفترقَ."

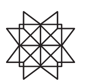
اشترتْ شادن شريحةَ هاتفٍ أوروبيّةً منْ كشكٍ خاصٍّ في المخيّمِ ووضعتْها في هاتفِها. شعرتْ بالطمأنينةِ فقدْ أصبحَ منَ السّهلِ عليها التّواصلُ مع منْ تريدُ.

أدخلتْ رقمَ عمِّها في السّويد إلى هاتفِها، وقرّرتْ ألّا تتّصلَ بهِ إلّا عندَما تقتربُ منَ الأراضي السّويديّةِ كيْ لا ينشغلَ بالُهُ عليْها. تبادلتْ معَ أصدقائِها أرقامَ الهواتفِ الأوروبيّةَ وقطعوا لبعضِهِمْ عهدًا أنْ يظلّوا على اتّصالٍ دائمٍ.

◆◆◆

57

إنّه بخير



فرحتْ شادن عندَما عرفتْ بوجودِ مكتبةٍ في المخيّمِ توفّرُ عددًا منْ أجهزةِ الحاسوبِ. ذهبتْ فورًا إلى المكتبةِ وحجزتْ ساعةً لاستخدامِ الحاسوبِ. فتحتْ بريدَها الإلكترونيَّ وفوجئتْ بعدّةِ رسائلَ منْ سميح كانَ قدْ كتبَها قبلَ أكثرَ منْ شهرٍ، ولكنَّ الغريبَ في الأمرِ أنّهُ أرسلَها منْ عنوانٍ جديدٍ، وعندَ قراءةِ رسالتِهِ فهمتْ سببَ انقطاعِ أخبارِهِ عنْها. اختلطتْ مشاعرُها بينَ الفرحِ والحزنِ والألمِ، ودمعتْ عيناها.

لمْ يتخلَّ عنْها سميح كما ظنّتْ بلْ كانَ مصابًا وفاقدًا للذّاكرةِ، وعندَما استفاقَ منَ الغيبوبةِ وجدَ أنَّ بريدَهُ الإلكترونيَّ قدْ أُغلقَ لقلّةِ استعمالِهِ فلمْ يستطعْ أنْ يقرأَ رسائلَها، ويبدو أنَّ هاتفَهُ فُقِدَ منهُ وقتَ إصابتِهِ. سألتْ نفسَها: "ولكنْ... منْ هذهِ الّتي كانتْ تردُّ عليَّ بجفاءٍ؟"

أكثرُ ما يهمُّها الآنَ أنّهُ بخيرٍ. وفي رسالةٍ ثانيةٍ استلمتْها منهُ بعدَ عدّةِ أيّامٍ قالَ لها:

عزيزتي شادن،

أكتبُ لكِ وأنا أشعرُ بالصّدمةِ الشّديدةِ بسببِ ما سمعتُهُ منْ خالِكِ قبلَ قليلٍ عنْ أحوالِكِ. الكلماتُ تخونُني وأجدُ صعوبةً كبيرةً في التّعبيرِ

لكِ يا عزيزتي عنْ مدى ألمي وحزني لوفاةِ خالتي الحبيبةِ أمّ ماجد بهذهِ الطّريقةِ العبثيّةِ. منْ يصدّقُ أنَّها نجتْ منَ الحربِ والدّمارِ في سوريا لتُصابَ برصاصةِ عرسٍ طائشةٍ!

ولكنَّ هذا قضاءُ اللّهِ وقدرُهُ ولا اعتراضَ على حكمِهِ.

ألفُ رحمةٍ على روحِها، لقدْ كانتْ إنسانةً رائعةً وكنتُ أعتبرُها أمًّا ثانيةً لي.

لنْ تصدّقي كمْ صدمتُ عندَما قرأتُ الرّسالةَ الّتي تركتِها لخالِكِ. كيفَ تخاطرينَ بحياتِكِ؟ ألمْ تسمعي بأخطارِ هذهِ الرّحلاتِ؟ ألا تعرفينَ كمْ أنتِ مهمّةٌ بالنّسبةِ لي؟

لا ألومُكِ يا عزيزتي بلْ ألومُ نفسي؛ لأنّني لمْ أكنْ موجودًا لأساعدَكِ. ولكنْ تأكّدي يا شادن أنَّ الأمرَ لمْ يكنْ بيدي، فعندَما استفقتُ منَ الغيبوبةِ حاولتُ الاتّصالَ بكِ، وعندَما لمْ أنجحْ سافرتُ إلى بيروت لأستفسرَ عنْ أحوالِكِ. أكتبُ لكِ الآنَ بعدَ أنْ تركتُ بيتَ خالِكِ وعرفتُ منهُ كلَّ ما حصلَ.

أرجوكِ، أرجوكِ، ردّي على رسالتي وطمئنيني عنْ أحوالِكِ، وكوني بخيرٍ.

سميح

قضتْ شادن السّاعةَ كلَّها وهيَ تكتبُ لهُ رسالةً تخبرُهُ فيها عنْ كلِّ ما حصلَ معَها ومع عائلتِها والدّموعُ تسيلُ على خدّيْها. استرجعتْ كلَّ ما مرَّ بها منْ أحزانٍ وآلامٍ. طمأنتْهُ عنْ نفسِها ووعدتْهُ بأنْ تظلَّ على اتّصالٍ بهِ كلّما سنحتِ الظّروفُ لها، وأوصتْهُ أنْ يحاولَ الاتّصالَ بماجد بأيِّ طريقةٍ كتبت: "لا يصحُّ أنْ لا يعرفَ ماجد عمّا حلَّ بعائلتِهِ وهوَ في السّجنِ. منَ المؤكّدِ أنّهُ سيفقدُ عقلَهُ

لوْ صُدمَ بالأخبارِ مرّةً واحدةً. يحتاجُ إلى صديقٍ مثلِكَ يا سميح ليقفَ معهُ في محنتِهِ. لوْ تمكّنْتَ منَ الاتّصالَ بهِ أخبرْهُ أنّني أحبّهُ جدًّا وسأنتظرُ اليومَ الّذي سيلتمُّ فيهِ شملُنا على أحرَّ منَ الجمرِ." انتبهتْ أمينةُ المكتبةِ، أنتونيلا، وهيَ متطوّعةٌ في أوائلِ العشريناتِ منْ عمرِها، إلى دموعِ شادن وحزنِها أثناءَ كتابتِها الرّسالةَ. سألتْها بلطفٍ إنْ كانتْ تحتاجُ إلى أيِّ مساعدةٍ. تأثّرتْ شادن برقّتِها وحسنِ تعاملِها معها. عرّفتْها على نفسِها وبعدَ أنْ تبادلتا أطرافَ الحديثِ، عرضتْ عليها أنْ تساعدَها في المكتبةِ، وأخبرتْها عنْ عملِها السّابقِ في مكتبةِ بيروتَ العامّةِ. فرحتْ أنتونيلا بهذا العرضِ، وأكّدتْ لها أنّها تحتاجُ إلى منْ يترجمُ كلامَها لتتواصلَ معَ اللّاجئينَ الذينَ لا يتكلّمونَ الإنكليزيّةَ.

◆◆◆

58

نحو فضاء الحريّة



وبعدَ أنْ صارتْ شادن تتردّدُ يوميًّا على المكتبةِ، نَمَتْ صداقةٌ بينَها وبينَ أنتونيلا الّتي كانتْ متعاطفةً جدًّا مع محنةِ السوريّينَ وأسعدَها أنْ تتحدّثَ مع شادن لتفهَمَ أكثرَ عنِ اللّاجئينَ السّوريّينَ الّذينَ صاروا يتوافدونَ على بلدِها بأعدادٍ كبيرةٍ.

وجودُ شادن في المكتبةِ لفتراتٍ طويلةٍ، أعطاها فرصةً أكبرَ لتستخدمَ حاسوبَ المكتبةِ. أرادتْ أنْ تبحثَ عنْ أفضلِ الطّرقِ للوصولِ إلى السّويد. ركّزتْ جهدَها على قراءةِ تجاربِ اللّاجئينَ في مواقعِ التّواصلِ الاجتماعيِّ والمدوّناتِ. وأخيرًا، بعدَ أنْ قرأتْ عنْ عدّةِ محاولاتٍ ناجحةٍ للاجئينَ تمكّنوا منَ الوصولِ بسلامٍ إلى السّويد عنْ طريقِ القطاراتِ، قرّرتْ أنَّ هذهِ الطريقةَ ستكونُ الأفضلَ لها والأكثرَ أمنًا، وخاصّةً لأنّها تسافرُ وحدَها. لابدَّ أنْ تخطّطَ للأمرِ جيّدًا وبذكاءٍ. يجبُ أنْ تعرفَ كيفَ ومنْ أينَ تشتري تذاكرَ السّفرِ وتحسبَ ثمنَ كلِّ رحلةٍ والوقتَ الّذي ستستغرقُهُ. عليها أنْ تجدَ مكانًا للصّرافةِ لتحويلِ الدّولاراتِ إلى يورو ثمَّ تجدَ محطّةَ القطاراتِ حيثُ ستشتري التّذاكرَ الّتي تحتاجُها للسّفرِ.

لمْ تنتبهْ لأنتونيلا وهيَ تقفُ وراءَها وتسألُها ممازحةً: "إلى أينَ السّفرُ؟"

قفزتْ شادن منْ مقعدِها وهيَ تشعرُ بالفزعِ منْ أنْ تفشيَ أمرَها للسّلطاتِ وتمنعَها منْ مغادرةِ المخيّمِ كما كانتْ تخطّطُ. ولكنَّ أنتونيلا هدّأتْ منْ روعِها وأوضحتْ لها أنَّها تتفهّمُ تمامًا ما تريدُ أنْ تقومَ بهِ، ولمْ تكتفِ بذلكَ بل عرضتْ عليْها مساعدتَها، ولكنّها اشترطتْ أنْ يتمَّ ذلكَ خارجَ المخيّمِ كيْ لا تتحمّلَ أيَّ مسؤوليّةٍ عنْ هروبِها. كانَ منَ المعروفِ أنَّ الحراسةَ في المخيّمِ غيرُ شديدةٍ، وكأنَّ السّلطاتِ الإيطاليّةَ تشجّعُ اللّاجئينَ على أنْ يجدوا طريقَهُمْ إلى البلادِ الّتي يقصدونَها دونَ أنْ تتدخّلَ بشكلٍ مباشرٍ. راقبتْ شادن الإجراءاتِ الأمنيّةَ وحدّدتِ الفرصةَ المواتيةَ للخروجِ منَ المخيّمِ. كانتْ قدِ اتّفقتْ مع أنتونيلا على أنْ تلتقيا في مقهىً صغيرٍ في القريةِ القريبةِ منَ المخيّمِ الّتي تبعدُ نصفَ ساعةٍ مشيًا على الأقدامِ. وحتّى تجدَ طريقَها إلى القريةِ قرّرتْ شادن أنْ تستخدمَ خرائطَ "جوجل" على هاتفِها لتستدلَّ على المكانِ.

خرجتْ شادن منَ المخيّمِ بسهولةٍ دونَ أنْ يلتفتَ إليها أحدٌ. نظرتْ حولَها بحذرٍ. شعرتْ كأنّها عصفورٌ غادرَ قفصَهُ نحوَ فضاءِ الحريّةِ. مشتْ بخطواتٍ واثقةٍ متّبعةً الاتّجاهَ الّذي ظهرَ لها على الخريطةِ. استمتعتْ بمناظرِ الرّيفِ الإيطاليِّ. كمْ تشبهُ الأشجارُ والنباتاتُ والألوانُ طبيعةَ سوريا! شعرتْ بغصّةٍ منَ الحنينِ والحزنِ وهي تتذكّرُ آخرَ "سيران" مع عائلتِها... كانوا جميعًا معًا... استمتعوا بشيِّ اللّحم وشربِ الشّاي بالملّيسة... ضحكاتُهُمْ ملأتِ المكانَ... وردّدتِ الرّياحُ صداها... آهٍ... كمْ تغيّرتِ الأمورُ بعدَها!

مرّتْ ببعضِ القروييّنَ وهمْ في طريقِهِمْ إلى أعمالِهِمْ. ألقَوْا عليها التّحيّةَ "تشاو"، فهمتْ أنَّ معناها "مرحبًا" فصارتْ تردّدُها لكلِّ منْ يحيّيها. وأخيرًا وصلتْ

شادن إلى القريةِ وإلى المقهى المتفّقِ عليهِ مع أنتونيلا. كانَ المقهى يطلُّ على شارعيْنِ متقاطعيْنِ وتغطّي مدخلَهُ مظلّةٌ خضراءُ مقلّمةٌ، وأمامَهُ طاولتانِ دائريّتانِ صغيرتانِ. على إحدى الطّاولاتِ جلستْ سيّدةٌ كبيرةٌ في السّنِّ تقرأُ الصّحيفةَ وتحتسي القهوةَ. كانَ برفقتِها كلبُها الصّغيرُ الّذي كانتْ تطعمهُ تارةً وتزجرهُ تارةً أخرى ليجلسَ بهدوءٍ قربَها. جلستْ شادن على الطّاولةِ المقابلةِ لها حيثُ ستتمكّنُ أنتونيلا منْ رؤيتِها حالَ وصولِها إلى المقهى. وفي الانتظارِ طلبتْ شادن فنجانًا منْ قهوةِ الكابوتشينو الإيطاليّةِ الّتي تعشقُها وذلكَ بعدَ أنْ فتحتْ برنامجَ التّرجمةِ على هاتفِها.

تمرّنتْ على لفظِ جملةِ "من فضلكَ، فنجانُ كابوتشينو واحد" بالإيطاليّةِ عدّةَ مرّاتٍ، وعندَما حضرَ النّادلُ قالتْ لهُ بكلِّ ثقةٍ: "un cappuccino si prega"

اندهشتْ أنتونيلا لحظةَ وصولِها وشادن تتحدّثُ معَ النّادلِ بثقةٍ قائلةً: "quanto per favore?" (أي كم من فضلك؟)

قالتْ أنتونيلا ضاحكةً: "لمْ أعرفْ أنّكِ تتكلّمينَ اللّغةَ الإيطاليّةَ أيضًا."

- "الفضلُ يعودُ لتطبيقِ السّيّد "جوجل للتّرجمة" على هاتفي."

- "أشعرُ الآنَ بالاطمئنانِ عليكِ. ستعرفينَ كيفَ تتدبّرينَ أمركِ في كلِّ ظرفٍ. ولكنْ يا عزيزتي هناكَ شيءٌ واحدٌ عليكِ القيامُ بهِ كيْ لا تلفتي النّظرَ إليكِ وأنتِ تسافرينَ في القطارِ."

- " وما هوَ هذا الشّيءُ؟"

- "أنْ تلبسي ملابسَ تظهرُكِ كفتاةٍ إيطاليّةٍ مسافرةٍ."

- "أينَ منَ الممكنِ أنْ اشتريَ مثلَ هذهِ الملابسِ؟"

- "لاحظتُ أنّنا نلبسُ نفسَ المقاسِ؛ لذا أحضرتُ لكِ بعضًا منْ ملابسي، هذا إنْ كنتِ لا تمانعينَ."

- "لا، لا طبعًا لا أمانعُ، بلْ على العكسِ أنا ممتنّةٌ لكِ."

- "وإذا لمْ تعجبْكِ سنشتري لكِ ملابسَ منْ روما."

- "منْ روما؟ لا أفهمُ!"

- "بما أنّنا الآنَ في عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ فسأسافرُ معكِ إلى روما. أوّلاً لأطمئنَّ عليكِ، وثانيًا لأنَّ لي خالةً تعيشُ في روما يمكنُنا أنْ نقضيَ ليلةً عندَها وبعدَها تسافرينَ."

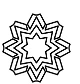
- "كمْ أنتِ رائعةٌ يا صديقتي! تقومينَ بكلِّ هذا منْ أجلي! لنْ أنسى لكِ هذا المعروفَ ما حييتُ. أتمنّى أنْ تنتهيَ الحربُ في سوريا ونعودَ إليها. عندَها سأدعوكِ لزيارتِنا."

- "سيسعدُني ذلكَ يا عزيزتي، فقدْ سمعتُ عنْ حضارتِها وأصالةِ شعبِها."

◆◆◆

59

في الطّريق إلى روما



في حمّامِ المقهى، بدّلتْ شادن ملابسَها وارتدتِ الملابسَ الّتي أحضرتْها لها أنتونيلا، بنطالاً أسودَ ضيّقَ السّاقينِ يدخلُ في جزمةٍ أنيقةٍ مزيّنةٍ بالفروِ، وكنزةً سوداءَ طويلةً ذاتَ قبّةٍ عاليةٍ، وسترةً ملوّنةً دونَ أكمامٍ لبستها فوقَ الكنزةِ. كما أحضرتْ لها شالاً وقبّعةً صوفيّةً جميلةً.

دارتْ شادن حولَ نفسِها فرحةً ثمَّ عانقتْ أنتونيلا وهيَ تقولُ: "شكرًا! شكرًا! كمْ هيَ جميلةٌ ملابسُكِ! هلْ أنتِ متأكّدةٌ منْ أنّكِ تستطيعينَ الاستغناءَ عنْها؟"

- "بكلِّ تأكيدٍ. bella bella."

- "أنتِ الجميلةُ يا صديقتي."

نظرَ النّادلُ إلى شادن باستغرابٍ وهيَ تغادرُ المقهى بصحبةِ أنتونيلا كأنّهُ يراها لأوّلِ مرّةٍ.

كانتِ الرّحلةُ في الحافلةِ إلى روما طويلةً جدًّا ولكنّها ممتعةٌ ومليئةٌ بالضّحكِ والمزاحِ. علّمتْ أنتونيلا شادن بعضَ العباراتِ الإيطاليّةِ وعلّمتْ شادن أنتونيلا عباراتٍ لتقولَها بالعربيّةِ. مرَّ الوقتُ سريعًا وتوطّدتِ الصّداقةُ بينَ الفتاتيْنِ.

حكتْ شادن لأنتونيلا عنْ بعضِ الأحداثِ الّتي مرّتْ بها وكيفَ فقدتْ والديْها.

تأثّرتْ أنتونيلا وقالتْ: "يا إلهي! كمْ منَ السّهلِ أنْ تنقلبَ حياةُ الإنسانِ في غمضةِ عينٍ رأسًا على عقبٍ! كمْ أشعرُ بالأسى لفقدانِكِ والديْكِ هكذا يا صديقتي! الكلماتُ تخونُني."

دمعتْ عينا شادن فضمّتْها أنتونيلا بحرارةٍ وقالتْ: "لا تخشَيْ يا صغيرتي. كلُّ شيءٍ سيكونُ على ما يرامُ."

ولتسرّيَ عنْ شادن قليلاً، أمسكتْ بهاتفِها وأخذتْ تبحثُ عنْ صورِ قطّتِها "لوسي" وصارتْ تخبرُها قصصًا طريفةً عنْها.

تبادلتِ الفتاتانِ أرقامَ هواتفِهِما وعناوينَهُما الإلكترونيّةَ والتقطتا صورةَ "سلفي" لتحتفِظا بها للذّكرى.

◆◆◆

60

نافورة الأمنيات



عندَما وصلتِ الحافلةُ إلى روما، كانَ همّ شادن أنْ تنتهيَ بسرعةٍ منْ ترتيباتِ السّفرِ الّتي خطّطتْ لها أثناءَ وجودِها في المخيّمِ. رافقتْها أنتونيلا إلى محطّةِ القطاراتِ القريبةِ منْ موقفِ الحافلاتِ. تأكّدتْ منْ مواعيدِ القطاراتِ في كلّ مرحلةٍ من رحلتِها إلى السّويدِ. كانتْ قدْ درستِ الموضوعَ بشكلٍ وافٍ على الإنترنت في المكتبةِ، ودوّنتْ كلَّ الخياراتِ المتاحةِ أمامَها في دفترٍ صغيرٍ، كما وضعتْ في ظرفٍ مبلغًا منَ المالِ لشراءِ التّذاكرِ. وبمساعدةِ أنتونيلا تأكّدتْ منْ صحّةِ خطّتِها للسّفرِ وحولّتِ المالَ الّذي تحتاجُهُ إلى عملةِ اليورو في مكتبِ صرافةٍ موجودٍ في المحطّةِ. ألحّتْ أنتونيلا عليها أنْ تؤجّلَ رحلتَها إلى اليومِ التّالي لتريَها بعضَ معالمِ روما ولتذهبَ معها إلى السّوقِ لشراءِ معطفٍ يقيها منَ البردِ وبعضِ الملابسِ وحقيبةِ ظهرٍ تضعُ فيها ما تحتاجُ إليهِ في رحلتِها.

قضتِ الفتاتانِ يومًا رائعًا في روما حيثُ تسوّقتا ثمَّ ذهبتا إلى نافورةِ تريفي* المشهورةِ الّتي أصرّتْ شادن على زيارتِها. كانَ بجوارِ النّافورةِ الكثيرُ منَ السّيّاحِ. بعضُهم يلتقطُ الصّورَ التّذكاريّةَ، والبعضُ الآخرُ يتمازحُ ويتضاحكُ.

---

* نافورة تريفي في روما، هي من أجمل النوافير في العالم، ويعود تاريخها لعام 1762 ، في وسطها تمثال لنبتون، ويشتهر هذا المكان برمي زواره للعملات المعدنية لتحقيق الأمنيات. المبلغ المجموع من النافورة يذهب لصندوق الصليب الأحمر الدولي لمعالجة المرضى أو متضرري الحروب والنقاط الساخنة.

بعضُ الأشخاصِ كانوا يقفونَ أمامَها بتركيزٍ شديدٍ وملامحُ الجدّيّةِ ترتسمُ على وجوهِهِمْ غيرَ آبهينَ بأحدٍ. جلُّ اهتمامِهِمْ هوَ التّواصلُ مع نافورةِ الأمنياتِ راجينَ أنْ تتحقّقَ أمانيهِمْ.

أمسكتْ شادن بقطعةِ نقودٍ سوريّةٍ معدنيّةٍ وجدتْها في حقيبتِها وأطبقَتْ يدَها عليها بقوّةٍ ثمَّ أدارتْ ظهرَها للنّافورةِ كما يجبُ أنْ تفعلَ وأغمضتْ عينيْها وقالت: "يا نافورةَ الأمنياتِ... أتمنّى أنْ يعودَ السّلامُ إلى وطني، ويخرجَ أخي الحبيبُ ماجد منَ السّجنِ. أتمنّى أنْ أصلَ إلى السّويد بسلامٍ. أتمنّى أنْ أطمئنَّ على سميح وأسمعَ صوتَهُ مرّةً ثانيةً."

رمتْ قطعةَ النّقودِ وهيَ تفكّرُ أنّها قدْ تحتاجُ إلى حفنةٍ كبيرةٍ منَ النّقودِ المعدنيّةِ لأنَّ أمنيّاتِها صعبةٌ وكثيرةٌ. وعندَما فتحتْ عينيْها كانتْ دموعُها تسيلُ بغزارةٍ دونَ شعورٍ منْها وكانَ بعضُ المارّةِ ينظرونَ إليْها بتعاطفٍ. وضعتْ أنتونيلا ذراعَها حولَ كتفِ صديقتِها وقالَتْ لها بكلِّ لطفٍ محاولةً أنْ تجعلَها تبتسمُ: "هيّا يا صديقتي، هيّا أدعوكِ لأكلةٍ إيطاليّةٍ شعبيّةٍ". ابتسمتْ شادن وهيَ تمسحُ دموعَها ثمَّ قالتْ: "بيتزا؟"

- "طبعًا، أمْ هلْ تريدينَ شيئًا آخرَ؟"

- "بيتزا إيطاليّةٌ في روما!! بعدَ كلِّ ما حصلَ معي، لمْ أتخيّلْ أبدًا أنْ أكونَ في مطعمٍ في روما آكلُ البيتزا مع صديقةٍ إيطاليّةٍ."

فيما بعدُ، وفي بيتِ خالةِ أنتونيلا، ارتسمتْ علاماتُ الخوفِ والغضبِ على وجهِ الخالةِ بمجرّدِ أنْ عرفتْ أنَّ شادن لاجئةٌ سوريّةٌ في طريقِها إلى السّويد. مدّتْ

شادن يدَها لتصافحَها ولكنَّ الخالةَ سحبتْ يدَها بسرعةٍ وتكلّمتْ بالإيطاليّةِ مخاطبةً أنتونيلا بتوتّرٍ وغضبٍ ظاهرينِ.

قالتْ شادن وهيَ تتّجهُ إلى البابِ: "يبدو أنَّ خالتَكِ لا ترحّبُ بي. منَ الأفضلِ أنْ أغادرَ. سأعودُ إلى المحطّةِ وأنتظرُ هناكَ."

أمسكتْ أنتونيلا بشادن وهيَ تقولُ: "لا... لا يا شادن. اللّومُ يقعُ عليَّ، فأنا لمْ أخبرْ خالتي عنكِ مسبقًا ولمْ أوضّحْ لها الأمرَ. أرجوكِ أعطيني بعضَ الوقتِ لأكلّمَها. فإذا لمْ تقتنعْ نخرجُ معًا."

دارَ حديثٌ طويلٌ ومحتدمٌ بينَ أنتونيلا وخالتِها وبدا بعدَهُ بعضُ التّأثّرِ على وجهِ الخالةِ الّتي حرّكتْ رأسَها باتّجاهِ شادن وقالتْ: " Avanti... prego, scusami"

"خالتي تقولُ لكِ: تفضّلي وأهلاً وسهلاً بكِ. اعذريني."

وعندَما استفسرتْ شادن منْ أنتونيلا عنِ الأسبابِ وراءَ ردّةِ فعلِ الخالةِ الحادّةِ تجاهَها قالتْ لها بخجلٍ: "إنّها تسمعُ قصصًا مزعجةً عنْ تصرّفِ بعضِ اللّاجئينَ في إيطاليا، وهيَ متخوّفةٌ منْ أعدادِ اللّاجئينَ المتزايدةِ في إيطاليا. ولكنّها خفّفتْ من توتّرِها عندَما أخبرتُها قصّتَكِ وما مررتِ بهِ. لقدْ تعاطفتْ معكِ وسمحتْ لكِ بالبقاء في منزلِها هذهِ اللّيلةَ."

شعرتْ شادن بضيقٍ كبيرٍ؛ فهيَ لا تريدُ أنْ تُستقبلَ في بيتِ الخالةِ بداعي الشّفقةِ. تمنّتْ لوْ لمْ ترافقْ أنتونيلا. تمنّتْ لوْ أنّها بدأتْ رحلتَها في القطارِ لحظةَ وصولِها. بلعتْ غصّتَها وهيَ تفكّرُ في أنّها لنْ تمكثَ سوى ساعاتٍ معدودةٍ في

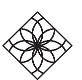
بيتِ الخالةِ وستغادرُهُ في الصّباحِ الباكرِ لتبدأَ رحلتَها. خفّفتْ من ثقلِ الجوِّ المشحونِ ومنْ شعورِ أنتونيلا بالحرجِ فابتسمتْ وقالتْ:

"Grazie da tutto il mio cuore"... "شكرًا من كلِّ قلبي"... كانتْ تتوجّهُ بها إلى أنتونيلا وليسَ إلى الخالةِ...

◆◆◆

61

ورقة في مهبّ الرّيح



فرحتْ شادن عندَما وجدتْ مقعدًا فارغًا بالقربِ منَ النّافذةِ، فقدْ كانَ القطارُ مكتظًّا بالرّكّابِ. جلستْ أمامَ سيّدةٍ كبيرةٍ في السّنِّ. أشارتْ بالتّحيّةِ لها، ولكنَّ السّيّدةَ أشاحتْ بوجهِها عنْها ثمَّ أرختْ رأسَها إلى الوراءِ وأغمضتْ عينيْها. كانَ يبدو عليها الانزعاجُ منْ شيءٍ ما. لمْ تكترثْ شادن لأمرِها؛ فهيَ تكادُ لا تصدّقُ أنّها تركبُ القطارَ وأنّها في طريقِها إلى السّويد.

نظرتْ منَ النّافذةِ ولوّحتْ لأنتونيلا الّتي أصرّتْ أنْ تنتظرَ إلى أنْ يتحرّكَ القطارُ. استعدّت شادن لتبدأَ رحلتَها الطّويلةَ. نظرتْ إلى تذكرتِها وقرأتْ عليها وجهتَها "روما- فيرونا".

فيرونا... فيرونا، شعرتْ أنَّ اسمَ هذهِ المدينةِ الإيطاليّةِ مألوفٌ لديْها. تذكّرتْ أنّها قرأتْ عنْها في مكتبةِ المدرسةِ. إنّها مدينةٌ قديمةٌ في شمالِ إيطاليا، وقدْ دارتْ فيها أحداثُ قصّةِ "روميو وجولييت" لشكسبير.

فيها بيتُ جولييت الّذي يشتهرُ بشرفتِهِ الصّغيرةِ الّتي تطلُّ على فناءٍ يحتوي على تمثالٍ برونزيٍّ لها. تمنّتْ شادن أنْ تزورَ منزلَ جولييت مستقبلاً وقطعتْ عهدًا على نفسِها أنْ تعودَ في يومٍ من الأيّامِ إلى فيرونا.

الرّحلةُ منْ روما إلى فيرونا تستغرقُ ثلاثَ ساعاتٍ تقريبًا؛ لذا فكّرتْ شادن أنْ تأخذَ قسطًا منَ الرّاحةِ، برمجتِ المنبّهَ في هاتفِها ليدقَّ بعدَ ساعتيْنِ. ستكونُ الرّحلةُ التّاليةُ إلى "ميونخ" أطولَ، وقدْ تواجهُ بعضَ الخطرِ منَ انكشافِ أمرِها عندَما تقطعُ الحدودَ بينَ إيطاليا وألمانيا. ومع أنَّ أنتونيلا أكدّتْ لها أنَّ هناكَ حريّةً في الحركةِ والتّنقّلِ بينَ دولِ الاتّحادِ الأوروبيِّ، إلّا أنّها ظلّتْ قلقةً لأنَّ السُّلطاتِ على الحدودِ في بحثٍ دائمٍ عنِ اللّاجئينَ الّذينَ يحاولونَ العبورَ إلى أوروبا دونَ أوراقٍ رسميّةٍ.

استمتعتْ شادن بالنّظرِ إلى الأشجارِ والبيوتِ والحقولِ وهيَ تمرُّ بشكلٍ خاطفٍ أمامَها، ولكنَّ اهتزازَ القطارِ المتواصلَ أشعرَها بالنّعاسِ؛ فقدْ جافاها النّومُ في اللّيلةِ الّتي قضتْها في بيتِ خالةِ أنتونيلا. استسلمتْ لغفوةٍ قصيرةٍ، وما إنْ فتحتْ عينيْها حتّى رأتْ محصّلَ التّذاكرِ يقفُ أمامَها بزيّهِ الرّسميِّ وهوَ يردّدُ: "signora...signora"

أصابَها الرّعبُ للحظةٍ؛ فقدْ ظنّتْ أنَّ منْ يخاطبُها شرطيٌّ يريدُ القبضَ عليها، ولكنّها تداركتِ الأمرَ بسرعةٍ فأخرجتْ تذكرتَها وأعطتْها للكونترول وهيَ تقولُ: "prego" ثمَّ أتبعتْها بـ "grazie" عندَما أعادَ لها التّذكرةَ.

كانَ عليها الانتظارُ في محطّةِ القطاراتِ في فيرونا لمدّةِ ساعتيْنِ قبلَ أنْ يتحرّكَ القطارُ التّالي إلى ميونخ. شعرتْ بالخوفِ منْ ركوبِ قطارٍ باتّجاهٍ خاطئٍ. تمعّنتْ جيّدًا في رقمِ القطارِ وفي اللّوحاتِ المضيئةِ الّتي تُظهرُ الاتّجاهاتِ، وللحظاتٍ شعرتْ بالضّياعِ عندَما لمْ ترَ كلمةَ ميونخ على اللّوحةِ أمامَها فتذكّرتْ مقولةً كانتْ والدتُها تردّدُها دائمًا وهيَ: "اللي بيسأل ما بيتوه"، ولكنْ يبدو أنَّ النّاسَ

في أوروبا على عجلةٍ منْ أمرِهِمْ دائمًا، فهمْ يمشونَ بخطواتٍ سريعةٍ وقلّما ينظرونَ حولَهُمْ.

وأخيرًا وجدتْ رجلاً كبيرًا في السّنِّ يجلسُ على مقعدٍ ينتظرُ القطارَ فسألتْهُ عنْ منصّةِ القطارِ المتّجهِ إلى ميونخ . تكلّمَ بالإيطاليّةِ مطوّلاً وهوَ يشيرُ هنا وهناكَ، وأخيرًا فهمتْ منهُ أنّها في المنصّةِ الخاطئةِ وأنَّ عليها أنْ تذهبَ إلى الجهةِ الأخرى. أسرعتْ إلى الجهةِ المقابلةِ وارتاحتْ عندَما رأتْ في لوحةِ الرّحلاتِ المغادرةِ أنَّ موعدَ الرّحلة إلى ميونخ سيحينُ بعدَ أربعينَ دقيقةً. شعرتْ ببعضِ الثّقةِ لأنّها عرفتْ موقعَ منصّتِها وتوقيتَ رحلتِها فذهبتْ إلى كشكٍ قريبٍ واشترتْ منهُ سندويش جبنة وكوبًا منَ العصيرِ.

لاحظتْ وجودَ بعضِ رجالِ الشّرطةِ يتجوّلونَ في المحطّةِ ترافقُهُمْ كلابٌ بوليسيّةٌ، يتفحّصونَ المارّةَ ويوقفونَهُمْ أحيانًا ليتأكّدوا منْ هويّاتِهِمْ. شعرتْ بقلبِها يهوي... هلْ ستنبحُ عليْها كلابُ الشّرطةِ؟ هلْ سيوقفُها أحدُهُمْ ويطلبُ منها هويّتَها؟ ما العملُ؟ أبعدَ كلِّ هذهِ المعاناةِ سيتمُّ القبضُ عليها وحجزُها؟

"لا... لا، إنَّ شكلي يوحي بأنّني فتاةٌ إيطاليّةٌ." قالتها تطمئنُ نفسَها. وانشغلتْ بهاتفِها الخلويِّ لئلّا تلفتَ الانتباهَ إليْها. وبالصّدفةِ وقعتْ مشاجرةٌ على رصيفِ القطارِ المقابلِ فتوجّهَ رجالُ الشّرطةِ مع كلابِهِمْ لفضِّ الاشتباكِ. وشيئًا فشيئًا عادتْ بعضُ السكينةِ إلى نفسِها وشحذتْ عزيمتَها لمواصلةِ الرّحلةِ.

مرّةً ثانيةً، اختارتْ شادن مقعدًا قربَ النّافذةِ وما هيَ إلّا لحظاتٌ حتّى جلستْ قربَها عائلةٌ مكوّنةٌ منْ أمٍّ تحملُ طفلَها الرّضيعَ ومعَها طفلٌ آخرُ يبدو أنّهُ في

الثّالثةِ منْ عمرِه. كانتِ السّيّدةُ تحملُ العديدَ منَ الحقائبِ؛ فساعدتْها شادن بأنْ رفعتْ لها إحدى الحقائبِ إلى الرّفِّ العلويِّ. ابتسمتِ السّيّدةُ وقالتْ لها بالألمانيّةِ: "Danke" أي شكرًا، فردّتْ عليها شادن: "bitte" أي عفوًا. تمنّتْ ألّا تظنَّ السّيّدةُ أنّها تتكلّمُ اللّغةَ الألمانيّةَ بطلاقةٍ.

عرفتْ سابقًا منْ أنتونيلا أنَّ القطاراتِ توفّرُ خدمةَ الإنترنت مجانًا للرّكابِ وأنَّ هناكَ مكانًا لشحنِ بطاريّةِ الهاتفِ بالقربِ منْ كلِّ مقعدٍ. وجدتْ أنَّ أفضلَ طريقةٍ لتمضيَ بها الوقتَ خلالَ الرّحلةِ الطّويلةِ قراءةُ وكتابةُ الرّسائلِ.

كتبتْ رسالةَ "واتس أب" سريعةً لأنتونيلا طمأنتْها فيها عنْ نفسِها وأخبرتْها أنّها في طريقِها إلى ميونخ وأنّها ستكتبُ لها رسالةً مطوّلةً لاحقًا.

فتحتْ بريدَها الإلكترونيَّ فوجدتْ عدّةَ رسائلَ منْ سميح. استمتعتْ بقراءتِها واطمأنّتْ أنّهُ وعائلتَهُ بخيرٍ، ولكنّها شعرتْ بالحزنِ لأنّهُ لمْ يذكرْ ماجد في رسائلِهِ. ردّتْ عليهِ برسالةٍ طويلةٍ أخبرتْهُ فيها عنْ صديقتِها الإيطاليّةِ أنتونيلا، وعنْ كلِّ ما مرّتْ بهِ منذُ أنْ غادرتِ المخيّمَ ووعدتْهُ أنْ تبقى على اتّصالٍ بهِ.

بعدَ أنْ عادَ سميح إلى حياتِها، صارتْ تشعرُ بأنَّ لها جذورًا تتشبّثُ بها بدلاً منْ أنْ تكونَ ورقةً في مهبِّ الرّيحِ. تذكّرتْ صديقتَها تيريزا فكتبتْ لها رسالةً قصيرةً أيضًا تطمئنُها فيها عنْ أحوالِها ووعدتْها بمزيدٍ منَ التّفاصيلِ عندَما تصلُ إلى برِّ الأمانِ.

بدأتْ بكتابةِ رسالةٍ إلى صديقتِها ريم... توقّفتْ بعدَ كتابةِ السّطرِ الأوّلِ. مضى زمنٌ طويلٌ منذُ آخرِ رسالةٍ تبادلتْها معَها. أخبرتْها ريم في رسالتِها أنَّ شخصًا

تقدّمَ لخطبتِها وأنّها تميلُ إليهِ وتفكّرُ في الزّواجِ منهُ مؤكّدةً لها أنّها ستكملُ تعليمَها بعدَ الزّواجِ. وقتَها كانتْ شادن قدْ بدأتِ العملَ في المكتبةِ العامّةِ في بيروت. ومنذُ ذلكَ الوقتِ، وقعتْ أحداثٌ مصيريّةٌ كثيرةٌ في حياتِها؛ لذا لمْ تعرفْ منْ أينَ تبدأُ بالكتابةِ لصديقتِها ولمْ ترغبْ في أنْ تسترجعَ ذكرياتِها المؤلمةَ. تنهّدتْ ونظرتْ منْ نافذةِ القطارِ لتمنعَ نفسَها منَ البكاءِ. توقّفتْ عنِ الكتابةِ وحذفتِ الرّسالةَ وقرّرتْ أنْ تكتبَ لريم بعدَ أنْ تصلَ إلى السّويد وتستقرَّ فيها.

شعرتْ بالتّعبِ والإرهاقِ فهي تسافرُ منذُ ساعاتِ الصّباحِ الباكرِ. نامتْ بشكلٍ متقطّعٍ وعندَما استيقظتْ كانَ القطارُ قدْ وصلَ إلى محطّةِ القطارِ في ميونخ. جلستْ على مقعدٍ في المحطّةِ تدرسُ دفترَها الصّغيرَ الّذي كتبتْ فيهِ تفاصيلَ الرّحلةِ. محطّةُ سفرِها التّاليةُ كانتْ هامبورج. تمنّتْ لوْ أنّها تستطيعُ أنْ تحجزَ غرفةً في فندقٍ حيثُ يمكنُها أنْ تأخذَ حمّامًا ساخنًا وتنامَ في سريرٍ مريحٍ إلى أنْ يحينَ موعدُ الرّحلةِ المنتظرُ، ولكنّها تعرفُ أنَّ أيَّ فندقٍ سيطلبُ منها أوراقَها الثّبوتيّةَ.

في محطّاتِ القطارِ الأوروبيّةِ، تتوفّرُ خدماتٌ للرّكّابِ لمدّةِ أربعٍ وعشرينَ ساعةً. قضتْ شادن بعضَ الوقتِ في دورةِ المياهِ فغسلتْ وجهَها وفرشتْ أسنانَها ومشّطتْ شعرَها ثمَّ جلستْ في مقهىً صغيرٍ وطلبتْ سندويشًا مع حساءِ الخضارِ. كمِ استمتعتْ بطعمِ الحساءِ السّاخنِ! تذكّرتْ حساءَ العدسِ الّذي كانتْ والدتُها تطبخُهُ لهُمْ في أيّامِ الشّتاءِ الباردةِ.

مشتْ لبعضِ الوقتِ على رصيفِ المحطّةِ. هبّتْ نسمةٌ باردةٌ، فاقشعرَّ بدنُها وشدّتْ معطفَها حولَها وهي تشعرُ بالامتنانِ لأنتونيلا الّتي ساعدتْها في اختيارِ

المعطفِ المناسبِ لهذا الطّقسِ البارِدِ. كمْ يمرُّ الوقتُ بطيئًا أثناءَ الانتظارِ! اختارتْ مقعدًا بعيدًا عنْ مجموعةٍ منَ الشّبابِ الألمانِ الّذينَ دخلوا المحطّةَ وكانَ يبدو أنّهُمْ عائدونَ منْ حفلةٍ أوْ منْ مباراةٍ رياضيّةٍ. ارتفعتْ أصواتُهُم وهمْ يتمازحونَ ويتدافعونَ.

أشارَ أحدُهُمْ إليها بإعجابٍ وتغامزَ مع زملائِهِ الّذينَ دفعوهُ تجاهَها. شعرتْ بدقّاتِ قلبِها تتسارعُ، فخوفُها منْ أنْ ينفضحَ أمرُها يفوقُ خوفَها منْ مجموعةِ مراهقينَ بلهاءَ. سيطرتْ بصعوبةٍ على انفعالاتِها لتبدوَ واثقةً منْ نفسِها وغيرَ مباليةٍ بهمْ؛ لأنّها أدركتْ أنّهُمْ لوْ شعروا بخوفِها فسوفَ يتمادَوْنَ في تصرّفاتِهِمُ المزعجةِ. تظاهرتْ بأنّها منشغلةٌ بحديثٍ مهمٍّ على هاتفِها وسارتْ بخطىً واثقةٍ إلى دورةِ المياهِ. خرجتْ بعدَ فترةٍ منَ الزّمنِ فوجدتْ أنَّ الشّبابَ قدْ غادروا وأنَّ الهدوءَ صارَ يعمُّ المكانَ. نظرتْ إلى ساعةِ المحطّةِ وشعرتْ بارتياحٍ؛ لأنَّ موعدَ رحلتِها إلى هامبورج قدْ حانَ وها هوَ القطارُ يتوقّفُ عندَ منصّتِها.

وكعادتِها، اختارتْ مقعدًا قربَ النّافذةِ واستعدّتْ لرحلةٍ ثانيةٍ طويلةٍ. تعوّدتْ على صوتِ القطارِ ونزولِ وصعودِ ركّابٍ جددٍ في كلِّ محطّةٍ يتوقّفُ فيها القطارُ. نامتْ نومًا متقطّعًا... وأخيرًا... وصلَ القطارُ إلى محطّةِ القطاراتِ الرّئيسةِ في هامبورج.

◆◆◆

62

في هامبورج



وقفتْ شادن تنظرُ حولَها باهتمامٍ. محطّاتُ القطاراتِ كلُّها متشابهةٌ... لا شيءَ يختلفُ فيها سوى اللّغةِ المكتوبةِ على اللّافتاتِ واللّوحاتِ الإعلانيّةِ.

ها هيَ على أبوابِ المرحلةِ الأخيرةِ منْ رحلتِها... نظرتْ إلى جدولِ مواعيدِ الرّحلاتِ وتأكّدتْ منْ أنَّ موعدَ رحلتِها إلى كوبنهاجن سيكونُ بعدَ عدّةِ ساعاتٍ. ترى هلْ تبقى في المحطّةِ أمْ تجازفُ وتخرجُ لتتمشّى في المدينةِ؟

الجميعُ في المحطّةِ يمشونَ مسرعينَ.... سمعتْ ضجيجًا وكلماتٍ بالعربيّةِ. نظرتْ بلهفةٍ تجاهَ الصّوتِ فوجدتْ عائلةً سوريّةً مكوّنةً منْ أمٍّ وأبٍ، وثلاثةِ أطفالٍ تتراوحُ أعمارُهُمْ بينَ السّنةِ والعشرِ من السّنواتِ. كانتِ العائلةُ قدْ نزلتْ للتوِّ منْ إحدى عرباتِ القطارِ، ووقفتْ على رصيفِ المحطّةِ تنظرُ حولَها محاولةً أنْ تقرّرَ خطوتَها التّاليةَ. كانَ يبدو على الأمِّ التّعبُ الشّديدُ وهيَ تحملُ طفلَها وهوَ يبكي ويصرخُ بأعلى صوتِهِ: "ماما... بدّي أروح البيت. بدّي أرجع على بيتنا"

حاولتِ الأمُّ تهدئتَهُ قائلةً: "تحمّلْ يا صغيري، سنرتاحُ بعدَ قليلٍ." أمّا أخوهُ الأكبرُ فنهرَهُ قائلاً: "كمْ مرّةً قلنا لكَ إنَّ بيتنا قدْ تهدّمَ؟ لا يوجدُ عندَنا بيتٌ لنعودَ إليهِ."

وقفَ أمامَهُمْ رجلٌ كبيرٌ في السّنِّ يهزُّ عصاهُ ويلوّحُ بها باتّجاهِهِمْ ويصيحُ بالألمانيّةِ بغضبٍ. فهمتْ شادن منْ حركاتِهِ أنّهُ يطلبُ منْهُمُ العودةَ إلى بلادِهِمْ. انضمَّ إليهِ عدّةُ أشخاصٍ منَ المارّةِ يؤيّدونهُ حتّى إنَّ أحدَ الشّبابِ تجرّأَ وركضَ باتّجاهِ السّيّدةِ السّوريّةِ محاولاً جذبَ غطاءِ رأسِها. كادتْ أنْ تنشبَ مشاجرةٌ بينَ زوجِها وبينَ الشابِّ، ولكنْ في تلكَ اللّحظةِ، وصلتِ الشّرطةُ ومعَها مجموعةٌ منَ المتطوّعينَ لمساعدةِ اللّاجئينَ.

رغبتْ شادن في أنْ تسرعَ نحوَ العائلةِ السّوريّةِ وتعرضَ عليها خدماتِها ولكنَّ المتطوّعينَ الألمانَ الّذينَ حضروا معَ الشّرطةِ حاولوا أنْ يهدّئوا منْ روعِ الأطفالِ، وأعطوْا جميعَ أفرادِ العائلةِ معاطفَ لتقيَهُمْ منَ البردِ ثمَّ اصطحبوهم إلى خارجِ المحطّةِ. مشتْ شادن خلفَهُمْ عنْ بُعدٍ لتعرفَ إلى أينَ يأخذونَهُمْ، ولكنّها ظلّتْ حذرةً كيْ لا ينكشفَ أمرُها.

خارجَ المحطّةِ، كانتْ هناكَ خيمةٌ كبيرةٌ فيها متطوّعونَ منَ المجتمعِ المدنيِّ يسجّلونَ فيها أسماءَ اللّاجئينَ ويقدّمونَ لهمْ ما يحتاجونَهُ منْ إسعافاتٍ أوْ مساعدةٍ. اطمأنّتْ شادن عندَما رأتْ أنّهُمْ في أيدٍ أمينةٍ وأنّهُمْ قدْ وصلوا إلى حيثُ يريدونَ. تذكّرتْ شادي وأصدقاءَهُ. هلْ نجحوا في الوصولِ همْ أيضًا إلى ألمانيا يا ترى؟ كمْ تتمنّى ذلكَ من أعماقِ قلبِها!

مشتْ شادن في الشّوارعِ القريبةِ منَ المحطّةِ لتستكشفَها. حدّدتْ على هاتفِها بعضَ الأماكنِ مثلَ متحفٍ ومتنزّهٍ ومجمّعٍ تجاريٍّ. وعندَما بدأتِ السّماءُ تمطرُ، دخلتْ إلى المجمّعِ التّجاريِّ لتقضيَ الوقتَ بانتظارِ موعدِ رحلتِها التّاليةِ.

في المجمّعِ، وجدتْ مكانًا هادئًا فيهِ بعضُ الخصوصيّةِ لتكلّمَ عمَّها وتخبرَهُ أنّها في طريقِها إلى مالمو. ستكونُ صدمةً لهُ ولكن سيكونُ لديهِ الوقتُ الكافي ليستوعبَ الأمرَ. ارتجفتْ أصابعُها وتسارعتْ دقّاتُ قلبِها وهيَ تتّصلُ بهِ. رنَّ الهاتفُ طويلاً ولمْ يردَّ عليها أحدٌ.

شعرتْ بالقلقِ وحدّثتْ نفسَها... هلْ هذا هوَ الرّقمُ الصّحيحُ؟ هلْ منَ الممكنِ أنْ يكونَ عمُّها قدْ غيّرَ رقمَ هاتفِهِ؟ انتظرتْ لمدّةٍ قصيرةٍ ثمَّ حاولتْ مرّةً ثانيةً. انفرجتْ أساريرُها عندَما سمعتْ صوتَ عمِّها يقولُ: "هلو، ja؟"

ردّتْ شادن بسرعةٍ: "عمّي... أنا... أنا شادن."

صمتَ عمُّها للحظةٍ وكأنّهُ يستوعبُ ما تقولُ ثمَّ أجابَ بلهفةٍ: "شادن! هلْ أنتِ بخيرٍ؟ أينَ أنتِ؟"

- "أنا في هامبورج. في طريقي إلى مالمو مرورًا بكوبنهاجن... في طريقي إليكَ ياعمّي."

- "في هامبورج؟! كوبنهاجن؟! إلى مالمو!! كمْ هذا رائعٌ! لا تعرفينَ يا شادن كمِ انشغلَ بالي عليكِ يا حبيبتي."

- "آسفةٌ يا عمّي. لقدْ كانتْ ظروفي صعبةً للغايةِ"

- "عندَما انقطعتْ أخبارُكُمْ عنّي، بحثتُ عنْ رقمِ هاتفِ خالِكِ في لبنان، وقدْ تأثّرتُ جدًّا بخبرِ وفاةِ والدتِكِ العزيزةِ رحمَها اللهُ."

- "أرأيتَ يا عمّي... لا أصدّقُ حتّى الآنَ أنّني فقدتُ أبي وأمّي."

- "رحمةُ اللهِ عليهِما، خطفهُما الموتُ منّا بسرعةٍ. يصعبُ على العقلِ أنْ يستوعبَ كيفَ تنجو أمّ ماجد منَ الحربِ في سوريا لتموتَ بفعلِ رصاصةٍ طائشةٍ في لبنانَ." تماسكتْ شادن وحبستْ دموعَها وقالتْ بصوتٍ متهدّجٍ: "نعمْ... صحيحٌ... يا لسخافةِ الحياةِ يا عمّي!"

تداركَ عمُّها نفسَهُ وقالَ لها بحنانٍ: "المهمُّ أنّكِ بخيرٍ يا عزيزتي. آخ يا شادن، عندَما عرفتُ أنّكِ تحاولينَ الوصولَ إلى السّويد عن طريقِ المهرّبينَ، جنَّ جنوني، ومنذُ ذلكَ الوقتِ لمْ أذقْ طعمَ النّومِ. خشيتُ أنْ يصيبَكِ مكروهٌ. كمْ أنا سعيدٌ الآنَ أنّكِ بخيرٍ وتحدثينني!"

قالتْ شادن: "عمّي، سأحكي لكَ بالتّفصيلِ عنْ كلِّ ما حدثَ معي عندَما أصلُ إليكَ إنْ شاءَ اللهُ. اعذرني لمْ أرغبْ في الاتّصالِ بكَ منْ قبلُ لأنّني لمْ أردْ أنْ ينشغلَ بالُكَ عليَّ. اطمئنَّ، أنا بخيرٍ. سأكونُ عندَكَ قريبًا."

قالَ العمُّ حامد: "يا إلهي! كمْ أصبحتِ قريبةً! كمْ أنا سعيدٌ! ولكنْ، انتبهي يا شادن ولا تخافي. أوّلَ ما تصلينَ إلى مالمو، عليكِ أنْ تسجّلي نفسَكِ على أنّكِ لاجئةٌ. السّويد لا ترفضُ أيَّ لاجئٍ يصلُ إلى أراضيها. سيسألونَكِ عدّةَ أسئلةٍ أساسيّةٍ ثمَّ سيقومونَ بتحديدِ موعدٍ آخرَ لمقابلةٍ أكثرَ تفصيلاً بعدَ مدّةٍ مناسبةٍ. سيسعدُهُمْ أنْ يعرفوا أنَّ لكِ قريبًا في مالمو مستعدًّا أنْ يستضيفَكِ. أعطيهمْ اسمي ورقمَ هاتفي وأخبريهمْ أنّني موجودٌ في المحطّةِ ليستدعوني ولأثبتَ لهمْ صحّةَ كلامِكِ، فيسمحوا لي باصطحابِكِ معي إلى بيتي لحينِ موعدِ المقابلةِ الثّانيةِ

وفيها سيقرّرونَ متى سيمنحونكِ إقامةً دائمةً في السّويد."

قالتْ شادن: "كمْ أنا مشتاقةٌ إليكَ يا عمّي!"

قالَ عمُّها وفي صوتِهِ حشرجةٌ: "وأنا أيضًا يا عزيزتي... وأنا أيضًا. سأكونُ بانتظارِكِ يا ابنةَ أخي الحبيبةَ." أخذَ العمُّ حامد يبكي أمّا شادن فحاولتْ أنْ تسيطرَ على نفسِها كيْ لا تلفتَ النّظرَ إليها. ابتلعتْ دموعَها وغالبتْ نفسَها إلى أنْ أردفَ عمُّها قائلاً: "أعتذرُ يا حبيبتي، لمْ أستطعْ أنْ أتمالكَ نفسي. انتبهي لنفسِكِ. سأكونُ في استقبالِكِ مع آنا ونديم في محطّةِ مالمو... إلى اللّقاءِ يا حبيبتي."

◆◆◆

63

المحطّة الأخيرة



عندَما توقّفَ القطارُ في محطّةِ القطاراتِ الرّئيسةِ في مالمو وبدأَ الرّكّابُ بالنّزولِ، لاحظتْ شادن العديدَ منَ اللّاجئينَ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ينزلونَ تباعًا منْ عرباتِ القطارِ الأخرى. كانَ منَ السّهلِ تمييزُهُمْ عنْ باقي الرّكّابِ، ليسَ فقط منْ ملابسِهِمْ وملامحِ وجوهِهِمْ، ولكنْ أيضًا منْ نظرةٍ معيّنةٍ تبدو على محيّاهُمْ تكشفُ عنْ هولِ التّجاربِ الّتي مرّوا بها.

طلبَ منها شرطيٌّ كانَ يقفُ بجانبِ بابِ عربةِ القطارِ أوراقَها الرّسميّةَ. أعطتْهُ جوازَ سفرِها السّوريَّ وقالتْ لهُ بكلِّ هدوءٍ باللّغةِ الإنكليزيّةِ: "أنا لاجئةٌ سوريّةٌ. أينَ أسجّلُ اسمي؟"

نظرَ إليها نظرةً سريعةً باستغرابٍ؛ فشكلُها لا يوحي بذلك، ثمَّ أشارَ إليها أنْ تقفَ في صفٍّ طويلٍ لتسجيلِ اللّاجئينَ قدْ بدأَ يتكوّنُ. وقفَ اللّاجئونَ بانتظامٍ وهدوءٍ مطمئنّينَ إلى أنَّ السّويد ستستقبلُهُمْ وستعاملُهُمْ معاملةً إنسانيّةً فلا حاجةَ للسّرعةِ والمزاحمةِ. عندَما حانَ دورُ شادن أُخذتْ بصماتُها وصُوّرَ جوازُ سفرِها. سألها أحد المسؤولينَ عنْ أهلِها وعنْ سببِ مغادرتِها سوريا، وعنِ الطّريقِ الّذي سلكتْهُ للوصولِ إلى السّويد. لمْ تستطعْ شادن أنْ تتمالكَ نفسَها عندَ ذكرِ أهلِها فانفجرتْ باكيةً وهيَ تقولُ لهُمْ إنّها أصبحتْ يتيمةَ الأبوينِ

وإنَّ أخاها في السّجنِ. حكتْ أيضًا عنْ عمِّها السّويديِّ الّذي حاولَ جاهدًا أنْ يحصلَ لهُمْ على فيزا ولمْ ينجحْ في ذلكَ، وكيفَ قرّرتْ بعدَ وفاةِ والدتِها أنْ تحاولَ الوصولَ إلى السّويد لتحقّقَ وصيّةَ والدِها الّذي كانَ يرغبُ في أنْ يُبعدَ عائلتَهُ عنْ أتونِ الحربِ الدّائرةِ في سوريا، واختارَ السّويدَ لأنَّ أخاهُ يعيشُ فيها منذُ أكثرَ منْ عشرينَ عامًا.

استمعوا بهدوءٍ لما قالتهُ شادن ثم طلبوا مقابلةَ عمّها الّذي حضرَ مسرعًا وحضنَها ثمَّ التفتَ إليهِمْ ليجيبَ على أسئلتِهمْ.

سجّلوا معلوماتِهِ وسألوهُ العديدَ منَ الأسئلةِ فأجابَ باللّغةِ السّويديّةِ ثمَّ التفتوا إليْها وسألوها: "هلْ شجّعَكِ عمُّكِ على السّفرِ إلى السّويد عبرَ الطّرقِ غيرِ الشّرعيّةِ؟"

نفتْ شادن ذلكَ بشدّةٍ وقالتْ: "لا... لا، أبدًا... أبدًا... عمّي لم يعرفْ أيَّ شيءٍ عنْ مخطّطاتي قبلَ البارحةِ عندَما اتّصلتُ بهِ منْ هامبورغ لأخبرَهُ أنني سأستقلُّ القطارَ إلى مالمو عن طريقِ كوبنهاجن."

طلبوا أنْ يتعرّفوا على آنا ونديم اللّذيْنِ حضرا بسرعةٍ أيضًا وأجابا على أسئلةِ المحقّقينَ الّذينَ سمحوا لشادن بالذّهابِ مع عمّها وعائلتِهِ وحدّدوا لها موعدًا لمقابلةٍ ثانيةٍ بعدَ شهرٍ منَ الزّمنِ.

عندَما خرجتْ شادن منْ محطّةِ القطارِ محاطةً بعائلةِ عمِّها شعرتْ بأنّهُ قدْ أصبحَ لها عائلةٌ ثانيةٌ وفرصةٌ جديدةٌ لحياةٍ أفضلَ. نظرَتْ إلى عمّها حامد... آهٍ كمْ يشبهُ والدَها!! حتّى صوتُه لهُ نفسُ النّبرةِ. أحسّتْ بلوعةِ الاشتياقِ لوالدِها

فحدّثتْهُ قائلةً: "لقدْ حقّقتُ وصيّتَكَ يا والدي. أنا الآنَ مع عائلةِ أخيكَ الحبيبِ."

في الطّريقِ إلى البيتِ، أشارتْ آنا إلى بعضِ معالمِ مدينةِ مالمو ووعدتْها أنْ تأخذَها لزيارةِ هذهِ الأماكنِ بعدَ أنْ ترتاحَ وتستقرَّ في بيتِها الجديدِ. جلسَ نديم بصمتٍ قربَها يسترقُ النّظرَ إليها بينَ الفينةِ والأخرى. يبدو أنّهُ خجولٌ. هيَ لا تلومُهُ طبعًا فعليهِ أنْ يتأقلَمَ منَ اليومِ مع فكرةِ أنَّ قريبةً لهُ لا يعرفُها سوفَ تصبحُ جزءًا منْ عائلتِهِ. قدْ يحتاجُ نديم إلى بعضِ الوقتِ ليستوعبَ ما يحدثُ.

تأثّرتْ شادن عندَما دخلتْ إلى البيتِ، ووجدتْ أنَّ عائلةَ عمّها قدْ هيّأتْ لها غرفةً فيها كلُّ سبلِ الرّاحةِ بالإضافةِ إلى حاسوبٍ محمولٍ قدّمهُ عمُّها هديّةً لها قائلاً: "هذا يا عزيزتي لتتواصلي معَ الأهلِ والأصدقاءِ أينما كانوا في العالمِ."

أضافتْ آنا: "ولتستخدميهِ في دراستِكِ للّغةِ السّويديّةِ والدّراسةِ الجامعيّةِ إنْ أردتِ."

ثمّ أشارتْ إلى ملابسَ جديدةٍ على سريرِ شادن وقالتْ: "أحضرتُ لكِ بعضَ الملابسِ الّتي قدْ تحتاجينَ إليْها في الأيّامِ الأولى. أرجو أنْ تكونَ على مقاسِكِ، وقريبًا سنذهبُ معًا إلى السّوقِ لتختاري بنفسِكِ ما تريدينَ."

ابتسمَ العمُّ حامد وقالَ: "أخيرًا وجدتْ آنا رفيقةً لها لتذهبَ معَها للتّسوّقِ. هيَ دائمًا تحاولُ أنْ تجرجرَني معَها إلى الأسواقِ وأنا أرفضُ ذلكَ بشدّةٍ. والآنَ، ما رأيكِ بعدَ أنْ ترتاحي قليلاً يا شادن أنْ نتّصلَ بخالِكِ ونطمئنَهُ عليكِ؟ وعدتُهُ بأنْ أتّصلَ بهِ حالَما يصلني أيُّ خبرٍ منكِ. المسكينُ يشعرُ بالمسؤوليّةِ والقلقِ

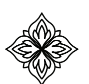
الشّديدِ عليكِ."

هاتفتْ شادن خالَها واعتذرتْ منهُ مرّةً ثانيةً على ما سبّبتهُ لهُ منْ قلقٍ، وأرسلتْ سلامَها لعائلتهِ، ووعدتْهُ أنْ تظلَّ على اتّصالٍ دائمٍ بهِمْ جميعًا.

◆◆◆

64

شلّال الحزن



معْ بدايةِ فصلِ الشّتاءِ وظهورِ الشّمسِ لساعاتٍ معدودةٍ فقط، وجدتْ شادن صعوبةً في التّعوّدِ على طقسِ مالمو. شعرتْ بانقباضٍ مستمرٍّ وبشوقٍ جارفٍ إلى طقسِ بلادِها حيثُ أشعّةُ الشّمسِ الذّهبية تبعثُ الحياةَ والدّفءَ حتّى في عزِّ بردِ الشّتاءِ. كانتْ تستيقظُ ليلاً وهيَ تبكي بلوعةٍ، وأحيانًا كانتْ تبكي وتصرخُ في منامِها فيسرعُ عمُّها وآنا للاطمئنانِ عليْها. تارةً تنادي والدَها وتارةً أخرى تنادي ماجد... تتحدّثُ وتضحكُ مع والدتِها وعندَما تستيقظُ تبكي بمرارةٍ أكبرَ لأنّهُ حلُمٌ وليسَ حقيقةً. كانَ عمُّها يجلسُ قربَها على السّريرِ، يمسكُ يدَها ويمسحُ شعرَها ثمَّ يشدُّ الغطاءَ فوقَها وهوَ يقولُ: "اشربي قليلاً منَ الماءِ يا عزيزتي. ما هذا إلّا حلُمٌ مزعجٌ. أنتِ الآنَ في أمانٍ معنا. كلُّ ما حصلَ فاتَ ومضى، وستتحسّنُ الأمورُ في بلادِنا قريبًا إنْ شاءَ اللهُ، وأعدُكِ أنّنا سنظلُّ نحاولُ أنْ نحضرَ ماجد إلى هنا ليعيشَ معنا هوَ أيضًا."

يبدو أنَّ شادن الّتي ظلّتْ متماسكةً منذُ أنْ غادرتْ لبنان ما إنْ وصلتْ إلى بيتِ عمِّها حتّى أطلقَتْ لنفسِها العنانَ واندفقَ شلّالُ الحزنِ المنحبسُ داخلَها.

لمْ تعرفْ شادن لماذا سيطرَ عليها الشّعورُ بالإحباطِ والقنوطِ بعدَ مدّةٍ منْ وصولِها إلى السّويد. توقّعتْ بعدَ المعاناةِ الّتي مرّتْ بها أنَّ كلَّ شيءٍ سيكونُ

على مايرامُ وأنّها ستعيشُ "في سعادةٍ دائمةٍ" كما تقولُ القصصُ الخرافيّةُ الّتي كانتْ تحبُّ الاستماعَ إليها وهيَ طفلةٌ. لعلَّ هذا هوَ سببُ تسميتِها بالخرافيّةِ لأنَّ السّعادةَ الدّائمةَ خرافةٌ لا يمكنُ أنْ تتحقّقَ لأحدٍ.

كانَ الشّعورُ بالغربةِ يسيطرُ على كلِّ ذرّةٍ منْ كيانِها. والشّعورُ بالحنينِ لأمِّها ووالدِها وأخيها كانَ يلازمُها... حنينٌ لضحكاتِهِمْ... لهمساتِهِمْ... لمشاجراتِهِمْ... لرائحةِ قهوةِ الصّباحِ... لمذاقِ الطّعامِ في الجلساتِ العائليّةِ الحميمةِ. شعورٌ بالحنينِ أيضًا لأزقّةِ المدينةِ الضيّقةِ، وأسواقِها المكتظّةِ، ولأماكنِ التنزّهِ في ريفِها. هذهِ التّفاصيلُ الصّغيرةُ التي تكوّنُ "موزاييكَ" الوطنِ في وجدانِ كلٍّ منّا، هيَ للأسفِ، الّتي لا نعرفُ قيمتَها الحقيقيّةَ إلّا عندَ فقدانِها.

شعرتْ بالغربةِ في بيتِ عمِّها الّذي تكادُ لا تعرفُهُ. تبحثُ في خطوطِ وجهِهِ وفي صوتِهِ عنْ ملامحِ والدِها وعندَما تجدُها تغصُّ بها بدلاً منْ أنْ تفرحَ.

تنظرُ إلى آنا وهيَ تحاولُ باستمرارٍ أنْ تشعرَها بأنَّها في بيتِها، ولكنَّ كلَّ ما تراهُ هوَ أنَّ آنا ليستْ أمَّها وأنَّ عمَّها ليسَ والدَها ونديم ليسَ ماجد وهذا البيتَ الحديثَ الجميلَ ليسَ بيتَها.

شعرَ عمُّها بالقلقِ وقلّةِ الحيلةِ وهوَ يراها تنزوي في غرفتِها حزينةً ومكتئبةً.

قالتْ لهُ آنا: "لا تقلقْ يا عزيزي حامد، لقدِ استشرتُ صديقتي، بريجيتا، الطّبيبةَ النّفسيّةَ وطمأنتني على حالةِ شادن."

- "وماذا قالتْ لكِ؟"

- "قالتْ لي: أنتمْ لا تعرفونَ المصاعبَ الّتي مرّتْ بها هذهِ الفتاةُ. وممّا سمعتُ منكِ، يبدو لي أنّهُ لمْ تتحْ لها الفرصةُ الكافيةُ لتتغلّبَ على حزنِها بسببِ فقدانِ والديْها، بلِ اضطرّتْ أنْ تنشغلَ رأسًا بأمورٍ حياتيّةٍ آنيّةٍ. والآنَ عليْها أنْ تواجهَ مشاعرَها ومخاوفَها حتّى تتعافى تمامًا وتستطيعَ أنْ تفتحَ صفحةً جديدةً في حياتِها."

- "ماذا تقولينَ يا آنا؟ هلْ نجلسُ مكتوفي الأيدي نراقبُها ولا نفعلُ شيئًا؟"

- "لا يا عزيزي، علينا أنْ نؤكّدَ لها أنّنا كلّنا معَها وأنّنا نحترمُ حاجتَها إلى البقاءِ مع نفسِها لبعضِ الوقتِ. وقدْ عرضتْ عليَّ بريجيتا أنْ ترى شادن لتعالجَها عندَما تكونُ مستعدّةً لذلكَ."

ويبدو أنَّ صديقةَ آنا صدقتْ في قولِها لأنّهُ مع مرورِ الأيّامِ بدأتْ شادن تتعافى. صارتْ تقضي وقتًا مع عمِّها وتتحدّثُ معهُ مطوّلاً عنْ والدِها. كانتْ تطلبُ منهُ أنْ يرويَ لها قصصًا عنْ طفولتِهِ مع أبيها، فتضحكُ على شقاواتِهما وتحكي لهُ بدورِها عنِ الحياةِ في سوريا قبلَ الأحداثِ الّتي عصفتْ بهمْ منْ كلِّ مكانٍ.

وأثناءَ أحدِ الأحاديثِ مع آنا، عبّرتْ شادن عنْ بعضِ مكنوناتِ نفسِها قائلةً: "لا أعرفُ ما بي؟ ولماذا أشعرُ بالاكتئابِ والحزنِ يا آنا؟ أشعرُ بالذّنبِ أيضًا وبأنّني ناكرةٌ للجميلِ، لكمْ وللسّويد ولأهلِها الطّيبينَ الّذينَ فتحوا بلادَهُم لي ولغيري منَ اللّاجئينَ."

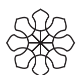
قالتْ لها آنا: "إنَّ ما تشعرينَ بهِ يا شادن طبيعيٌّ؛ فأنتِ تحاولينَ التّأقلمَ مع عالمٍ جديدٍ. الموضوعُ يحتاجُ إلى وقتٍ فلا تستعجلي ولا تقسي على نفسِكِ، والتّأقلمُ

لا يعني أنّكِ نسيْتِ وطنَكِ وأدرتِ لهُ ظهرَكِ. فالوطنُ الأمُّ سيظلُّ حيًّا في نفسِكِ وروحِكِ، تنقلينَهُ معكِ أينَما ذهبتِ وستهبينَ محبّتَهُ مستقبلاً لأولادِكِ."

◆◆◆

65

ساحة مالمو



مع مرورِ الأيّامِ، صارتْ شادن تقضي وقتًا أطولَ مع عائلةِ عمّها. وفي أحدِ الأيّامِ أبدتْ رغبةً في التّمشّي خارجَ البيتِ قائلةً: "لقدْ توقّفَ المطرُ وأشعرُ بحاجةٍ للخروجِ منَ البيتِ واستكشافِ الحيِّ."

قالَ عمُّها والقلقُ بادٍ على وجهِهِ: "هلْ أخرجُ معَكِ؟ أخافُ عليْكِ أنْ تضيعي."

ضحكَ نديم وقالَ: "أيعقلُ يا أبي أنْ تخافَ على شادن منَ الضّياعِ بعدَ أنْ قامتْ بهذهِ الرّحلةِ الطّويلةِ وحدَها وعبرتِ البلادَ لتصلَ إليْنا؟"

ضحكَ الجميعُ وقالَ العمُّ حامد: "معكَ حقٌّ يا نديم. شادن فتاةٌ يُعتمدُ عليْها في أيِّ ظرفٍ كانَ."

قالَ نديم لشادن: "أيزعجُكِ أن أتمشّى معكِ؟ أستطيعُ أنْ أدلّكِ على كلِّ الأماكنِ في حيِّنا."

قالتْ آنا: "كفى! لا تزعجوا شادن. لعلّها بحاجةٍ لأنْ تتمشّى وحدَها."

ابتسمتْ شادن وقالتْ: "لا، لا يا آنا، يسعدُني أنْ يكونَ معي دليلٌ مثلُ نديم."

كانَ بيتُ عمّها في الطّابقِ الخامسِ في عمارةٍ سكنيّةٍ قريبةٍ منْ ساحةِ "مولفانجستورجت" Möllevångstorget.

مشتْ شادن مع نديم في أزقّةٍ ضيّقةٍ أوصلتْهُما إلى شوارعَ واسعةٍ مرتّبةٍ. وللمرّةِ الأولى رأتْ ما حولَها بوضوحٍ. في الأسابيعِ الماضيةِ، كانتْ تعيشُ في ضبابيّةٍ حبيسةَ ذكرياتِها ومخاوفِها، ولكنَّ الأمورَ بدأتْ تتحسّنُ بالنّسبةِ لها. لفتَتْ نظرَها البناياتُ ذاتُ الطّرازِ المعماريِّ القديمِ بألوانِها الدّافئةِ. معظمُها كانَ باللّونيْنِ الأصفرِ والبرتقاليِّ، ربّما لتذكِّرَ أهلَ المدينةِ بدفءِ الشّمسِ وتعوّضَهُمْ عنْ طولِ فصلِ الشّتاءِ.

لاحظتْ شادن أنَّ كثيرًا منَ النّاسِ يستخدمونَ الدّرّاجاتِ الهوائيّةَ للتّنقّلِ منْ مكانٍ إلى آخرَ.

سألَها نديم: "هلْ تعرفينَ ركوبَ الدّرّاجةِ الهوائيّةِ؟"

- "للأسفِ، لا أعرفُ."

- "إذًا هذا شيءٌ آخرُ يمكنُني أنْ أعلّمَكِ إيّاهُ أيضًا."

- "وما هوَ الشّيءُ الأوّلُ يا نديم؟"

- "اللّغةُ السّويديّةُ طبعًا."

- "رائعٌ! ولكنْ على شرطِ أنْ تتعلّمَ أنتَ اللّغةَ العربيّةَ."

- "أفهمُ معظمَ ما يقالُ، ولكنّني أجدُ صعوبةً في التّحدّثِ بها."

نظرتْ شادن إلى نديم بتأمّلٍ فقدْ رأتْ فيهِ ملامحَ منْ أخيها ماجد... وأسعدَها أنّهُ قدْ تغلّبَ على خجلِهِ منْها وصارَ بمثابةِ أخٍ لها. قالتْ بابتسامةٍ رقيقةٍ: "تمامٌ! إذًا اتّفقنا يا معلّمي الجديدَ، ولكنْ إلى أينَ ستأخذُني الآنَ؟"

- "إلى ساحةِ مالمو... نحتاجُ إلى نصفِ ساعةٍ منَ المشيِ تقريبًا. إذا تعبتِ يمكنُنا أنْ نركبَ الباصَ."

- "لا أبدًا، المشيُ هوَ ما أحتاجُ إليهِ، ولكنْ ما هوَ الشّيءُ المميّزُ في هذهِ السّاحةِ؟"

- "إنّها مفاجأةٌ! ستعرفينَ حينَ نصلُ."

وأخيرًا وصلا إلى السّاحةِ. وقفتْ شادن تنظرُ حولها باهتمامٍ. يتوسّطُ السّاحةَ نصبٌ تذكاريٌّ وبالقربِ منهُ بعضُ محلّاتِ الخضارِ والفواكهِ والأزهارِ، وحولَ السّاحةِ مطاعمُ ومحلّاتٌ تجاريّةٌ منْ دولٍ مختلفةٍ.

قالتْ شادن وهيَ تشيرُ إلى عدّةِ مطاعمَ كتبتْ أسماؤها باللغةِ العربيّةِ:

- "كمْ أنا سعيدةٌ لأنَّ هناكَ مطاعمَ عربيّةً!"

- "لا حاجةَ لأنْ تشعري بالغربةِ في مالمو. يمكنُكِ أنْ تأتي إلى هذهِ السّاحةِ وتسمعي اللّغةَ العربيّةَ بالإضافةِ إلى العديدِ منَ اللّغاتِ الأخرى فتشعري أنّكِ في الأممِ المتّحدةِ. فما يميّزُ مالمو عنْ غيرها منَ المدنِ السّويديّةِ أنّها متعدّدةُ الثّقافاتِ. في هذهِ السّاحةِ، يمكنكِ أنْ تأكلي الأكلَ الهنديَّ، والتّايلنديَّ، واليونانيَّ والأندونيسيَّ. والآنَ، ما رأيكِ بسندويشِ فلافلَ؟"

- "ممم! كمِ اشتقتُ إلى مثلِ هذا الطّعامِ! دعنا نشتري سندويشاتٍ لنا ولوالديكَ ونعودُ إلى البيتِ لنأكلَها معًا."

وفي طريقِ العودةِ، أشارتْ شادن إلى النّصبِ التّذكاريِّ وسألتْ نديم عنهُ.

- "هذا النّصبُ منحوتةٌ قديمةٌ منْ عامِ 1931 اسمُها "شرفُ العملِ" مصنوعةٌ منْ مادّتَي البرونزِ والجرانيتِ."

- "حقًّا إنّكَ دليلٌ سياحيٌّ ممتازٌ يا نديم!"

اقتربَ نديم وشادن منَ المنحوتةِ لتتفحّصها شادن بشكلٍ أفضلَ، وهناكَ قابلا ثلاثةً منْ زملائِهِ في المدرسةِ.

عرّفها على أصدقائِهِ وهوَ يقولُ: "هذهِ ابنةُ عمّي... جاءتْ منْ سوريا، ستعيشُ معنا في السّويد". قالَ أحدُ رفاقِهِ ممازحًا: "أينَ ربطتِ ابنةُ عمّكَ الجملَ؟" كادَ أنْ يتعاركَ معَهُ ولكنَّ رفاقَهُ أوقفوهُ.

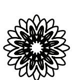
وعندما ترجمَ أحدُهمْ لشادن ما قالَ الشّابُّ ضحكتْ عاليًا وقالتْ: "قلْ لهُ إنَّ جملي يلعبُ في الحديقةِ مع دبِّهِ القطبيِّ."

فضحكَ الجميعُ وخفَّ التّوتّرُ واعتذرَ الشّابُّ منْها ومنْ نديم.

◆◆◆

66

يا ليت



كانَ اللّقاءُ الثّاني معَ السّلطاتِ السّويديّةِ روتينيًّا وسريعًا، فبعدَ أنْ تأكّدتْ منَ المعلوماتِ المعطاةِ لهمْ مُنحتْ شادن إقامةً دائمةً في السّويدِ. فوجئتْ شادن فهيَ لمْ تتوقّعْ أبدًا أنْ تحصلَ على الإقامةِ بهذهِ السّرعةِ والسّهولةِ.

نظرتْ طويلاً إلى بطاقةِ الإقامةِ في يدِها وشعرتْ بالحزنِ ثمَّ انتابها شعورٌ بالغضبِ وقالتْ لنفسِها: "آخٍ... يا ليتَ السّويد منحتهمُ الفيزا ولمْ ترفضهمْ في المرّةِ الأولى. لوْ فعلتْ لكانَ والدُها ووالدتُها ما زالا على قيدِ الحياةِ... كانَ منَ الممكنِ أنْ يبدأوا حياتَهمْ جميعًا منْ جديدٍ... يا ليتَ... يا ليتَ... تذكّرتْ مَثَلاً كانتْ والدتُها تردّدُهُ لها دائمًا وهيَ تحثّها على أخذِ قراراتِها بناءً على الوقائعِ وليسَ بالتّمنّي. كانتْ تقولُ لها: "يا شادن تذكّري دائمًا أنَّ كلمة ياريت عمرها ما بتعمّر بيت." مسحتْ دمعةً تدحرجتْ على خدِّها وأعادتِ البطاقةَ إلى محفظتِها.

ومع مرورِ الأيّامِ، بدأتْ شادن تندمجُ في الحياةِ اليوميّةِ في مالمو، خاصّةً عندَما باشرَتِ الذّهابَ إلى معهدِ اللّغاتِ لتعلّمِ اللّغةِ السّويديّةِ. صارتْ تستقلُّ الحافلةَ إلى المعهدِ. تعرّفتْ على كثيرٍ منَ الطّلّابِ منْ جنسيّاتٍ مختلفةٍ، كثيرٌ منهمْ منَ العربِ.

وعندَما عرفَ نديم أنّها كانتْ كابتنَ فريقِ مدرستِها في كرةِ السّلّةِ تحمّسَ وقالَ لها: "أنا مثلُكِ أحبُّ كرةَ السّلّةِ، وألعبُ مع فريقِ نادي مالمو الرياضيِّ. ما رأيُكِ أنْ تأتي معي إلى النّادي؟ سأعرّفكِ على مدرّبِ كرةِ السّلّةِ هناكَ."

- "ولكنّني لمْ ألعبْ منذُ مدّةٍ طويلةٍ."

- "أعرفُ، لكنّكِ ستستعيدينَ لياقتَكِ البدنيّةَ بسرعةٍ."

- "ولكنْ... لا يوجدُ عندي ملابسُ مناسبةٌ للّعبِ."

قالت آنا: "ما رأيُكِ أنْ نذهبَ إلى المجمّعِ وتختاري ما يناسبُكِ منَ الملابسِ الرياضيّةِ وغيرِ الرياضيّةِ"

فرحتْ شادن وحضنتْ آنا وقالتْ: "شكرًا آنا."

عندما حانَ موعدُ تدريبِ نديم رافقتْهُ شادن إلى النّادي. جلستْ على أحدِ المقاعدِ تراقبُ اللّعبَ باستمتاعٍ. وبعدَ الانتهاءِ منَ التّمرينِ، عرّفَ نديم شادن على مدرّبِهِ الّذي رحّبَ بها قائلاً:

- "أهلاً بكِ في مالمو يا شيدن."

- "أهلاً، اسمي شا... د... ن."

- "أخبرني نديم أنّكِ كنتِ كابتنَ فريقِ مدرستِكِ."

- "نعمْ، ولكنّي لمْ ألعبْ منذُ مدّةٍ طويلةٍ."

- "أعرفُ ذلكَ يا شا... د... ن، لقدْ مررتِ بظروفٍ في غايةِ الصّعوبةِ. ما رأيكِ أنْ نقومَ ببعضِ التّمارينِ البسيطةِ لأعرفَ مستواكِ في اللّعبِ؟"

نزلتْ شادن إلى الملعبِ معَ المدرّبِ وهيَ تشعرُ ببعضِ الخوفِ والتّردّدِ.

قالَ المدرّبُ: "لا أظنُّ أنَّ الفتياتِ العربيّاتِ يلعبنَ كرةَ السّلّةِ جيّدًا. إنّهنّ خجولاتٌ جدًّا."

انفعلتْ شادن ونظرتْ إليهِ شزرًا، ثمَّ خطفتِ الكرةَ منهُ وصارتْ تضربُها أرضًا وهيَ تقولُ: "حاولْ أنْ تأخذَ الكرةَ منّي."

ضحكَ المدرّبُ وقالَ: "سأدعُ نديم يحاولُ، وأنا سأكتفي بالمراقبةِ."

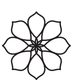
ركضتْ شادن في الملعبِ. حاولَ نديم أنْ يأخذَ الكرةَ منْها أوْ أنْ يصدَّ ضرباتِها ولكنّهُ وجدَ صعوبةً في ذلكَ؛ فقدْ كانتْ تسيطرُ على الكرةِ بمهارةٍ فائقةٍ.

صفّقَ المدرّبُ وقالَ: "برافو شادن... لقدْ أثبتِّ جدارتَكِ في اللّعبِ. يشرّفني أن تنضمّي لتمارينِ نادي الفتياتِ. واعذريني على مشاكستِكِ سابقًا فقدْ أردتُ أنْ أستفزّكِ لتنسيْ خجلَكِ وتردّدَكِ."

◆◆◆

67

صدفة جميلة



دلّتْ آنا شادن على المكتبةِ العامّةِ القريبةِ منَ البيتِ، وعرّفتْها على أمينةِ المكتبةِ الّتي رحّبتْ بها وأصدرتْ لها بطاقةَ عضويّةٍ في المكتبةِ.

صارتْ شادن تتردّدُ على المكتبةِ عدّةَ مراتٍ في الأسبوعِ للدّراسةِ والمطالعةِ. تذكّرتْ عملَها في المكتبةِ العامّةِ في بيروت وفي المخيّمِ مع أنتونيلا في إيطاليا.

توطّدتْ علاقةُ صداقةٍ بينَها وبينَ ليز، أمينةِ المكتبةِ؛ فسألتْها ذاتَ يومٍ: "هلْ تحتاجينَ إلى مساعدةٍ في المكتبةِ يا ليز؟ عندي خبرةٌ في العملِ في المكتباتِ."

فرحتْ ليز وقالتْ لها: "هذا رائعٌ يا شادن! طبعًا أحتاجُ إلى مساعدةٍ خاصّةً فيما يتعلّقُ بقسمِ اللّغةِ العربيّةِ في المكتبةِ. يمكنكِ أنْ تساعديني في تصنيفِ الكتبِ الجديدةِ الّتي تصلُنا منَ المكتبةِ العالميّةِ في ستوكهولم. يسعدني أنْ تبدئي بالصّندوقِ الأخضرِ على الطّاولةِ. إنّهُ يحتوي على كتبٍ وصلتْنا حديثًا ونحتاجُ إلى فرزِها وتصنيفِها."

ابتسمتْ شادن وقالتْ: "رائعٌ! سأبدأُ منَ اليومِ."

أخذتْ شادن تتصفّحُ القصصَ المصوّرةَ، وفجأةً، وقعَ نظرُها على كتابٍ للأطفالِ،

رسومُهُ بدتْ مألوفةً لها.

نظرتْ إلى اسمِ الرّسّامِ وكادتْ تقفزُ منِ الفرحِ. إنّهُ الكتابُ الّذي رسمهُ سميح! إنّهُ بذاتِهِ! تذكّرتْ كيفَ كانَ يأخذُ رأيَها في الرّسوماتِ. كمْ كانّ متحمّسًا لرؤيتِهِ مطبوعًا. أرادتْ أنْ تشاركَ أيَّ أحدٍ بهذا الاكتشافِ الرّائعِ، فأسرعتْ إلى ليز وهيَ تحملُ الكتابَ وتحرّكُهُ أمامَ عينيها قائلةً: "انظري، انظري إلى هذا الكتابِ الجميلِ يا ليز! الرّسّامُ صديقي ويعيشُ في سوريا."

تحمّستْ ليز وقالتْ: "كمْ هذا رائعٌ! ما رأيُكِ أنْ تقرئِي القصّةَ لمجموعةٍ منَ الأطفالِ الّذينَ يتكلّمونَ العربيّةَ؟ سيحضرونَ إلى المكتبةِ غدًا."

هزّتْ شادن رأسَها بالموافقةِ ودموعُ الفرحِ تترقرقُ في عينيْها وهيَ تفكّرُ بالصّدفةِ الّتي جعلتْ هذا الكتابَ بالتّحديدِ يقعُ بينِ يديْها في هذهِ البلادِ البعيدةِ جدًّا عنِ الوطنِ.

تذكّرتِ الأوقاتَ الجميلةَ الّتي كانتْ تقضيها وهيَ تتجاذبُ أطرافَ الحديثِ مع سميح على الهاتفِ. تذكّرَتْ كيفَ وقفَ بجانبِها في أحلكِ السّاعاتِ الّتي مرّتْ بها. شعرَتْ بالذّنبِ لأنَّها منذُ وصولِها إلى السّويدِ اقتصرَ تواصلُها معَهُ على رسائلَ قصيرةٍ تطمئنُهُ فيها عنْ حالِها فقط.

لمْ تكدْ تصلُ إلى البيتِ حتّى جلسَتْ وحدَها في غرفتِها وكتبتْ لهُ رسالةً مطوّلةً تخبرُهُ فيها عمّا حدثَ معَها في المكتبةِ بمحضِ الصّدفةِ، وعبّرَتْ لهُ عنْ إعجابِها بالرّسوماتِ وبالقصّةِ. سألتْهُ عنْ صحّتِهِ وعنْ عائلتِهِ وعنْ عملِهِ. اعتذرتْ منهُ وحاولتْ أن توضّحَ لهُ مشاعرَها المتضاربةَ الّتي منعتْها منَ التّواصلِ الحقيقيِّ

معَهُ ومع أصدقائِها الآخرينَ. ثمَّ أخبرتْهُ عنْ مدرسةِ اللّغاتِ وعنْ فريقِ كرةِ السّلّةِ والمكتبةِ قائلةً:

"اكتشفتُ يا سميح أنَّ أحسنَ دواءٍ للحنينِ الّذي يسيطرُ على الإنسانِ أحيانًا هوَ شغلُ وقتِهِ بما ينفعُ وبما يحبُّ. أشعرُ الآنَ أنّني بدأتُ أنتمي إلى هذا المكانِ البعيدِ الباردِ. قدْ يكونُ السّببُ أنّني صرتُ أستطيعُ التّجوّلَ فيهِ وحدي، وأفهمُ وأتكلّمُ لغتَهُ إلى حدٍّ ما. كلُّ ما ينقصُني هوَ وجودُكَ أنتَ وماجد معي هنا."

كانَ ردُّ سميح سريعًا ومطوّلاً. أخبرَها كمْ أسعدتهُ رسالتُها، وكمْ شعرَ بالخوفِ من فقدانِها بسببِ حياتِها الجديدةِ في السّويد. أكّدَ لها أنَّ ما شعرتْ بهِ كانَ طبيعيًّا ومتوقّعًا. عبّر لها عنْ سعادتِهِ لأنّها بدأتْ تكوّنُ صداقاتٍ وتتأقلمُ معَ المكانِ الجديدِ، وأنّهُ أسعدُ بكثيرٍ منْ أيِّ وقتٍ مضى لأنّها لمْ تنسَ أصدقاءَها القدامى.

شعرتْ بشوقٍ لرؤيتِهِ وللجلوسِ معَهُ ومحادثتِهِ فسألتْهُ إنْ فكّرَ يومًا في اللّجوءِ إلى السّويد، فكانَ ردّهُ أنّهُ على الرّغمِ منْ كلِّ ما حصلَ ويحصلُ في سوريا فهوَ لا يفكّرُ أبدًا بتركِها قائلاً:

"يجبُ أنْ يبقى بعضُنا في سوريا يا شادن؛ لنعيدَ إعمارَها منْ جديدٍ. أتمنّى أنْ يحصلَ هذا في القريبِ العاجلِ، ويعودَ إليْها أهلُها الّذينَ هُجّروا منها إلى بيوتِهِمْ آمنينَ وأنتِ أوّلُهُمْ يا عزيزتي. فالوطنُ دونَكِ سيكونُ ناقصًا بالنّسبةِ لي."

قرأتْ شادن الرّسالةَ أكثرَ منْ مرّةٍ وتوقّفتْ كثيرًا عندَ آخرِ جملةٍ. أسعدَها أنَّ

سميح ما زالَ يكنُّ لها هذهِ المشاعرَ الدّافئةَ.

لمْ تنسَ شادن أيضًا أصدقاءَها الآخرينَ الّذينَ لعبوا أدوارًا مهمّةً في حياتِها. تواصلتْ مع تيريزا الّتي ردّتْ عليها بسرعةٍ وأرسلتْ لها دعوةً لحضورِ زفافِها في أوّلِ الصّيفِ.

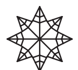
أمّا أنتونيلا فقدْ فرحتْ كثيرًا بوصولِ شادن بأمانٍ إلى السّويد ووعدتْ أنْ تزورَها في أقربِ فرصةٍ.

حاولتِ الاتّصالَ بشادي وأصدقائِهِ ولكنّها لمْ تتلقَّ ردًّا منْ أيٍّ منهُمْ بعدُ. هلْ وصلوا إلى ألمانيا واستقرّوا هناكَ أمْ أنَّ المشاكلَ واجهتْهُمْ في الطّريقِ؟

◆◆◆

68

سامحيني يا أختي



شعرتْ شادن براحةٍ نفسيّةٍ أكبرَ بعدَ أنْ عادتْ للتّواصلِ بشكلٍ جادٍّ مع سميح وأصدقائِها، واكتشفتْ أنَّ سرَّ هذهِ الرّاحةِ بالنّسبةِ لها قدْ يكونُ التّوازنَ بينَ الماضي والحاضرِ... بينَ العلاقاتِ القديمةِ والجديدةِ.

عادتْ لمكالماتِها الطّويلةِ مع سميح عندَما كانَ الوقتُ يسمحُ لكليْهما بذلكَ، وشاركتْهُ فرحتَهُ عندَما وقَّعَ عقدًا جديدًا مع دارِ نشرٍ مرموقةٍ لتنفيذِ رسوماتِ قصّةٍ أخرى. كانَ يرسلُ إليْها "الاسكتشاتِ" الأوليّةَ للرّسوماتِ و يأخذُ رأيَها في عملِهِ، وكانتْ شادن تحكي لهُ ما يحصلُ معها في المعهدِ وفي المكتبةِ.

أمّا بالنّسبةِ للأخبارِ عنْ ماجد، فقدْ كانتْ شادن متأكّدةً في قرارةِ نفسِها أنَّ سميح سيظلُّ يحاولُ حتّى ينجحَ في الاتّصالِ بهِ؛ لذا لمْ تستغربْ عندَما استلمتْ رسالةً إلكترونيّةً منْ سميح يقولُ فيها:

عزيزتي شادن،

عندي أخبارٌ جيّدةٌ، فقدْ تمكّنتُ قبلَ شهرٍ تقريبًا منْ أنْ أوصلَ رسالةً لماجد عبرَ المحامي، أخبرُهُ فيها بكلِّ ما حصلَ معكِ منذُ غيابِهِ وأطمئنُهُ أنّكِ وصلتِ إلى السّويد بأمانٍ وسلامٍ وأنّكِ تعيشينَ الآنَ مع عائلةِ عمِّكِ.

لقدْ بشّرني المحامي أنَّ مدّةَ الحبسِ لبعضِ المسجونينَ قدْ تخفّفُ والأملُ كبيرٌ في أنْ يكونَ ماجد ضمنَ هذهِ المجموعةِ. لمْ أخبرْكِ عنْ هذا منْ قبلُ لأنّني كنتُ أنتظرُ ردًّا منْ ماجد حصلتُ عليهِ أخيرًا. ردّهُ كانَ رسالةً موجّهةً إليكِ يا شادن. لنْ أكتبَ أكثرَ وسأتركُكِ لقراءةِ الرّسالةِ.

أختي الحبيبةَ شادن،

لا أعرفُ كيفَ أبدأُ رسالتي... هلْ أعزّيكِ وأعزّي نفسي بفقدانِ أحبِّ وأطيبِ أبويْنِ على وجهِ الأرضِ؟ أمْ أعتذرُ لكِ لأنّني تركتُكِ تواجهينَ كلَّ هذهِ الأهوالِ وحدَكِ ولمْ أكنْ موجودًا معكِ لأكونَ معينًا وحاميًا لكِ. هلْ أعتذرُ لكِ عنِ الألمِ والأسى الّذي سبّبهُ غيابي لكِ ولوالديَّ؟ غبائي وغروري جعلاني أتمسّكُ بأفكاري وأرفضُ مشورةَ أبي... سامحيني يا أختي! بربِّكِ سامحيني!

سأظلُّ ممتنًّا مدى الحياةِ لصديقي سميح الّذي نابَ عنّي وتحمّلَ مسؤوليّتَكِ أنتِ وأمّي، وقدّمَ لكما المساعدةَ في أصعبِ الأوقاتِ وأحلكِ الظّروفِ، ولولاهُ لما عرفتُ ما حصلَ. فقدْ شرحَ لي بالتّفصيلِ في رسالةٍ عنْ طريقِ المحامي ما حصلَ خلالَ غيابي عنْكُمْ وقال لي إنّكِ طلبتِ منهُ ذلكَ حتّى لا أُصدمَ. وكيفَ لا أُصدمُ يا شادن؟ كيفَ لا أُصدمُ؟

ما حصلَ صعبٌ على أيِّ إنسانٍ أنْ يتحمّلَهُ. فقدتُ أبي وأمّي، تهدّمَ منزلي، وأختي الوحيدةُ تحمّلتِ المخاطرَ وحدَها لتصلَ إلى السّويد. كلُّ ذلكَ وأنا قابعٌ في زنزانةٍ أراقبُ النّملَ وأعدُّ الأيّامَ.

أجدُ صعوبةً كبيرةً في أنْ أغفرَ لنفسي. كيفَ يمكنُ أنْ يحدثَ كلُّ هذا وأنا في غفلةٍ عنهُ.

سامحيني يا شادن، بربّكِ سامحيني؛ لأنّني ببساطةٍ لا أستطيعُ أنْ أسامحَ نفسي.

لا أستطيعُ أنْ أتخيّلَ أنّني لنْ أرى أمّي وأبي مرّةً ثانيةً... لا أستطيعُ أنْ أتقبّلَ أنّني لنْ أرى ابتسامةَ أمّي أوْ أنّني لنْ أستيقظَ على يدِها تمسحُ جبيني بحنانٍ وهيَ تدعو لي. كيفَ لعقلي أنْ يستوعبَ أنّني لنْ أجلسَ معَ أبي في المتجرِ أتحدّثُ وأتناقشُ معهُ في كلِّ الأمورِ الّتي تهمّني؟ أسمعُ قهقتَهُ وأشعرُ بزهوٍ وهوَ يربّتُ على كتفي.

كيفَ لعقلي أنْ يستوعبَ بأنّني لنْ أحضنَ أمّي وأبي وأقبّلَ أيديَهما بعدَ اليومِ؟ كيفَ؟ كمْ أشعرُ بالنّدمِ على كلِّ ما مرَّ. بربّكِ يا شادن! أريحيني منْ عذابي! قولي لي، هل كانَ أمّي وأبي غاضبيْنِ عليَّ؟ هلْ سامحاني؟

لمدّةِ أسبوعينِ وبعدَ قراءةِ رسالةِ سميح لمْ آكلْ ولمْ أشربْ ولمْ أنمْ. شعرتُ بأنّني لا أستحقُّ الحياةَ. أُدخلتُ إلى مستوصفِ السّجنِ. الطّبيبُ المشرفُ هناكَ كانَ إنسانًا طيّبًا وشعرَ بالرّأفةِ لحالي. كانَ يحدّثني مطوّلاً وأقنعني أنَّ عليَّ أنْ أعيشَ منْ أجلِكِ أنتِ...

أعرفُ أنّكِ وصلتِ إلى السّويد وأنّكِ الآنَ مع عمّي حامد وهذا يخفّفُ منْ ألمي. أنتِ الآنَ بأمانٍ وهناكَ منْ يرعاكِ.

قرّرتُ يا شادن بعدَ خروجي منَ السّجنِ أنْ أعيدَ بناءَ عملِ أبي. أعرفُ أنَّ المجمّعَ قدْ تهدّمَ في الحربِ ولكنَّ أبي كانَ عندَهُ أكثرُ منْ مستودعٍ

للأقمشةِ. أعدُكِ يا شادن أنْ أفتحَ محلَّ أقمشةٍ وأسمّيَهُ "أقمشةٌ دمشقيّةٌ" حتّى يبقى الاسمُ كما أرادَهُ أبي وسأجعلُهُ أفضلَ متجرِ أقمشةٍ في سوريا. سأبني بيتًا آخرَ لنا بدلاً منْ بيتِنا الّذي تهدّمَ كيْ يكونَ جاهزًا لاستقبالِكِ عندَما تتحسّنُ الأحوالُ في سوريا وترغبينَ في العودةِ. أنتِ، يا أختي العزيزةَ، كلُّ ما تبقّى لي في هذهِ الحياةِ... لنْ أغادرَ سوريا يا شادن، سأبقى هنا ... وسأكونُ لكِ بمثابةِ الوطنِ...
أخوك ماجد

مسحتْ شادن الدّموعَ الّتي انسكبتْ على خدّيْها ثمَّ كتبتْ رسالةً طويلةً إلى ماجد طمأنتهُ فيها على أحوالِها، وحاولتْ قدرَ استطاعتِها أنْ تخفّفَ منْ آلامِهِ وندمِهِ، وأنْ تشجّعَهُ على المضيِّ في بناءِ حياتِهِ منْ جديدٍ وأنهتِ الرّسالةَ بقولِها:

لا تعرفُ يا أخي الحبيبَ كمْ أشعرُ بالارتياحِ لأنّكَ تخطّطُ لبداياتٍ جديدةٍ. تأكّدْ أنّني سأنتظرُ اليومَ الّذي نجتمعُ فيهِ مرّةً ثانيةً عندَما تهدأُ الأحوالُ في سوريا فأنتَ بالنّسبةِ لي العائلةُ والوطنُ.
أختكَ شادن

سمعتْ شادن نقرًا على البابِ... إنّها آنا... دخلتْ وفي يدِها كومةٌ منَ الأوراقِ... تريدُ أنْ تتحدّثَ معَها عنِ الجامعةِ الّتي ستسجلُّ فيها بعدَ أنْ تتخرّجَ منْ معهدِ اللّغاتِ.

◆◆◆

في خضمّ الأحداث المتسارعة في سوريا، تدرك شادن، كابتن فريق كرة السّلّة في مدرستها أنّ عالمها سيتغيّر كليًّا وأنَّ عليها أن تكون قويّة وتتحمّل مسؤولية تفوق خبرتها في الحياة.

هل ستستطيع الصّمود أمام الصّعاب والوصول إلى برّ الأمان؟

أفراح وأحزان... أقارب وأصدقاء... قطارات ومحطات... نهايات وبدايات... جميعها خيوط تنسج قصة شادن وتشدّنا إليها.



السلوى
Salwa
Publishers ناشرون